القول المؤصل

في

تفسير المفصل

من سورة ق إلى سورة المرسلات

للشيخ الفاضل:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

كان الله له في الدنيا والآخرة

تفسير سورة (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

سورة ﴿ ق ﴾ أول المفصل عند جمهور العلماء، وهي في ترتيب السورة رقم خمسين، ومن شأنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب بها كل جمعة، وذلك لما فيها من الوعد والوعيد، ولما فيها من الحجج على أهل الكفر والعناد.

فعَنْ بِنْتِ لِحَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «مَا حَفِظْتُ ق، إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ» أخرجه مسلم .

قال ابن القيم في الفوائد (ص: ٥): وَقد جمعت هَذِه السُّورَة من أصُول الْإِيمَان مَا يَكْفِي ويشفي ويغني عَن كَلَام أهل الْكَلَام ومعقول أهل الْمَعْقُول فَإِنَّهَا تضمّنت تَقْرِير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوّة وَالْإِيمَان بِالْمَلَائِكَةِ وانقسام النَّاس إِلَى هَالك شقي وفائز سعيد وأوصاف هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء وتضمّنت إِثْبَات صِفَات الْكَمَال لله وتنزيهه عَمَّا يضاد كمله من النقائص والعيوب وَذكر فِيهَا القيامتين الصُّغْرَى والكبرى وَالْعَالمِينَ الْأَكْبَر وَهُوَ عَالم الْآخِرَة والأصغر وَهُوَ عَالم الدُّنْيَا وَذكر فِيهَا خلق الْإِنْسَان ووفاته وإعادته وحاله عِنْد وَفَاته وَيَوْم معاده وإحاطته سُبْحَانَهُ بِهِ من كل وَجه حَتَّى علمه بوساوس نَفسه وَإِقَامَة الْحفظَة عَلَيْهِ يُحصونَ عَلَيْهِ كل لَفْظَة يتَكَلَّم بهَا وَأَنه يوافيه يَوْم الْقِيَامَة وَمَعَهُ سائق يَسُوقهُ إِلَيْهِ وَشَاهد يشْهد عَلَيْهِ فَإِذا أحضرهُ السَّائِق قَالَ {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} أَي

[1] كان الابتداء في تفسير هذا الجزء في الثالث والعشرين من رمضان لعام ١٤٤١هـ

هَذَا الَّذِي أمرت بإحضاره قد أحضرته فَيُقَال عِنْد إِحْضَاره {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عنيد} كَمَا يحضر الْجَانِي إِلَى حَضْرَة السُّلْطَان فَيُقَال هَذَا فلَان قد أحضرته فَيَقُول اذْهَبُوا بِهِ إِلَى السجْن وعاقبوه بِمَا يستحقّه. انتهى

قوله: ﴿ ق ﴾ قيل اسم جبل، وقيل بأنه من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها كثير من السور تحديًا للمشركين أن يأتوا بمثله مع أنه من هذه الحروف التي كان بها نظم الكلام العربي، قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء: ٨٨]، وقال أيضا: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: ١٣] ، وقال: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨] .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أقسم بالقرآن، والغالب أنه إذا جاء بالحروف المقطعة أتى بعدها وصف القرآن أو ذكر ما يتعلق به، فهو كتاب الله العظيم الكريم الواسع، وقد أقسم الله عز وجل بالقرآن، وهو صفة من صفاته فهو كلامه ووحيه وتنزيله، سمعه منه جبريل حقيقةً ونزل به إلى النبي ﷺ.

والأدلة على أنه كلام الله كثيرة منها قوله : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾[التوبة:٦]، وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ﴾[الفتح:١٥]، وفي حديث جابر رضي الله عنه : «من يأويني حتى أبلغ كلام ربي» أخرجه أحمد .

﴿ الْمَجِيدِ ﴾ الواسع، فهو واسع في عجائب ما ذكر فيه من أحكام، وعقائد، وأخلاق وصفات، بحيث أن الآية منه يستدل بها في أبواب كثيرة من أبواب العلم، وفيه من الوعد والوعيد والخبر والاستخبار الشيء الكثير، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أي الكفار، وعجبهم إما أن يكون عن جهلٍ، وإما أن يكون عن كبر، وفي كلا الحالين يدل على سخف عقولهم وعظيم جهلهم، وشدة سفههم.

﴿ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل في وصفه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]، وهو دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٢٩]، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾[الجمعة:٢].

وكانت سبب دعوته ﷺ بالبشارة والنذارة حيث ينذر ويخوفهم النار والشرك ويدعوهم إلى الجنة والتوحيد، وأجرى الله عز وجل عاداته الكونية أن يبعث الرسل من قومهم؛ لأن لوط عليه السلام حين أُرسل إلى قرية سدوم آذوه فقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[هود:٨٠]، فكان بعد ذلك يبعث الله كل رسول من قومه.

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ المعرضون عن ذكر رب العالمين: ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي هذا الوحي شيء عجيب، وتقدم أن عجبهم إما لسخف عقولهم وكبرهم وإما لجهلهم، وإلا فإن الله عز وجل أنزله: ﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[الزمر:٢٨]، يُقرأ ويُفهم، ولكن عجبهم أنهم أنكروا البعث والنشور: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أي أئذا جاءنا الأجل وأكل أجسادنا التراب وتبددت أعضاؤنا: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾، وقال تعالى:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[الواقعة:٤٧]، وقال: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } [الإسراء: ٤٩] فأنكروا البعث، وقالوا: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي أمر بعيد ولا يكون، وهذا لجهلهم وإلا فإن الذي خلقهم هو الله ولم تعجزه البدأه فكيف تعجزه الإعادة؟ قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾[القيامة:٤٠]؟ بلى، لا يعجزه شيء.

وقال الله عز وجل: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس: ٧٨] .

ومن أركان الإيمان الستة الإيمان بالبعث بعد الموت كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين، ويطلق عليه اليوم الآخر على ما يأتي بيانه إن شاء الله .

ومن أعظم أسباب كفرهم الكفر بالبعث بعد الموت، ولذلك قال النبي ﷺ في شأن عبد الله بن جدعان كان لا يؤمن: «إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، أي أنه لم يؤمن بالبعث بعد الموت.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا ﴾ أي: أن الله عز وجل يقول: قد علمنا، وهذا على التحقيق، ﴿ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ من أجسادهم، فيذهب مع التربة ويتبدد مع الماء، وربما كان في بطن الدود ولا يضيع منه شيء، ويدل على ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ،

فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ " متفق عليه .

﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ وهو اللوح المحفوظ يكتب كل ما يتعلق بهم، والإيمان باللوح المحفوظ من الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾[البروج:٢١-٢٢]، ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٨-٧٩]، **وعن عبادة بن الصامت** رضي الله عنه **قال قال رسول الله** ﷺ: «لما خلق الله القلم قال: وما أكتب؟ قال اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة» أخرجه أبو داود .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ أي الواقع أنهم كذبوا، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ كبرًا وعنادًا، ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ مختلط، تارة يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:٥]، وتارة يقولون: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[الجاثية:٢٤]، وتارة يقولون: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾[الواقعة:٤٧-٤٨]، فاختلطت عليهم الأمور بسبب جهلهم وكفرهم وبعدهم عن الحق.

ثم ضرب الله لهم أدلة تبين قدرته النافذة: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ أي الكفار، ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ العظيمة البناء، ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ التي لا تختفي خلف حجر أو شجر بل يراها كل مبصر، ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ بغير عمد قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات:٤٧]، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [لقمان: ١٠] ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم والكواكب، ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ليس فيها من نقب أو خللٍ؛ وقد قال الله عز وجل في سورة الملك: {الَّذِي خَلَقَ

الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٢ - ٤] ، يعني: كلما أعاد النظر فيها ليتأمل نقص لا يجد فيها أي نقص بل يكل نضره ويضعف بصره، والسماء والأرض من آيات الله العظام الكبيرات الواسعات؛ ولذلك يضرب الله بهما المثل غالبًا ليري الكفار عجز أنفسهم وعظمة خالقهم، فالذي لا يعجزه ولا يكرثه خلق السموات والاراضين وما فيها لا يعجزه خلق إنسان ضعيف، والله المستعان .

﴿ وَالأَرْضَ ﴾أي أولم ينظروا أيضا إلى الأرض الواسعة كيف ﴿ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي: وسعناها، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبال عظيمات كبيرات كي لا تميد بهم ولا تتحرك، ﴿ وَأَنْبَتْنَا ﴾ ذكر نفسه على التعظيم وإلا فهو واحد سبحانه وتعالى، أخرجنا ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ من كل أنواع الثمار والفواكه جميلة المنظر وحسنة الطعم، فكم لنا فيها من عبر! وأرزاق! حيث جعل الله عز وجل رزقنا في الأرض نأكل من ثمارها، ونشرب من مائها، ونستكن فيما يبنى منها، وتواري أجسامنا بعد الموت، وأصل خلق الإنسان منها، قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠].

﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي: بالنظر إلى مثل هذه المخلوقات العظيمات مع التدبر والتفكر تبصرة يبصر بها قدرة الخالق سبحانه وتعالى، ﴿ وَذِكْرَى ﴾ فيها موعظة وذكرى ودلالة على وجوب التوحيد؛ لكن ليس لكل أحد؛ لأن المعرض لا يستفيد، ولكن: ﴿ لِكُلِّ

عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ عبد رجاع خاضع لله عز وجل مؤمن بقدرته وبما له من الحقوق.

زد على ذلك من العلامات الدالة على كمال قدرته: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أي: ومن عجيب شأن الله عز وجل الدال على قدرته وعلى تفرده بالخلق والملك والتدبير: أنه نزل من السماء ماءً والمراد بالسماء هنا السحاب، فكل ما على الإنسان يسمى سماء؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾[البقرة:١٦٤]، ﴿ مَاءً ﴾ عذبًا، ﴿ مُبَارَكًا ﴾ وبركته ظاهرة في طعمه، وفي سقيه، وكثرته، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي: بهذا الماء، ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ مزارع وافرات سميت جنة لأنها تجن وتغطي من دخل فيها، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ الحب المحصود من الذرة، والشام، والعدس وغير ذلك من الحبوب المدخرة والمأكولة.

﴿ وَالنَّخْلَ ﴾ أي وأنبتنا به النخل هذه الشجرة العظيمة في صفاتها وفي طولها، إذا وقف الإنسان بجانبها يحتاج إلى أن يرفع رأسه حتى يرى أعلاها، ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ طويلات، ﴿ لَهَا طَلْعٌ ﴾ ثمر، ﴿ نَضِيدٌ ﴾ لذيذ وجميل وعظيم، وهذا يعرفه أصحاب المزارع كم يجدوا في النخل من بركات، وكان طعام العرب لا سيما أهل المدينة التمر والماء، وكان طعام أهل مكة الصيد، إذ أن المدينة كانت ذات نخل، ومن عجيب شأن النخلة أن يستفاد من جميع أجزائها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ الله: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ الله قَالَ فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا » متفق عليه عن عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه، ومن عجيب شأن التمر أنه يصلح حلوى وإدام وطعام، ويستفاد من جميعها حتى النواة كانوا يطعمون

بها الخيل .

﴿ رِزْقًا ﴾ أي كل هذا جعله الله عز وجل رزقًا للعباد، والرزق: العطاء، ﴿ لِلْعِبَادِ ﴾ أي مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فكلهم يتنعمون في ملك الله، ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي: بالماء، ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ قد يبست أشجارها وأصبحت لا حياة فيها فما أن ينزل المطر إلا وهي حية بخضرتها ووجود الهوام فيها، ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بمثل هذا الحال كذلك يتم إحياء الموتى يوم القيامة ويخرجهم من قبورهم؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه .

وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : « وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله – أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله – مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ – نُعْمَانُ الشَّاكُّ – فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» أخرجه مسلم .

ثم يقول: لا تعجب يا محمد من كفر هؤلاء وبعدهم فقد: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول إلى أهل الأرض، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد ومع ذلك أبوا وتمردوا، مع أنه دعاهم سرًا وجهارًا، ورغبهم

ورهبهم، فلم يستجب له حتى زوجه وابنه والله المستعان، قال الله تعالى مخبرا عنه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) } يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَالله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَالله جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا [نوح: ٥ - ٢٠]، فانظر إلى طريقة دعوته لهم وصبره عليهم، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، مع أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، والله المستعان .

﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ أصحاب البئر أخذوا نبيهم وقتلوه ودفنوه ، وفي هذا أشد من فعل قريش، حيث حالوا قتل محمد ﷺ أما هؤلاء تمكنوا من قتله، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ أي قوم صالح، وكانوا يسكنون الجزيرة العربية وهم بعد قوم عاد وكذبوا صالح عليه السلام وعقروا الناقة.

﴿ وَعَادٌ ﴾ وأيضًا ممن كذب بالرسل قبيلة عاد التي كانت تسكن بلاد الأحقاف وأرض حضرموت والمهرة أعطاهم الله عز وجل من القوة الشيء العظيم فمع ذلك ما استفادوا منها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا

يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[الأحقاف:٢٦]، وأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ وأيضًا ممن كذب فرعون وهو مخلوق ضعيف ومع ذلك يقول: أنا ربكم الأعلى، وهو يعلم أنه كاذب، قال له موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، هالكًا، ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ أي وممن كذب بدعوة الله عز وجل القوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام.

﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ أي وكذب أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجرة حيث كانوا يجتمعون عندها ويشركون ويندون، وأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: ١٨٩] ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أيضًا ممن كذب قوم تبع، وهو أسعد الكامل اليمني المشهور الذي جاب البلاد طولًا وعرضًا، وقيل بأنه أول من كسى الكعبة، ويذكر أنه أسلم على يد اليهود في زمنه وبقي قومه على كفرهم، ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل هؤلاء الذين ذكروا من الكفرة مع غيرهم: ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ الذين أرسلهم الله عز وجل إليهم، وكان الواجب الإيمان بهم وتصديقهم لما أعطاهم الله من حجج قوميات، ودلائل ظاهرات، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ فوقع عليهم ما توعدهم الله بهم، فأهلك قوم نوح بالطوفان، وأهلك قوم ثمود بالصيحة، وأهلك عاد بالمطر والريح، وأهلك فرعون بأن أغرقه في اليم وهو البحر المتلاطم، وأهلك لوط بما أهلكم به حيث رفعت ديارهم إلى حيث شاء الله ثم ألقيت ونكست: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود:٨٢-٨٣].

قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت: ٤٠]

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ يقول: يا معشر المشركين الكافرين المنددين المكذبين بالبعث بعد الموت هل عجزنا عن الخلق الأول والواقع لا، ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ في شك وحيرة من البعث بعد الموت .

ثم قال مبينًا البدأة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ﴾ أي: خلقنا جنس الإنسان آدام من تراب ثم خلق أبناؤه من ماء مهين ومن ماء دافق، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٢ - ١٦] ﴿ وَنَعْلَمُ ﴾ مع ذلك: ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ما لم يظهره على قريب بل ربما يكون بجانبه وفي نفسه من الخواطر ما الله بها عليم وهو عاجز عن إدراكها والعلم بها، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أي: أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد وهو على عرشه، ليس معنى ذلك أن الله في حبل الوريد، فالله على عرشه، قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه:٥]، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[الأعراف:٥٤]، وقيل: المراد قرب الملائكة عند الموت ففي حديث البراء رضي الله عنه : «ينزل ملك الموت عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها الروح الخبيثة كانت في الجسد الخبيث» أخرجه أحمد، وسيأتي بطوله إن شاء الله ، وحبل الوريد: هو عرق يخرج من مناط القلب ويصله بالرأس يمر منه الدم.

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ أي من الملائكة الموكلين بكتابه أعمال بني آدم فيتلقفون

أقواله وأفعاله، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ أحدهم عن اليمين وهو الملك الذي يكتب الحسنات، والآخر عن الشمال وهو الذي يكتب السيئات، وصاحب اليمين له التقدم في هذا الشأن، فقد ذكرَّ أن صاحب السيئات لا يكتب إلا بعد أن يأذن له صاحب اليمين، ﴿ قَعِيدٌ ﴾ بمعنى قاعد أي: مرصد يكتب كل ما يصدر من هذا الإنسان.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ بل ولا يعمل من عمل وإنما ذكر القول لشهرته وكثرته ثم إن القول قد يطلق على الفعل، قال رسول الله ﷺ: "مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به، فليسَ لله حاجَةٌ أن يَدَعَ طعامَه وشرابه"، وقال الله عز وجل: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠] ، ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قيل: بأنها اسمان للملكين أحدهما رقيب والآخر عتيد، وقيل: المراد أنه رقيب يرقب قوله وفعله وعتيد يقيد ما وقع منه، ولا منافاة ولا يمنع أن يكون اسمه رقيب وعتيد وهو اسم جنس لكل ملك يكتب أعمال العباد.

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي: الإنسان لحظات الاحتضار حين يأتيه ملك الموت ويقعد عند رأسه ويقول: «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ»، للكافر، وقد كان النبي ﷺ حين جاءه الأجل يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ»، أخرجه البخاري ولما حضر الأجل أبا بكر رضي الله عنه دخلت عليه عائشة فذكرت قول القائل:

كل امرئ مصبح في أهلهِ والموت أدنى من شراك نعلهِ

فقال لها: يا بني قولي: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[ق:١٩].

فلا مفر من هذه السكرة لبر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا غني ولا فقير، ولا كبير ولا صغير، وقد بين رسول الله ﷺ ما يتعلق بهه اللحظات وما بعدها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ "، قَالَ: " فَلَا يَزَالُ يُقَالُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ " قَالَ: " فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا تَزَالُ تَخْرُجُ (١) ، ثُمَّ يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَيُقَالُ لَهُ: مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السَّوْءُ، فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ " أخرجه أحمد .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: الموت، ﴿ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ تفر وتهرب وتطلب السلامة، أو أنك إذا أردت أن تحيد منه لا سلامة كما قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[الجمعة:٨].

وعن عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ» أخرجه مسلم (١٤) .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أي: بعد الحياة البرزخية الطويلة التي يجازى فيها الإنسان على عمله، فعذاب القبر ونعيمة ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله عز وجل في شأن قوم فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٦]، وسيأتي في آخر سورة الواقعة شيء من لك إن شاء الله .

والصُور: هو القرن الكبير ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بإجماع العلماء:

والنفخ في الصور يكون على مرحلتين: النفخة الأولى: وهي نفخة الصعق: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ﴾[الزمر:٦٨]، والنفخة الأخرى: نفخة الإعادة: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[يس:٥١-٥٢].

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ أي: يوم القيامة هو اليوم الموعود، كما قال تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣] ، وهو اليوم الذي توعد الله عز وجل فيه عبادة فيجازي المحسن بإحسانه، والكافر بإساءته وإجرامه، ومن كان مخلطًا من أهل الإسلام فهو تحت المشيئة إن شاء عفى عنه وإن شاء عذبه، قال الله عز وجل: {إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] .

﴿ وَجَاءَتْ ﴾ في ذلك اليوم، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من الأنفس المكلفة، ﴿ مَعَهَا سَائِقٌ ﴾ من الملائكة، يسوقها إلى الجنة أو النار، كما قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [مريم: ٨٥، ٨٦] ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ يشهد

عليها ومنها حضور أعمالها المسطرة.

فيقال: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ ﴾ أيها الكافر والمعرض، ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي: عن هذا اليوم، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ أي غطاء الكفر حين حقيقةً رأيت هذا اليوم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الأعراف:٥٣]، ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قوي حاد يبصر ما كنت تنكره وتجحد وجوده، وقيل: عند الحساب يكون بصر الإنسان مفتوحًا لا يستطيع أن يغمضه لشدة الخوف والفزع ومراقبة الأعمال.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي: الملك الموكل به، ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ هذا ما قد سطر عليه وكتب، فإن الإنسان يؤتى بكتابه وفيه كل أعماله فيقول المعرض: ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾[الكهف:٤٩]،

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قيل: هذا قول الله، وقيل: يأمر به السائق والشهيد، وقيل بأنه قول الملائكة، والأول أظهر ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ كل كافر معاند لدين الله وشرعه، مجتنباً له والحال هناك: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]، فلا يستطيع أن يمنع عن نفسه أو يدفع.

﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ ومن صفات هذا الكافر أنه مناع للخير، يمنع الزكاة وما أوجب الله عليه، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم، ﴿ مُرِيبٍ ﴾ متشكك في دينه وشأنه، وهذا هو السبب العظيم الذي جعل الكفار يقعون فيما هم فيه ، ولما كان أهل الإيمان من أبعد الناس عن الشك والريب أقروا وصدقوا بما جاء عن النبي ﷺ، وآمنوا بالقرآن الذي لا ريب فيه،

فمن أعظم أمراض القلوب الشك والريب يجعل الإنسان يتنكر للمعقول ويرد الثابت عن رسول الله ﷺ، وانظر إلى المنافقين لما كانت قلوبهم مليئة بالشك والريب لم ينتفعوا بموعظة ولم ينجزوا عن باطل.

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ ومن شأن هذا الذي ألقي في النار أيضًا: أنه جعل مع الله إلهًا آخر يعبده ويدعوه ويرجوه وينذر له ويخاف منه ويرهب منه، فصرف العبادات لغير الله وما أكثر هذا الصنف حتى فيمن يقول (لا إله إلا الله) من عباد القبور من الصوفية، والرافضة، والباطنية ومن إليهم، فكم يصرفون للقبور من عبادات مثل قول بعضهم:

هات لي منك يا ابن موسى إغاثة في سيرها حثاثة

والآخر يقول:

يا من يفر من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

وتسمعهم حين زياراتهم، يا عيدروس، يا جبرتي، يا علي يا حسين، يا جيلاني يدعون غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا هو الشرك الذي من أجله أرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، حتى يعبد الله لا يشرك به شيئًا، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]

﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ هذا المعرض المتكبر، ﴿ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ الموجع.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي: شيطانه، وقيل: الملك؛ لأن الإنسان في ذلك اليوم يقول: هذا الذي كذب عليّ وكتب عليّ ما لم أقل؛ لكن الذي يظهر أنه شيطانه القرين الجني، ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ لست أنا الذي أطغيته وأوقعته فيما وقع فيه من الشرك؛ ولكنه كان كافرًا باغيًا كما قال الله عز وجل: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ

كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾[الصافات:٢٧-٣٠]، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ كان في كفر سحيق.

فقال الله عز وجل عند ذلك: ﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا ﴾ نهاهم عن المخاصمة لأنها بالباطل، ﴿ لَدَيَّ ﴾ أي عندي لأنه مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي في الدنيا حيث ذكرت ما للكافر من الوعيد والعذاب الأليم .

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي: أن الله إذا قضى قضاءً لا يرد، كما قال الله عز وجل: «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ» أخرجه مسلم (١٩) عن ثوبان ﷺ.

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ لكمال عدله سبحانه وتعالى، وهذا كقوله: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩]، وإنما يجازي المحسن بإحسانه ويضاعف له المثوبة، ويجازي الكافر بإساءته وسيئاته التي أوبقته.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يجوزون لله أن يعذب من شاء بغير ذنب حتى قال السفاريني:

وجاز للمولى يعذب الورى من غير ما ذنب ولا جرم جرى

وهذا غير صحيح، فإن الله عز وجل لا يعذب أحدًا إلا بجريرته وظلمه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ أي: فلا يبدل قول الله الكوني مطلقًا ولا يبدل في الآخرة وهو من أسماء النار: ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ لأن الله قد وعد بملئها، فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ

وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ الله لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ الله، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ الله مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ الله يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا " أخرجه مسلم (٣٦) ، ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ قيل: بإنها تقول: ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾؛ لأنها ما زالت تتسع للمزيد، وقيل: تقول ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ يعني على الإنكار كأنها ملأى، والذي يظهر بالمعنى الأول أنها ما زالت تتسع حتى يضع الجبار عليها قدمه سبحانه وتعالى.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ قربت وأدنيت كما قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الشعراء: ٩٠] ، ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ للمخبتين المنيبين الطائعين لرب العالمين، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يرون ما فيها من الخير والنعيم، ويستبشرون برؤيتها ويؤملون دخولها، وانظر إلى حال المؤمن والكافر في ذلك الوقت، الكافر يرى النار يحطم بعضها بعضًا وقد استيقن وقوعه فيها، والمؤمن يرى الجنة وما فيها من البهاء والحسن ويؤمل أن يدخلها: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، وكما قال الله عز وجل:﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[الشعراء:٩١].

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ يا معاشر المؤمنين، ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلى الله عز وجل، ﴿ حَفِيظٍ ﴾ لحدود الله عز وجل، فيعمل الحلال ويترك الحرام، ويأتي بالتوحيد ويبتعد عن الشرك والتنديد.

والأواب الحفيظ: هو ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ من خاف الله عز وجل مع تعظيمه فإن الخشية هي الخوف مع التعظيم كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]، ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أي في غيبته، فلم يطلع عليه أحد وهو يراقب الله في خلوته وجلوته، ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ سليم كما قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، وفي هذا دليل على أهمية معالجة القلوب من الشك والريب والنيات السيئة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال قال النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ» أخرجه مسلم (٣٦) .

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أي: الجنة، ﴿ بِسَلامٍ ﴾ لهم سلام من الله كما قال: ﴿ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾[يس:٥٨]، وأيضًا يعيشون في سلام وسلامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» أخرجه مسلم ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾؛ لأنهم إذا دخلوا الجنة ذبح الموت كما في حديث أبي سعيد : «جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ» **متفق عليه** .

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ من المآكل والمشارب والمناكح وما أملوه ورجوه، حتى أن الرجل يتمنى الولد فتحمل زوجته وتضع في طرفة عين، وبعضهم يسأل الزراعة فيزرع وينبت في لحظات وحالها كما قال الله عز وجل: {لا مقطوعة ولا ممنوعة}، وقال: { إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤] ، وقال: {فلهم أجر غير ممنون} .

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ والمزيد: هو النظر إلى وجه الله عز وجل، ويدل على هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، وقوله ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، فالأدلة دالة على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في المحشر، ودالة على رؤية المؤمنين لربهم في الجنة وهو أعلى نعيم الجنة؛ ولذلك

كان النبي ﷺ يقول: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك»،

وعَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ " أخرجه مسلم (٢٩٧) .

وفي هذه الآيات دليل على أبدية الجنة والنار خلافًا لمذهب المعتزلة ومن إليهم.

ثم قال الله عز وجل لكفار قريش محذرًا لهم من كفرهم وتماديهم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي: من قرون كثيرة، ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أشد منهم قوةً وبطشًا ومالًا وكثرةً، ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ﴾ ساروا في البلاد، كما قال امرئ القيس:

وقد نقّبت في الآفاق حتّى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ هل من مفر ومهرب ومخرج؟ والجواب أنهم لن يجدوا ذلك، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ٦ - ١٤] .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر، ﴿ لَذِكْرَى ﴾ تذكره، ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ سليم يستفيد مما أنزله الله؛ لأن صاحب القلب المريض لا يستفيد كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا ﴾[البقرة:١٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ

﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥]، ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ استمع لوحي الله، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر القلب مريد الخير، وأما الكفار والمعرضون فلم يستفيدوا كما أخبر الله عز وجل عنهم بقولهم: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦] .

ثم قال الله عز وجل مبينًا عظيم قدرته: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ السموات العظيمة الرفيعة والأرض الواسعة، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مما شاء الله عز وجل خلقة في ستة أيام، ولا يعجزه شيء لو أراد أن يخلقهما في طرفة عين: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، ولكن خلقهما في ستة أيام لربط الأمور بمسبباتها ولحكمة أرادها الله عز وجل، وقال بعض أهل التفسير اليوم منها ألف سنة ولا أعلم دليلاً على ذلك.

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أي إعياء، وفي هذا رد على المبطلين ممن زعموا: أن الله عز وجل خلق السموات والأرض ثم ارتاح في اليوم السابع، فالله عز وجل لا يعجزه شيء لكمال علمه قدرته وقوته وبهذه الآية وما في بابها يستدل أهل العلم على أن الصفات المنفية لا بد أن تتضمن كمال الضد، فقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ لكمال قوته وقدرته وقهره.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ويفعلون من سب وشتم وأذى من أنك ساحر أو شاعر أو مجنون، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزه ربك عن كل نقيصة وعيب واثبت له جميع المحامد والكمالات، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ ويستدل بها على أوقات الصلوات المفروضات، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ وهو الفجر، ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ الظهر والعصر، وجاء عن النبي ﷺ حديث أبي هريرة: «يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ثم يجتمعون في صلاة العصر فيسألهم ربهم وهو أعلم كيف تركتم

عبادي؟ قالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» متفق عليه .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ صلاة العشاء والمغرب، ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ نزهه أيضًا: ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ أدبار الصلوات، وقيل هما الركعتان بين المغرب فالآيات دالة على العبادات الفعلية والقولية، وفيها إشارة إلى فضل الذكر بعد الصلاة.

﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ أي إنك ستسمع ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قيل: بأن إسرافيل يكون على صخرة بيت المقدس فينادي الناس للمثول بين يدي الله عز وجل، فينفخ في الصور فترد الأرواح إلى أجسادها والله أعلم.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ صيحة البعث والنشور، قال النبي ﷺ: **قَالَ:** «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ، فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى الله» أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ من القبور كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[المعارج:٤٣]، فيجازون على أعمالهم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تعظيم لنفسه المقدسة، ﴿ نُحْيِي ﴾ أي: الميت نجعله حيًا، ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ الحي نجعله ميتًا، ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أي إلى الله المرجع يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أي: أن هذا الإحياء سيكون: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ فيخرج الأموات من بطنها، ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من تكذيبهم وعنادهم، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يا محمد ﴿بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ ﴾، برب تجبرهم على الإيمان ، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾[الأعلى:٩-١٠]، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨]، فهذا هو المعنى: لست عليهم بجبار، وكما قال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾[البقرة:٢٧٢]. وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]، وقيل: لا تكن متكبرًا عليهم، والمعنى الأول أصح، ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمد، ﴿ بِالْقُرْآنِ ﴾ الكريم الذي أنزله الله عليك، ﴿ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ من يخاف وعيد الله عز وجل ويرجو وعده، أما المعرض فإنه لا يستفيد: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١].

انتهينا من تفسير سورة ق ولله الحمد والمنة.

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مكية.

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ الرياح تذر السحاب وتحمل معها حبوب اللقاح، وينتفع بها الناس أيما انتفاع، فإن الريح إذا توقفت حصل الضرر واشتد الحر وبقيت السفن واقفة على أسطح البحار، ففيها من الفوائد ما الله به عليم، دمر الله بها قوم عاد ونصر الله بها رسوله ﷺ.

﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ﴾ السحب تحمل المياه الكثيرة إلى حيث شاء الله.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ السفن، يسر الله جريها في البحار، ولولا أن الله عز وجل أجراها بالريح التي تنتج الأمواج لرأيت الأمر شديدًا ما عسى المحركات وحدها أن تصنع بالسفينة أميال كثيرة، ثم إن السفن قبل وجود المحركات إنما كانت بالأشرعة ويعتمدون الريح.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة تقسم الأرزاق بأمر الله عز وجل، فأقسم الله عز وجل بآيات عظيمات ومخلوقات جليلات: الريح، والسحاب، والسفن، والملائكة.

على وقوع القيامة حيث قال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي: ما تُخبرون به عن يوم القيامة، ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ واقع لا يتخلف، ولذلك قال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [المعارج: ١، ٢].

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ الجزاء والحساب، ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ في ذلك اليوم، ويكون الناس فيه على حالين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، قال الله عز وجل: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا } [الانشقاق: ٧ - ١٢].

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أقسم بالسماء وما فيها من الآيات الباهرة البهية من نحوم، وكواكب وقيل: بأن هذه السماء هي السابعة، وقيل: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ لأنها فيها تدرجات كتدرجات الماء، والمعنى الأول أصح: أنه أقسم بالسماء البهية الجميلة العظيمة التي زينها بالنجوم وأحسن بنائها، كما قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: ٣ - ٥] .

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ لأنه لم يؤخذ من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وربنا عز وجل يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢]، فسبب الاختلاف: البعد عن كلام الله وكلام ورسوله ﷺ، وسبب الائتلاف الاجتماع على كلام الله وكلام رسوله ﷺ، واختلافهم في البعث والنشور وفي شأن محمد ﷺ والقرآن.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي: يصرف عن الإيمان باليوم الآخر وغيره من المغيبات من صرف ممن ضل وهلك.

﴿ قُتِلَ﴾ أي لعن ﴿الْخَرَّاصُونَ ﴾ الكذابون خبراً من أنهم ملعونون، فهم في لعن بلسان الحال والمقال، وقوله: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ دليل على الإيمان بالقدر، وأن الإنسان قد يصرف بسبب ما ختم الله على قلبه لعمله بحاله ومآله وما ربك بظلام للعبيد .

﴿ الَّذِينَ هُمْ﴾ أي الخراصون ﴿فِي غَمْرَةٍ ﴾ في غفلة وحيرة ﴿سَاهُونَ ﴾ أي لاهون لا يؤمنون بالبعث والنشور والجزاء والنار

﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ متى يكون يوم الدين؟ يوم الجزاء والحساب الذي تخبرنا به يا محمد؟ ، وهذا منهم استهزاء وتكذيب .

فكان الجواب: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يقع الجزاء يوم يفتنون بالنار ويعذبون ويرونها رأي العين، ويتمنى أحدهم لو يرجع إلى الوراء ليعمل صالحًا وهيهات.

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي حريقكم وعذابكم بسبب ما أنكرتموها ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا وذلك أنهم كانوا يستعلجون النبي ﷺ بالساعة كما قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾[النبأ:١-٥]، ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج:١-٣]، ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣]، فكل ما آتٍ فهو قريب، واستعجالهم بالعذاب ليس لحبهم له إذ كانوا يسألون النبي ﷺ العذاب بل كان كبراً وتكذيباً وبغياً وسخريةً فأتاهم ما يوعدون.

فلما أخبر الله عن حال الكفار المهني ناسب أن يذكر فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي إن المراقبين لله بفعل المأمور وترك المحظور الموحدين لله والمتابعين لرسول الله عليه وسلم وحقيقة التقوى ما قال طلق بن حبيب:« التَّقْوَى عَمَلٌ بِطَاعَةِ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ اللهِ مَخَافَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف .

﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، لأنها تجن وتغطي من يدخل فيها لكثرة ثمارها ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أنهار كثيرة فيها النعيم العظيم والخير العميم، والحال كما قال الله: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، بينما الدنيا كثير من ملذاتها إما مقطوع تتنعم به ثم ينقطع، وإما ممنوع لا تصل إليه، والجنة بخلاف ذلك، قال الله عز وجل : {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، أكلها دائم وظلها، ﴿ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣].

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض قاله ابن جرير، والسبب في وصولهم إلى هذه المرتبة العلية والدرجة السامية: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ كانوا يلازمون الإحسان في أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم، ويدخل في الإحسان التوحيد وما دونه .

ومن إحسانهم أنهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ كان هجوعهم بالليل قليل، ولها معنى آخر: أنهم كانوا ينامون الليل ويقومون القليل وكله خير فإن الله عز وجل شكور يجازي الحسنة بأضعافها، والقول الأول أقرب: مع أن كلا المعنيين صحيح.

ومن إحسانهم: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال مجاهد يصلون أي وفي وقت السحر وقد قام من نومه يناجي ربه بالدعاء ولاستغفار، ولو كان مع الصلاة لكن من أحسن الحالات وأبرك اللحظات وسبب لعظيم الهبات والمكرمات، وقد امتدح الله أهله فقال الله عز وجل: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾[آل عمران:١٧]، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟»، متفق عليه، وفي حديث عمر بن عبسة: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ»، فعلى المؤمن أن يستغل هذا الوقت المبارك مؤثرًا لطاعة الله على وفارة الفرش، ثقل النوم، فمن أراد الخير لنفسه فليحافظ على هذا الوقت المبارك في طاعة الله عز وجل.

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ ﴾ ومن إحسانهم: أنهم في أموالهم: ﴿ حَقٌّ ﴾ من الصدقات المفروضات والمستحبات: ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل الناس لحاجته وفقره، ولا يجوز نهره، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾[الضحى:١٠]، ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ في تفسير الحسن: المتعفف القاعد في بيته الذي لا يسأل، وقال الجمهور الذي ليس له في الإسلام

سهم، واختار ابن جرير أنه من لا مال له، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ»، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣] فالشاهد: أن المؤمن يكون في ماله حق لنفسه وزوجه وابنه وغيرهم من الأرحام والأباعد، ولبيان فضل إنفاق المال في الحين أنه قرن بكثير من العبادات المقربة إلى الله عز وجل وقرن بالصلاة وجعل من أركان الإسلام الخمسة؛ لأن الله عز وجل كريم ينفق آناء الليل والنهار، وأمر محمداً ﷺ بالإنفاق بقوله: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»، وأمر المسلمين بالإنفاق في أوجه الخير، فإن كنت من أهل الزكاة أو الصدقات فإياك أن تتحيل على حق الله: وهي أموال تقدمها اليوم تجدها عند الله فإن مال العبد ما قدم، وربّ صدقة تفك بها كربة، وتقضى بها حاجة، وتسد بها خلة.

﴿ وَفِي الأَرْضِ﴾ التي جعلها الله وبسطها ﴿آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ وهذا استئناف للكلام ، يقول سبحانه وتعالى ومن الدلائل على وحدانيته: أن في الأرض الواسعة المترامية الأطراف: ﴿ آيَاتٌ ﴾ علامات، ﴿ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ للمستيقنين لوحي رب العالمين، وكما قال الأول: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدل ذلك على العليم الخبير.

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي وفي بدء خلقكم من تراب ثم خلق نسل آدم منه ففي هذا البدن من الآيات البينات والعلامات الظاهرات على قدرة الله عز وجل الأمر العظيم، ولنضرب مثلًا: انظروا إلى أصحاب السكر يعجز عن أكل الحلويات وأكل كثير من المأكولات؛ لأنه سلب نعمة غدة صغيرة تسمى البنكرياس، وانظروا إلى أصحاب الفشل الكلوي يحتاج إلى غسيل في كل يوم أو في الاسبوع مرتين على أقل الأحوال، ويذكر الأطباء أن الكلية تقوم بهذه العملية في اليوم مئات المرات، وأن فيها أكثر من مليون مصنع إذا عبر عنه بذلك تنقي الدم وتصفيه وتخرج السموم والأوساخ وكم

فيها من منافع، فإذا فسدت أصبح الإنسان معطلًا ويحتاج إلى غسيل يأخذ الأموال والوقت وتذهب عليه الصحة ، فالشاهد: أن الله جعل من أعظم الآيات الدالة على عدم وحدانيته خلق الإنسان وما ركب فيه ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ ألا تتفكرون أن هذه النفس لم تأتِ من عدم أو تخلقها الطبيعة كما يزعمون وإنما خلقها الله.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي من السماء يأتي الرزق وهو المطر، ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الوعد والوعيد والثواب والعقاب .

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾أقسم بنفسه المقدسة، ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: البعث بعد الموت أو القرآن الذي أوحاه إلى محمد ﷺ أو ما ذكر من شأن الرزق الذي وعد به الإنسان، ﴿ لَحَقٌّ ﴾ واقع وصدق، ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ كما تتكلمون وتوقنون بذلك فإن يوم القيامة كائن لا محاله، وذكر أن معاذ رضي الله عنه كان يقول إذا حدث صاحبه: إن هذا لحق كما أنك ها هنا .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أي: قد أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم ابن آزر خليل الله عليه السلام وضيفه كانوا من الملائكة حين جاءوا بالعذاب لقوم لوط إلا أنهم جاءوه في صورة آدميين، ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ لكرامتهم عند الله عز وجل وكرمهم في أنفسهم حيث يلازمون معالي الأمور .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ البيت والمكان الذي هو فيه في صورة الآدميين، ﴿ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ دعوا له بالسلامة وسلموا عليه، بتقدير سلمنا عليكم سلاماً ﴿ قَالَ سَلامٌ ﴾ يرد عليهم بمعنى سلام عليكم ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ تعجب من مجيئهم وأنكر وجوههم إذ أنهم في غاية من البهاء والجمال ومع ذلك عرف فيهم الصلاح فبادر إلى إكرام ضيفة.

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي: انسل خفية فرجع إلى أهله لإعداد قراء الضيف، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» **متفق عليه عن أبي هريرة** رضي الله عنه ، وليلة الضيف دين على كل مسلم، فمن أصبح وهو بفنائه فحق عليه أن

يكرمه»، «والضيافة يوم وليلة وإلى ثلاثة أيام، فاليوم والليلة واجب وحتم والثلاثة الأيام ممدوح وسنة، والضيافة متعينة على أهل الحضر والمدر إن لم يجد المكان الذي يأوي إليه والطعام الذي يأكل منه، وإذا منع الضيف مما هو له جاز أن يأخذه ولو بالقوة؛ لكن مع أمن الفتنة، فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ» أخرجه مسلم، وكان إبراهيم عليه السلام كريمًا وهكذا أنبياء الله ورسله، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ولد البقر؛ سمين أي من خيار ماله .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أدناه منهم وفيه دلالة إلى أن الطعام يقرب إلى الضيف وإن كانت هناك غرفة معدة للطعام فلا بأس أن يقوموا إليه وليس فيه من الامتهان أو الاحتقار شيء، ومع تقريبه لهم لم يأكلوا فـ ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ لأنه رأى أيديهم لا تصل إليه، كما قال تعالى: { فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم} فإن الضيف لا سيما الذي يأتي من مكان بعيد إذا قرب إليه الطعام والشراب بادر إلى ذلك؛ لكن إبراهيم لم يرَ منهم ذلك.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ إذ لعله تخوف أن يكونوا قد جاءوا لشيء ولذلك لم يؤمنوه بالأكل من طعامه والشرب من شرابه، وفيه: أن الخوف الطبيعي غير مذموم؛ لأن الخوف أقسام: منه خوف الشرك: وهو الخوف من المقبورين والمربوبين، وخوف السر على أنهم ينفعون مع الله أو من دون الله، وخوف محرم: وهو الخوف الذي يؤدي إلى ارتكاب حرام أو ترك واجب، وخوف طبيعي: وهو التخوف من النار والثعبان وصولة العدو ونحو ذلك.

﴿ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ أمنوه وقربوه، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاق عليه السلام من سارة إذ كان قد أعطي غلامًا حليم وهو إسماعيل عليه السلام من هاجر.

﴿ فَأَقْبَلَتِ﴾ جاءت سارة ﴿امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ صيحة ورنة {فصكت وجهها} أي ضربت بيدها على جبينها متعجبة من هذه البشارة؛ فقد كبر سنها ومثلها لا يحمل ولا يلد، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز عقيم مستبعدة لهذه البشارة.

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وخبر الله يجب قبوله ولا يجوز أن يرد؛ لأنه القائل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾[النساء:١٢٢]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾[النساء:٨٧]، بل جاء أنه قال: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾[الحجر:٥٤-٥٥]، أي: بالصدق والواقع، ﴿ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾[الحجر:٥٥]. ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[الحجر:٥٥-٥٦].

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي عليم بما تستحقونه من الكرامة حكيم إذ أخر الحمل إلى هذا السن، فهو عليم بمصالح العباد، وكان هذا الولد مكرمة لإبراهيم عليه السلام بعد أن ابتلاه الله واختبره بالأمر بالذبح ولده إسماعيل، فلما أتى بما أمره الله سلم الله له إسماعيل وأكرمه بإسحاق وبشره بيعقوب، قال الله عز وجل: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١] وهذا دليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق كما يقول اليهود والنصارى.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ ما أمركم الذي أرسلتم به لأن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ مشركين، والمعنى أن الله أرسلهم إلى الأرض لأمر لا يعلمه إبراهيم، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ فما شأنكم.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي: أرسلنا الله عز وجل إلى قوم كافرين بغوا وطغوا وأجرموا وأفسدوا، وكان من إفسادهم مع شركهم أنهم يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وهذا من أسوأ الفواحش وأعظم الذنوب وهو اللواط الذي عرفوا به وانتشر في عهدهم، وقد دعاهم لوط عليه السلام

إلى تركه فأبوا وعجبوا من دعوته لهم إلى ترك هذا الأمر أمروا بإخراجه من قريته، كما قال تعالى: : ﴿ أَخرِجُوا آل لوطٍ من قَريَتِكم إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[النمل:٥٦]، وجعلوا يسخرون من المتطهرين ممن سلمه الله من هذه الفاحشة، وأما قول لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[الحجر:٧١]، فليس معناه: أنه دعاهم إلى الزنا ببناته فالدياثة حرام ولوط رسول الله؛ لم يكن لينهي عن أمر ويدعو إلى الله، ولكن المراد عليكم بنسائكم وأضافهن إلى نفسه؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ولكنهم أبوا، فجاءهم عذاب الله.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ وقال في موطن آخر: {مِنْ سِجِّيلٍ} فالطين أصلها والسجيل ما آلت إليه، فترسل عليهم من فوق رؤوسهم فتؤدي إلى هلاكهم.

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معدة ومعلمة، ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ للذين أسرفوا في الباطل وعتوا وتجبروا ولم يتوبوا من المعصية، وقصة مجيئهم إلى لوط عليه السلام مذكورة في سورة الحجر وهود وغير ذلك من السور.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم لوط وبناته، فلم يكن على الإيمان في تلك القرية غيرهم .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي غير أهل بيت ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ دخلت امرأته في هذه الآية؛ لأنها كانت تظهر أنها على دين لوط وكانت خائنة ممالئة لقومها، فكان في القرية بيت من المسلمين، وأما الإخراج فلم يكن إلا للمؤمنين؛ لأن زوجته هلكت مع الهالكين.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي في إهلاكهم ﴿آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ فيحذرون أن ينزل بهم مثلهم فقد دمر الله عليهم وجعل عاليها سافلها، فإذا أُخبر المؤمن بحال هؤلاء كانت له فيه آية وعظة، فينبغي للمسلم إذا سمع مثل هذا القصص أن يكون مبادرًا إلى التوبة والإنابة والخوف من مكر الله وبطشه.

﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ أي تركنا آية أخرى في موسى عليه السلام نبي بني إسرائيل، ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون مصر الذي ادعى الربوبية وقال: {أنا ربكم الأعلى}، ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة بينة، ومنها تسع آيات أشهرها العصا كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا} [الإسراء: ١٠١]، وقال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [الأعراف: ١٣٣]، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[الشعراء:٣٢-٣٣].

وَجَمعهَا الفيروزآباديّ فِي قَوْلِهِ:

عَصًا، سَنَةٌ، بَحْرٌ، جَرَادٌ، وَقُمَّلٌ ... يَدٌ، وَدَمٌ، بَعْدَ الضَّفَادِعِ طُوفَانُ

﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أي: فرعون تولى عن دعوة موسى، ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ إلى ملكه وقومه، ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ ﴾ أي اتهم موسى بالسحر، ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وهذا قول أغلب المخالفين للرسل إذ أعييتهم الحجج اتهموهم بالسحر والجنون، ومما يدل على بطلان قوله أنه دعا سحرة مصر وكانوا من أشد الناس سحرًا، والتقوا بموسى عليه السلام: فألقوا حبالهم وعصيهم فتحولت إلى ثعابين، وهزموا كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾[طه:٦٠-٦٧]، لكثرة الثعابين والحيات فقال الله له: ﴿ لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ﴾[طه:٦٨]، أنت المنتصر: ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾[الشعراء:٤٥]، تلقف سحرهم وتلتهمه فعند ذلك علم السحرة أنما جاء به موسى ليس بسحر، ولكنها آية عظيمة وحجة كبيرة، ولذلك سجدوا لله جميعًا في حال رؤيتهم لذلك الأمر.

كما قال تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الشعراء: ٤٦ - ٤٨]

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ أي: أن الله أهلك فرعون وجنوده بعد كبرهم وغطرستهم حيث دعا عليهم موسى عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[يونس:٨٨]، فخرج موسى عليه السلام بقومه من مصر فأتبعهم فرعون وجنوده: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[الشعراء:٦١-٦٣]، فأنجى الله عز وجل موسى ومن معه أجمعين وأغرق فرعون في ذلك البحر الخضم وجعل فرعون يقول: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس:٩٠]، فكان الجواب: ﴿ آلآنَ ﴾[يونس:٩١]، أي: عند الغرغرة، ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩١]، وما جاء أن جبريل عليه السلام كان يلقمه التراب حتى لا يتمكن من النطق بالشهادة حديث منكر فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} [يونس: ٩٠] "، قَالَ: " قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ حَالًا مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَدَسَّيْتُهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ ".

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أُلقيوا في البحر حيث ضرب موسى عليه السلام البحر فصار كالجبل العظيم قاعًا يابسًا فمر موسى ومن معه، ثم تبعهم فرعون ومن معه، فلما توسطوا البحر وخرج موسى وقومه أعاد الله عز وجل

البحر كما كان فأصبحوا هلكى فيه، كما قال: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} [الشعراء: ٦٤ - ٦٦] فلتكن في هذه القصة آية وعبرة للمعتبرين التائبين المنيبين .

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي ومن الآيات والعبر ما قصه الله في شأن عاد وهم سكان الأحقاف من بلاد حضرموت والمهرة وما إليها، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾[الفجر:٦-٧]، فعاد من قوم إرم: ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[الفجر:٧]، أي: أن بيوتهم كانت ذات أعمدة ليس معنى ذلك أن هناك مدينة اسمها: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[الفجر:٧]، ويذكرون أنها تنتقل وأنها تُرى في السماء هذا كله كذب، قال الله عز وجل: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأحقاف: ٢١] .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ بسبب كفرهم حيث: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾[الحاقة:٧]، متتابعات، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة:٧-٨]، وكان مبدؤها أنهم أرسلوا قومهم إلى مكة للاستسقاء فأخرج الله لهم ثلاث سحب فاختاروا السوداء فقيل: كوني ريحًا رمددًا لا تبقي من عاد أحدًا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾[الأحقاف:٢٤]، يعني: استبشروا: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٥].

﴿ الْعَقِيمَ ﴾ قالوا هي الجنوب، وقيل هي ريح الدبور التي لا تدع شعابا ولا شجاراً، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» أخرجه مسلم (١٧) .

﴿ مَا تَذَرُ﴾ ما تترك ﴿مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ مرت عليه مما تدمره الريح فقد تركت المساكن والجبال والوهاد وغير ذلك؛ ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ جعلته كالبناء المهدم الخاوي على عروشه.

فلما ذكر ما حل بعاد ثنى بما حل بثمود: ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ وهم قوم صالح، ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى آجال بغير عذاب فأمهلهم وأملى لهم، ولكنهم أبوا إلا الكبر والغطرسة ومخالفة أمر الله حيث قتلوا الناقة وعقروها كما قال الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾[الشمس:١١-١٣]، واتركوا ناقة الله واتكروا سقياها كما أمركم الله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾[الشمس:١٤]، عقرها واحد؛ لكنهم تمالأوا معه وأقروه فكان العذاب عليهم جميعًا: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١٤-١٥].

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي تركوا وتمردوا عن أمر ربهم ووحيه، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ لأنه أمهلهم ثلاث كما ذكر أهل التفسير، وهم يعلمون صدق حديثه ففي اليوم الأول اصفرت وجوهُهم وفي اليوم الثاني شحبت وجوههم واليوم الثالث اسودت وجوههم فجاءتهم الصاعقة وهم يتلفتون هاهنا وهاهنا ينتظرون ما توعدهم الله به، كما قال تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ} [هود: ٦٥ - ٦٨] .

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا ﴾ أن يسلموا أنفسهم، ﴿ مِنْ قِيَامٍ ﴾ وهرب،﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ لأن الله عز وجل حاربهم وأهلكهم ودمدم عليهم، ولا يعجزه شيء .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أيضًا فيهم عبرة وآية، وهو أول رسول أُرسل إلى أهل الأرض وبينه وبين آدم عشرة قرون من قبل هذه الأمم المذكورة في هذه الآية، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ومن فسقهم أنهم لم يدخلوا في الإيمان مع كثرة دعوته لهم: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[العنكبوت:١٤]، فأبوا إلا الكفر والعياذ بالله، فأرسل الله عليهم الطوفان ولم يسلم إلا من ركبوا السفينة، كما أخبر الله عز وجل في غير موطن .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ولما ذكر الله عز وجل قدرته النافذة وقوته القاهرة، وأنه لا يسلم منه إلا من سلمه الله بإيمانه وإحسانه أخبر أن السماء العظيمة بناها ربنا: ﴿ بِأَيْيدٍ ﴾ أي: بقوة، فليست الآيد بمعنى اليد؛ لأن المعطلة زعموا أن يد الله بمعنى قوة الله مستدلين بهذه الآية، قال ابن خزيمة: من لم يفرق بين الآيد يحتاج إلى أن يذهب إلى الكتاتيب ليتعلم لغة العرب، ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي: قد أوسعناها، وليس كما يقول أصحاب الهيئة الجديدة: أن السماء ما زالت تتوسع بما يسمونه بنظرية التمدد الكوني أو نظرية الانفجار العظيم، ويطلقون عليها نظرية "سوبرنوفا " فهذه نظرية بائرة قائمة على العقل والهوى، وإلا فإن السماء قد بنيت ووسعت حين خلقها الله عز وجل.

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ ومن عظيم آياته أن الأرض فرشها أيضًا ومهدها، ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ليسهل المشي عليها والاستفادة منها، ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ نعم الفعل أنه مهدها سبحانه وتعالى وهو الموصوف بكل كمال.

ومن عجيب قدرته أنه: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى، كقوله: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [النجم: ٤٥] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يا معاشر الناس وتكون لكم في ذلك عبرة للإيمان بالرب القادر القاهر الواحد .

﴿ فَفِرُّوا إِلَى الله ﴾ بطاعته، فكل من خفته تفر منه إلا الله، فإذا أردت السلامة حقًا ففر إليه، لا ملجا ولا منجى منه إلا إليه، ويكون الفرار إليه بالطاعة والتوبة والإيمان، ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يقول: يا محمد ادعهم إلى الفرار إلى الله وأخبرهم أنك مرسل من الله نذير تنذرهم بطش الله وعذاب الله عز وجل، ﴿ مُبِينٌ ﴾ بكلام واضح وحجة ظاهرة.

﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ ﴾ إياكم والشرك والتنديد، لا تجعلوا مع الله ما يعبد لا ملكًا مقربًا ولا نبي مرسلًا، ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ تأكيد لما جاء به محمد ﷺ من النذارة والبشارة.

مع ذلك: ﴿ كَذَلِكَ﴾ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وهؤلاء سلكوا نفس المسلك فزعموا أن النبي ﷺ: ﴿ سَاحِرٌ ﴾ يتعاطى السحر، ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ لا يعقل ما يقول ولا يدرك شيء من الأفعال، وهذا من قبيح ظلمهم وإلا فالنبي ﷺ أعظمهم عقلًا وأزكاهم حالًا؛ وبينهما المجنون تصدر منه الأفعال القبيحة والمخالفة للعقل وكان ﷺ يسمى بالصادق الأمين، وكانوا يتحاكمون إليه.

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أي بهذه التهمة وصى الأول الآخر، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ فتشابهت قلوبهم وأقوالهم اجتمعوا في الطغيان وهو مجاوزة الحق إلى الباطل نعوذ بالله من الإجرام.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد اتركهم وشأنهم، وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم حيث قال الله عز وجل: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩] ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ لست بمعاب على تركك لهم؛ لأنك إنما أمرت بتذكيرهم ودعوتهم ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما الكافر: ﴿ وَمَا

تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، يعني: الذكرى والموعظة والآية والحجة إنما ينتفع بها من كان في قلبه حياة من ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، وأما الكافر المعرض فكلما وعظته زاد كفرًا وبغيًا، ولذلك أمر الله نبيه أن لا يهلك نفسه بعدم إسلامهم: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر:٨].

ثم أخبر الله عز وجل عن الحكمة من خلق الخلقية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ ﴾ وهم خلق مكلف خلقهم الله من نار، ومنهم المسلمون ومنهم الكافرون، ﴿ وَالإِنسَ ﴾ وهم بنو آدم، ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ليوحدوا الله عز وجل.

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ أي: لم أخلقهم ليرزقوني فـ ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨]، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ لأن الله يُطعِم ولا يُطعم، وهذا دليل على غنى الله المطلق.

وفي حديث أبي ذر في مسلم (٥٥) عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي

إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» .

﴿ إِنَّ الله ﴾ سبحانه وتعالى القوي في علاه، ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ اسمه الرزاق، والرزاق: هو الذي يُعطي وهذا مبالغة في العطاء، ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)، أخرجه أحمد ذي القوة: أي: صاحب القوة، المتين: صاحب المتانة وهي قرينة بمعنى القوة ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كفروا، ﴿ ذَنُوبًا ﴾ يعني: هلاكًا وخزيًا وبوارًا، وقيل الذَّنوب السجل، وقيل الحظ والنصيب ﴿ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ مثل الذي حل بالأمم السالفة السابقة التي سلكت طريقهم، ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ لعذاب الله وبطشه فإن الله يملي ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢] وفي حديث أبي موسى ﷺ عند مسلم (٦١) قال النبي ﷺ «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ، إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» .

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ إخبار عن حال الكافرين يوم القيامة وأن لهم عذاب موجع، ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعرضوا وتمردوا على شرع الله، ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ ﴾ أي: في يومهم، ﴿ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة.

قال صخر الغي:

لعمرك والمنايا غالبات ... ولا ينهي طوارقها الحماما

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور مكية، وفي حديث أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا مَرِضَتْ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تَطُوفَ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَهِيَ رَاكِبَةٌ، قَالَتْ: فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُصَلِّي إِلَى الْبَيْتِ وَهُوَ يَقْرَأُ: {وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢)} [الطور: ١ - ٢]، وعن جبير رضي الله عنه: لَمَّا سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقْرَأُ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} إِلَى قَوْلِهِ: {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [الطور: ٣٥ - ٣٨] كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ» أخرجه ابن ماجه .

﴿ وَالطُّورِ ﴾ أقسم الله بالطور وهو الجبل المغطى بالشجر، فإن لم تكن عليه أشجار سمي جبلًا، ولا يلزم أنه جبل الطور الذي أوحى الله فيه إلى موسى وعيسى.

﴿ وَكِتَابٍ﴾ قيل: اللوح المحفوظ التي كتبت فيه أعمل العباد، وقيل: الكتب المنزلة على أنبياء الله ورسوله، ﴿ مَسْطُورٍ ﴾: مكتوب.

﴿ فِي رَقٍّ ﴾ ورق، ﴿ مَنْشُورٍ ﴾ مفتوح واضح وقال الحسن: القرآن في أيدي السفرة .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ هو كالكعبة في الأرض إلا أنه في السماء السابعة، وقيل: بأن في كل سماء بيتًا يتبعد به ملائكة الله، وقد جاء في شأن البيت العمور: أنه يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك آخر عليهم، وقد رأى النبي ﷺ إبراهيم عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛ كما في قصة المعراج، وذكروا في الحكمة من إسناد إبراهيم ظهره إلى البيت المعمور أنه عمر الكعبة في الأرض فأكرمه الله بهذه الكرامة في الجنة، ويذكرون في السماء الدنيا بيت العزة: وهو الذي أنزل إليه القرآن جملة ثم نزل مفرقًا، ولا يخالف هذا من أن الله تكلم الله به متى شاء كما هو عقيدة أهل السنة والجماعة .

﴿ وَالسَّقْفِ﴾: السماء بينها وبين الأرض خمسة مائة عام ، ﴿ الْمَرْفُوعِ ﴾ بغير عمد كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾[الأنبياء:٣٢].

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ البحر المحترق يوم القيامة، وقيل: الممتلئ، وقيل: الساكن وفي تفسير على البحر المسجور في السماء والصحيح الأول كقوله تعالى: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦] وقيل غير ذلك، فأقسم الله عز وجل بهذه الآيات العظيمات على قوله .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ مؤكد لوقوعه الذي لا ريب فيه بالكافرين، قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، وسيكون ذلك في يوم القيامة ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ يدفعه من الله فلا يستطيع أن يرده راد، إذ لا قوة لأحدهم على دفعه ولا قدرة على رفعه إلا لمن نجاه الله منه.

وسيكون هذا العذاب واقع بهم: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ أي: في يوم القيامة، يوم تذهب السموات وتتشقق، وتطوى في يمين الرحمن: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[التكوير:١-٢]، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[الانشقاق:١-٢].

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ هذا في مبدأ شأنها وإلا فإن الجبال لها حالات: الأول: أنها تسير، والثاني: أنها تكون كالعهن المنفوش، أي الريش المبدد في الهواء، والثالث: أنها تكون كسراب الجبال ولا جبال، والرابع: أن الأرض تكون كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، كما قال تعالى: ﴿ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٧].

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: في هذا اليوم لهم عذاب شديد موجع.

وتكذيبهم بأنهم: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ يخوضون في شأن اليوم الآخر مكذبين ورادين لخبر النبي ﷺ، وسيأتي اليوم الذي لا لعب فيه وتنزل لهم الحسرات،

كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾[الأعراف:٥٣].

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي: يدفعون دفعًا إلى النار تدفعهم الملائكة، أما أهل الإيمان فإنهم يدخلون كالوفد، مكرمين معززين، قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:٨٥-٨٦]، لإهانتهم وخزيهم.

وتقول لهم الملائكة حين دفعهم: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وخبر رسول الله ﷺ تردون، ويقع في هذا اليوم أنواع من التكبيتات، قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [الزمر: ٧١، ٧٢] .

﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ يقال لهم هذا على الاستفهام الانكاري،﴿ أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ حقيقة واقعة.

﴿ اصْلَوْهَا ﴾ يعني النار والمعنى ادخلوها تحيط بكم ، ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ﴾ لا يتغير من حالها شيء، ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ كقوله: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [إبراهيم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[البقرة:١٧٥]، ليس بأنهم يصبرون على شدتها؛ ولكنهم يتعذبون ولا مخرج منها؛ لأن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، ومن الذي يستطيع أن يرد أمر الله وحكمه في ذلك اليوم العظيم المشهود نسأل الله السلامة .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ بهذا العذاب الأليم، ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالذي كنتم تعملون في الدنيا من الشرك والبدع وما إليها.

فلما أخبر الله عز وجل عن حال الكافرين وما نالهم من الخزي العظيم أخبر عن حال المؤمنين وما لهم من الكرامة، فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون: هم الطائعون لله بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿فِي جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ يتنعمون فيها بما لذ وطاب من المآكل، والمشارب، والمناكح، والمراكب وغير ذلك: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» **متفق عليه .**

﴿ فَاكِهِينَ ﴾ مسرورين والمعنى أنهم في سرور وبهجة،﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من فضله العظيم إذ أنها: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، ﴿ وَوَقَاهُمْ ﴾ ومن أسباب فرحهم وسرورهم بأن ربهم سبحانه وتعالى جنبهم وسلمهم من: ﴿ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ عذاب النار الموجع، ففرحهم بأمرين: كثرة النعم الدائرة عليهم، والسلامة من عذاب الله وغضبه وبطشه، ولذلك جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " أخرجه مسلم (٩) .

ثم يقول لهم ممتنًا عليهم: ﴿ كُلُوا ﴾ يا معاشر أهل الجنة، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ ما شئتم من الأشربة،﴿ هَنِيئًا ﴾ تتهنأون به ولا تجدون فيه غصة، ولا ما يسيء: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالكم الصالحة من التوحيد وملازمة السنة والطاعة.

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ أي: أن أهل الجنة يتأكلون في الجنة: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ متراصة يلتقي بعضهم مع معض إذا أرادوا الحديث والمنادمة كما كانوا يتنادمون في الدنيا فيذكرون نعيم الله عليهم: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الحور البيض كما قال الله عز وجل: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصافات: ٤٩] والعين عظام العيون، والمعنى أن الله

أكرمهم بزوجات من الحور العين يرى مخ ساقيها من وراء اللحم، شأنهن عظيم يغنين للمؤمنين ولا يؤذينهم، بل من شأنهن الآن: «أن المرأة إذا عصت زوجها في الدنيا قالت: قاتلك الله لا تؤذيه إنما هو ضيف عندك يوشك أن يفارقك إلينا»، والحور العين هو نشئ يُنشئهُ الله وليست من بنات آدم ولا من الجن، يتنعم به أهل الإيمان، وقد جاء بأن للشهيد اثنتين وسبعين حورية، إلى غير ذلك، وبشر الله المؤمنين بإخباره بحال ذرياتهم: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ هذا خبر من الله عز وجل ببركة الآباء على الأبناء إذا كانوا طائعين ولربهم موحدين، وبدين الله عز وجل متمسكين، ولسنة النبي ﷺ متابعين، فإن الله عز وجل يكرمهم يوم القيامة بالدرجات العلى والنعيم المقيم، ثم لكرامتهم عند الله يرفع إليهم أبنائهم، فلا ينزل من درجته العليا إلى أبناءه ، وأما بركة الأبناء على الآباء فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الدَّرَجَةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ الدَّرَجَةُ؟ يَقُولُ: بِدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ»، وجاء عن مسلم بنحوه: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»، وفي الحديث أيضًا: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ، الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي نَهَارِكَ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، قَالَ: فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا تَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»، فبركة الآباء على الأبناء إن كانوا من أهل الصلاح والفلاح عظيمة يشفعون لهم يوم القيامة، ويرفعون بسببهم، وأما في الدنيا فبركتهم بتعليمهم وتوجيههم والدعاء لأبنائهم والسعي في صلاحهم، وبركة الأبناء على الآباء في الدعاء والبر والاستغفار

لهم وإجراء الصدقات الجارية عليهم، فهنيئًا لمن كان هذا حاله، وهكذا القول في الآباء إذا كانت درجتهم دون الأبناء .

فيقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ بهذا القيد، لو كان الابن كافرًا ما انتفع بدعاء أبيه كما قال الله عز وجل: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر:٤٨]، ولو كان الأب كافرًا ما انتفع بدعاء ابنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة:١١٤]، ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي: في درجاتهم العلى، ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ ما أنقصناهم، ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بل يوفون أعمالهم كما هي وزيادة، كل امرئ من الآباء والأبناء ﴿ بِمَا كَسَبَ ﴾ عمل، ﴿ رَهِينٌ ﴾ مرتهن، فيجازى المؤمن بإيمانه والمسيء بإساءته، إذا كان بالشرك وإن كانت إساءته دون الشرك فهو تحت المشيئة.

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ أي: أهل الجنة جميعًا، ﴿ بِفَاكِهَةٍ ﴾ من أنواعها لم يحددها بنوع دون نوع، ﴿ وَلَحْمٍ ﴾ من أنواع اللحوم، ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ما اشتهوه من الفواكه واللحوم جاءهم.

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتعاطون وينزعون الكؤوس من الخمور فيشربونها ويتلذذون بها: ﴿ لا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي: لا تسكر ولا تذهب العقول، ﴿ وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ لا يقع بسبب شربهم لها التأثيم من الكلام الفاحش والفعل السيء؛ بل إنهم محفوظون من ذلك؛ لأن الجنة حالها سلام في جميع شأنها، كما قال تعالى: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ } [الصافات: ٤٧]

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع نعيم الجنة من المشارب والمآكل ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ عبيد فمن كرامتهم أن الله سخر لهم غلمان كثر يطوفون على المؤمنين لا يعصونهم في أمرهم، قال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} [الإنسان: ١٩] ومن عظيم شأنهم: ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ في بياضه وحسن بهائه، ﴿ مَكْنُونٌ

﴿ محفوظ، وذهب بعض المخاذيل الذين لا يلتفت إلى قولهم: أن هؤلاء الغلمان يستخدمون في شيء مستقبح: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤]، فقد خلق الله لأصحاب الجنة الحوريات والأزواج من الإنسيات للتمتع بهن في شأن المعاشرة، وفي الحديث : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ»، وأما الغلمان إنما يطوفون على أهل الجنة بالأكواب والآنية ونحو ذلك.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي: أهل الجنة أقبلوا إلى بعضهم ممن كانوا يتعارفون في الدنيا، ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عما كانوا عليه في الدنيا من خوف الله ورجاء رحمته.

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من بطش رب العالمين، ومن عذابه المهين.

﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالسلامة منه، وهذه أعظم المنن وأكرم العطايا والكرم، ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ نجانا من العذاب الشديد الحار الموجع.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي: كان هجير المؤمنين في الدنيا، وفي هذا بركة الدعاء فإن الله عز وجل يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ يتوسلون إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، يتوسلون إليه ببره ورحمته بالمؤمنين أن ينجيهم من عذاب الله فاستجاب الله لهم إذ أن الله يقول: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠].

فلما ذكر الله عز وجل شأن الكافرين والمؤمنين في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم قال: يا محمد: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بدعوة الناس إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد، ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ في دين ربك، ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ يدعي علم المغيبات ويتعاطى السحر والشعوذات كما يقول الكفار، ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ بل أنت رسول من رب العالمين.

وقد قال الله عز وجل: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ } [الغاشية: ٢١]، {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى: ٩] ، { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق: ٤٥].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي الكفار حيث اختلفوا في محمد ﷺ فقائل يقول: ﴿ شَاعِرٌ ﴾ مع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾[يس:٦٩]، وقال أُنيس: «لقد عرضت كلامه على أحسن الشعر فما رأيته يستقيم عليه» أخرجه مسلم ؛ لكنهم اختلفوا في ذلك، قال الشاعر:

أمن المنون وريبه تتوجع ** والدهر ليس بمعتب من يجزع

﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ حوادث الدهر والمعنى ننتظر حتى يموت ونرتاح من شره كما مات الشعراء الذين قبله وتفرق أصحابهم وأتباعهم، وهذا من شدة تخرصهم.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ إن كنتم تعتقدون ذلك انتظروا موته، ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ لنرى من يلحقه الذل والهوان، وفعلًا أن النبي ﷺ تربص بهم حتى قتلهم الله في بدر وأقر عينه بهلاكهم ودفنهم.

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا ﴾ والمعنى بل تأمرهم عقولهم السخيفة بهذا القول السيء؛ بأنه شاعر وكاهن ومجنون والفعل السيء وهو التكذيب ، ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بل هم قوم طاغون اشتد طغيانهم، والطغيان: هو المجاوزة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[الحاقة:١١]، وهذه مسبة لقريش؛ فقد كانوا يسمون بأهل الأحلام والعقول، فلما جاءهم محمد ﷺ بالدين القويم والصراط المستقيم عجزوا عن معرفة الحجج الإلهية، وعارضوها بالهوى.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ وهذا قول آخر يقولونه: ما هذا القرآن إنما تلقاه من غيره وتقوله على لسانه، وقد قال الله عز جل راداً هذه المقولة: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]، أي لو كان كاذبًا على الله لأهلكه الله ثم ذكر السبب الذي جعلهم يضطربون، ﴿ بَل لا

يُؤْمِنُونَ ﴾ والسبب الذي جعلهم يقولون هذه الأقوال: أنهم لا يؤمنون بالله عز وجل ربًا ولا بمحمد ﷺ نبيًا فإن زعموا أنه شاعر أو كاهن أو غير ذلك ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ مثل القرآن كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[البقرة:٢٣]، ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[هود:١٣]، وقد عجزوا: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨] ، ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ولكن الواقع أنهم كاذبون.

ثم قال الله عز وجل مبينًا في هذا المقام اثبات الربوبية وتوحيد الألوهية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا ﴾ أي أوجدوا ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أي موحد، ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي أوجدوا أنفسهم وكلاهما منتفي، فانتفاء وجودهم بدون خالق معلوم ضرورة، وانتفاء أنهم خالقون معلوم ضرورة، فكيف يكون خالقاً وهو يأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، ويمرض ويموت ويهلك بل عاجز عن نفع نفسه وضرها، وإن كان المعنى الأصنام، فمن باب أولى فهي حجارة صماء بكماء ميتة .

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ نبئوني عن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هل خلقت السموات والأرض؟ أم أنهم يصنعونها مما خلقها الله، فيصنعونها من حجارة صماء، ويرسمونها ويصورنها بعقولهم السيئة ثم يعبدونها، وهذا إنكار عليهم ﴿ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ أي سبب كفرهم عدم إيقانهم، وقيل لا يوقنون بالبعث.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي هل عندهم رزق الله يتحكمون ويتصرفون في عباد الله، أم أن النبوة تكون لفلان وفلان، كما قال تعالى: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، والجواب ليست عندهم خزائن الله، وإنما الله يصطفي من شاء قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨]، أم عندهم خزائن الماء يسقون من أردوا ويمنعون من أرادوا؟ ما عندهم شيء من ذلك،

﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أي المحاسبون للخلائق والمتحكمون في شأن العالم العلوي والسفلي، وليس الأمر كذلك .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أم لهم دروج يرقون ويصعدون عليه، فقوله فيه بمعنى عليه كقوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[طه:٧١]، عليه للوحي المبين، ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة على قولهم وشركهم ولا حجة لهم، فإن الجني الذي يسترق السمع يخلط معها مائة كذبة، فأي حجة وأي سلطان؟

فعن عَائِشَةُ رضي الله عنها قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ» أخرجه مسلم .

ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه له من البنات ﴿ أَمْ لَهُ ﴾ لله ﴿الْبَنَاتُ ﴾ كما زعموا: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف:١٩]، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[النحل:٥٨]، ﴿ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[النجم:٢٢]، وهذا تهديد لهم في قولهم ذلك .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ ﴾ يا محمد على هذه الدعوة التي تدعوهم إليها ﴿ أَجْرًا ﴾: مالاً ﴿ فهم مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ من شدة ما أنزلت عليهم من طلب الأموال: ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ أبوا أن يدخلوا في دين الله عز وجل، ومعلوم أن النبي ﷺ قد قال الله عنه: ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾[محمد:٣٦-٣٧]، ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص:٨٦].

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أم عندهم الغيب بأن الذي أتاهم به محمد ﷺ ليس بحق ولا صدق، ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فهم يحكمون بذلك؛ لأن الكتابة تأتي بمعنى الحكم، وليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد ما في السماوات وما في الأرض إلا الله .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ وهذا هو الواقع، أنهم يريدون بهذا القول كيدًا بمحمد ﷺ ودينه وأصحابه، فيتربصون بهم لصدهم عن الاستقامة، ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي كيدهم يقع عليهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٧]، فأظهر الله عز وجل في هذا الموطن ضعف حججهم وكثيرة تخبطهم وعظيم نصره لنبيه محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ وهذا إنكار شديد عليهم في عبادتهم الأصنام والأوثان فإن الله لا يرضى أن يكون معه شريك، ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ينزه الله عن مشاركتهم له، فهذا غاية الإجرام والعصيان، ساووا الحجارة الصماء البكماء العاجزة برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾[الشعراء:٩٨-٩٩].

ولشدة عداوتهم وإعراضهم أنهم لو رأوا: ﴿ كِسْفًا ﴾ قطعة ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لعذابهم كما قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء: ١٨٧] فـ: ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ ما يؤمنوا أنه عذاب، وهذا من المكابرة الشديدة، فالمكابر إذا قلت له: هذا أبيض يقول: أسود، هذا ليل يقول: نهار، فهؤلاء لو رأوا العذاب ساقط عليهم من السماء: ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ كما قال أصحاب عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الأحقاف:٢٤].

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يا محمد، اتركهم وشأنهم، ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا﴾ يعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ يموتون ويهلكون .

﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا تغني عنهم آلهتهم، وكثرتهم، وأموالهم، وكيدهم شيئاً من أمر الله عز وجل ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي يمنعون من الموت والهلاك بل هم مهزومون مركوسون.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا وكفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾بالقتل وغيره في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[السجدة:٢١]، يسلبون الإيمان ويحرمون الهداية وهذا أعظم عذاب الدنيا: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[الأنعام:١٢٢]، فهو ميت إذ لم يؤمن.

﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ ... أقرب من ذلك وقبل القيامة، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لشدة إعراضهم وغفلتهم.

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ لقضائه وقدره، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي نرى ما تصنع وما يصنع بك، مع أن الله عز وجل على عرشه استوى، وفيه: إثبات صفة العينين لله وهما عينان حقيقيتان تليق بجلاله يبصر بهما، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء:١٣٤]، وقال عزوجل: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه:٤٦].

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزه ربك وصلي له: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من النوم، وهي صلاة الفجر والعشاء، ويدخل فيه ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا قام من النوم سبح عشرة، وحمد عشرة، وكبر عشرة، وهلل عشرة» .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ صلاة المغرب وقيام الليل ، ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ قيل: هما ركعتا الفجر كما هو قول غير واحد من السلف، فالشاهد: أن الإنسان عليه أن يعتصم بالله ويصبر على أقداره وقضائه ويلتزم طريقة رسوله ﷺ في تبليغ دينه والعمل بالعلم ويبشر من الله عز وجل بالنصر العظيم والحفظ من كل شيطان رجيم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، وقد سجد النبي ﷺ فيها وسجد معه كل مؤمن وكافر فعَنْ عَبْدِ الله قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ وَالنَّجْمِ قَالَ: فَسَجَدَ النبي ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ متفق عليه، قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ فِي الْمُمْتَنِعِ إِنَّهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مُشْكِلٌ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقِ أَنَّهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ.

وأما ما جاء عن ابن عباس أن النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - لَمَّا قرأ: {والنجم} فلما بلغ: {أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى}؛ ألقى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى". فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية: ﴿ { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الحج: ٥٢ - ٥٤] ﴾. وللشيخ الألباني رحمه الله مؤلفا في ذلك بعنوان(نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق) وعلى القول بثبوت القصة في الجملة لم يكن المتكلم رسول الله ﷺ وإنما الشيطان فبين الله ما يتعلق بذلك وللقاضي عياض في كتاب الشفاء (٢ / ٧٥٠) كلام حول نقض هذه القصة فيقول: (فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: المأخذ الأول: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. المأخذ الثاني: فهو

مبني على تسليم الحديث لو صح، وقد أعاذنا الله من صحته ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين. انتهى

ومن هذه الأجوبة قول البغوي في تفسيره (٥/ ٣٩٤):

قَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْجَوَابِ عَنْهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَقْرَأْ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ ذَكَرَ ذَلِكَ بَيْنَ قِرَاءَتِهِ، فَظَنَّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الرَّسُولَ قَرَأَهُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَغْفَى النَّبِيُّ ﷺ إِغْفَاءَةً فَجَرَى ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهِ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَبَرٌ.

وَالْأَكْثَرُونَ قَالُوا: جَرَى ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهِ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَبِيلِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَبَّهَهُ الله عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ أَبْيَضُ عَمِلَ هَذَا الْعَمَلَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً وَمِحْنَةً مِنَ الله تَعَالَى يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِمَا يَشَاءُ. انتهى

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ أقسم الله عز وجل بالنجم، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته فالأمر أمره: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣]، أما العبد فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله كما قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله ، أَوْ لِيَصْمُتْ»، فهنا يقول: ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ عموم النجم، ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ إذا رُمي به الشياطين وسقط، وقيل: بأن المراد بالنجم الثريا، والذي يظهر العموم، وقيل القرآن إذا نزل والأول أظهر .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا هو المقسم عليه: أن محمدًا ﷺ لم يكن ضالًا في نفسه ولا مضلًا لغيره؛ بل أخبر الله عز وجل بهدايته له فقال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾[الضحى:٧]، هداه بالوحي المنزل عليه، وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ﴾ أي ليس بضال وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق العلم، وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ أي: لم يكن داعيًا بجهل وعدم علم كما هو صنيع النصارى، ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ هو العلم يترك العمل

بعلمه، فمحمد ﷺ لم يكن ضالاً ولا غاوياً عن الحق الذي أوحاه الله إليه كما هو صنيع اليهود، فإن ضلال النصارى من جهة عملهم بغير علم، وزيغ اليهود بسبب تركهم للعمل بالعلم، بينما النبي ﷺ منزه عن الضلالة والغواية، بل هو الداعي إلى طريق الحق والهداية.

ومن شأنه ﷺ: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ لا يتكلم بمجرد هواه ورغبته، وإنما يتكلم بما أوحاه الله إليه، ولذلك ذكر قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[المائدة:٦٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[الأحزاب:٣٧] .

وفيه أيضًا: أن السنة وحي من الله عز وجل كالقرآن، فدلالة السنة كدلالة القرآن؛ بشرط ثبوتها وعدم نسخها، وهذه الآية من أقوى الآيات الدالة على رد الدعوة القرآنية حيث تزعم الاكتفاء بالقرآن حيث أخبر الله بوجوب متابعة النبي ﷺ وبعصمته عن القول على الله بغير علم، وأخبر بهدايته إلى أقوم السبل وأزكى الطرق.

والمعنى أن الذي يبلغكم إياه وحي من الله بواسطة جبريل عليه السلام، قال الله عزوجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[الشورى:٥١].

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ أي: الذي علم محمدًا ﷺ هذا الوحي: ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وقد قال الله عز وجل فيه: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢٠].

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ أي ذو قوة وشدة في خلقه وقيل: ذو مرة: أي منظر حسن، وهو خلق جميل رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض، ومما يدل أن المرة بمعنى: القوة، قول النبي ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا

لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»، أي: قوي، ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ أي: على كرسيه بين السماء والأرض حين رآه، وقيل: استوى على السموات حيث رآه ليلة المعراج .

ثم ذكر المكان الذي رآه فيه: ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾ أي: حيث عرج بمحمد ﷺ إلى حيث شاء الله من العُلى، فإنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١]، ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى حيث شاء الله من العلى، فقد قال النبي ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»، أي: الأقلام التي تكتب الوحي والأقدار، فتجاوز بأبي هو وأمي السموات العلى، ولا يصح قول بعضهم: أنه أول رائد فضاء فهذا كلام قبيح سيء، وإن شئت أن تقول كلام السفهاء إذ يمثلون النبي الكريم الذي رفعه الله عز وجل حيث شاء من العلى برائد فضاء الله أعلم بأمره، وكذلك لا يجوز أن تقول أول عملية قلب مفتوح أجريت للنبي ﷺ، واتركوا مما يسمى بالإعجاز العلمي للقرآن ؛ فإن هذا العلم علم الكلام المذموم الذي حذر منه السلف واشتد نكيرهم على أصحابه، فيجعلون الصلاة رياضة، والصيام حمية، والحج سياحة وغير ذلك، فنحن نتعبد لله بهذه العبادات الجليلات، ولو كانت الصلاة رياضة ما أمر المشلول والمريض أن يصلي بالإيماء، وكذلك الصلاة على الراحلة تنفلًا أو لمن عجز عن الأرض، فالشاهد: أن شأن محمدًا ﷺ عظيم فلا يشبه بمثل هؤلاء، زد على ذلك ما أخرجوه مما يسمى بالبطاقة الشخصية لمحمد ﷺ، نعم سيرة النبي ﷺ ينبغي أن تُعلم وتدرس وتحفظ لمن استطاع ذلك؛ لكن هذه الطريقة طريقة امتهان ونخشى أن يدخل أصحابها في السخرية فيقعون في قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، فصعود الفضاء على القول به يستطيعه كل واحد يريد أن يصعد وعنده الإمكانيات؛ لكن المعراج

خاص بمحمد ﷺ أكرمه وأعزه الله به وبين الله به فضيلة محمد ﷺ وعظيم شأن الصلاة إذ أن الله عز وجل فرض عليه الصلاة وهو في السموات العلى، بينما فرضت بقية الأركان وهو على الأرض.

وأحاديث المعراج متواترة منها: حديث أنس، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، قال أنس عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلَاثَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيتُ فَانْطُلِقَ بِي، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَشُرِحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا - قَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لِلَّذِي مَعِي مَا يَعْنِي قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ - فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي، فَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ لَهُ: الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ "، قَالَ: «فَأَتَيْنَا عَلَى آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ «لَقِيَ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ عِيسَى، وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِي الثَّالِثَةِ يُوسُفَ، وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ، وَفِي الْخَامِسَةِ هَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قَالَ: " ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ بَكَى، فَنُودِيَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: رَبِّ، هَذَا غُلَامٌ بَعَثْتَهُ بَعْدِي يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِهِ الْجَنَّةَ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي "، قَالَ: «ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ: وَحَدَّثَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، " أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا

الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا خَمْرٌ، وَالْآخَرُ لَبَنٌ، فَعُرِضَا عَلَيَّ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقِيلَ: أَصَبْتَ أَصَابَ اللهُ بِكَ أُمَّتُكَ عَلَى الْفِطْرَةِ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسُونَ صَلَاةً " أخرجه مسلم، وأما ما جاء في البخاري من طريق سيف وعبد الله بن أبي نمر ففيه عشرة أغلاط بينها ابن القيم في الهدي حيث قال: فتح الباري (١٣/ ٤٨٥): وَمَجْمُوعُ مَا خَالَفَتْ فِيهِ رِوَايَةُ شَرِيكٍ غَيْرَهُ مِنَ الْمَشْهُورِينَ عَشَرَةُ أَشْيَاءَ بَلْ تَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: أَمْكِنَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي السَّمَاوَاتِ وَقَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّهُ لَمْ يَضْبِطْ مَنَازِلَهُمْ وَقَدْ وَافَقَهُ الزُّهْرِيُّ فِي بَعْضِ مَا ذَكَرَ كَمَا سَبَقَ فِي أول كتاب الصَّلَاة.

الثَّانِي: كَوْنُ الْمِعْرَاجِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ عَنْ قَوْلِهِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى بِأَنَّ الْقَبْلِيَّةَ هُنَا فِي أَمْرٍ مَخْصُوصٍ وَلَيْسَتْ مُطْلَقَةً وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مَثَلًا أَيْ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بَغْتَةً قَبْلَ أَنْ يُنْذَرَ بِهِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي.

الثَّالِثُ: كَوْنُهُ مَنَامًا وَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ عَنْهُ أَيْضًا بِمَا فِيهِ غُنْيَةٌ.

الرَّابِعُ: مُخَالَفَتُهُ فِي مَحَلِّ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهَا فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا فِي السَّابِعَةِ أَوِ السَّادِسَةِ كَمَا تَقَدَّمَ.

الْخَامِسُ: مُخَالَفَتُهُ فِي النَّهَرَيْنِ وَهُمَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ وَأَنَّ عُنْصُرَهُمَا فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْمَشْهُورُ فِي غَيْرِ رِوَايَتِهِ أَنَّهُمَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُمَا مِنْ تَحْتِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

السَّادِسُ: شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ الْإِسْرَاءِ وَقَدْ وَافَقَتْهُ رِوَايَةُ غَيْرِهِ كَمَا بَيَّنْتُ ذَلِكَ فِي شَرْحِ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَيْهِ أَيْضًا هُنَا.

السَّابِعُ: ذِكْرُ نَهْرِ الْكَوْثَرِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْمَشْهُورُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

الثَّامِنُ: نِسْبَةُ الدُّنُوِّ وَالتَّدَلِّي إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَشْهُورُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ جِبْرِيلُ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

التَّاسِعُ: تَصْرِيحُهُ بِأَنَّ امْتِنَاعَهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى سُؤَالِ رَبِّهِ التَّخْفِيفَ كَانَ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَمُقْتَضَى رِوَايَةِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ التَّاسِعَةِ.

الْعَاشِرُ: قَوْلُهُ فَعَلَا بِهِ الْجَبَّارُ فَقَالَ وَهُوَ مَكَانَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا فِيهِ.

الْحَادِي عَشَرَ: رُجُوعُهُ بَعْدَ الْخَمْسِ وَالْمَشْهُورُ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ بَعْدَ أَنِ انْتَهَى التَّخْفِيفُ إِلَى الْخَمْسِ فَامْتَنَعَ.

الثَّانِي عَشَرَ: زِيَادَةُ ذِكْرِ التَّوْرِ فِي الطَّسْتِ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا فِيهِ فَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ مَوَاضِعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ أَرَهَا مَجْمُوعَةً فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ إِشْكَالَ مَنِ اسْتَشْكَلَهُ وَالْجَوَابَ عَنْهُ إِنْ أَمْكَنَ وَبِالله التَّوْفِيقُ وَقد جزم بن الْقَيِّمِ فِي الْهَدْيِ بِأَنَّ فِي رِوَايَةِ شَرِيكٍ عَشَرَةُ أَوْهَامٍ لَكِنْ عَدَّ مُخَالَفَتَهُ لِمَحَالِّ الْأَنْبِيَاءِ أَرْبَعَةً مِنْهَا وَأَنَا جَعَلْتُهَا وَاحِدَةً فَعَلَى طَرِيقَتِهِ تَزِيدُ الْعِدَّةُ ثَلَاثَةً وَبِالله التَّوْفِيقُ. انتهى

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي: جبريل، ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ إلى محمد ﷺ، ومن أغلاط شريك: أن الذي تدلى هو الله، حيث قال: ثم تدلى الجبار.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي: ما بينهما قاب قوسين قيل: المسافة من الوتر إلى القوس، وقيل: مسافة بين قوسين، ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ يعني: وأقرب، فإن أو بمعنى: و، كقول الله عز وجل: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾[الصافات:١٤٧]، أي: بل يزيدون .

﴿ فَأَوْحَى ﴾ أي: الله عز وجل، ﴿ إِلَى عَبْدِهِ ﴾ محمد ﷺ، ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ من الواجبات وغيرها وفي هذا رد على الغلاة الذين يعظمون شأن النبي ﷺ وينزلونه مراتب الربوبية والألوهية، فإن هذا لا يجوز فقد وصف الله محمدًا ﷺ بالعبودية في أشرف المواطن موطن الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾[الإسراء:١]، وموطن

المعراج: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ ﴾[النجم:١٠]، وموطن إنزال الكتاب ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾[الكهف:١]، ﴿ وَأَنَّهُ لَّمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ ﴾[الجن:١٩]، فأكرم الله عبده محمد ﷺ في تلك الليلة بالوحي، وكان مما أعطاه الله الصلوات الخمس المتعتمات وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك من أمته شيئًا، فعَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا»، قَالَ: " {إِذْ يَغْشَى} [النجم: ١٦] السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى "، قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: " فَأُعْطِيَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ " أخرجه مسلم .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ قيل: ما كذب فؤاده ما رآه من صفات جبريل عليه السلام، وقد ذهب بعضهم إلى أن النبي ﷺ رأى ربه في تلك الليلة، والصحيح: أنه لم يره، قالت عائشة رضي الله عنها: من حدثكم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد كذب، وأنا أول من سأله عن ذلك قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»، وقال عبد الله بن الصامت لأبي ذر: لو كنا شهدنا النبي ﷺ لسألناه: هل رأيت ربك؟ قال: لقد سألناه عن ذلك فقال: «رَأَيْتُ نُورًا»، وفي رواية: «نُورًا أَنَّى أَرَاهُ»، و يقول رسول الله ﷺ «حِجَابُهُ النُّورُ»، وما جاء عن ابن عباس يحمل على أنه رآه بفؤاده، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ أفتتهمونه وتجادلونه، ﴿ عَلَى مَا يَرَى ﴾ ما آيات الله البينات الظاهرات العظيمات .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ أي جبريل ﴿ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ مرة أخرى حيث رآه على صورته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في بدأ الوحي حين كان يمشي فرآه جالسًا على كرسيه بين

السماء والأرض، فعن عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٢] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَالله، لَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، وَالله، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا " أخرجه مسلم .

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ رآه المرة الثانية عند سدرة المنتهى: وهي سدرة جاء في وصفها ما تقدم: «وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ»، سميت بسدرة المنتهى؛ لأن ما ينزل من أعلى يقبض وما يأتي من أسفل يقبض إليها وينتهي إليها وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، قَالَ: انْتَهَى إِلَيْهَا مَا يَعْرُجُ مِنَ الأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ. قَالَ: فَأَعْطَاهُ اللهُ عِنْدَهَا ثَلاَثًا لَمْ يُعْطِهِنَّ نَبِيًّا كَانَ قَبْلَهُ، فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ خَمْسًا، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ وَغُفِرَ لأُمَّتِهِ الْمُقْحِمَاتُ مَا لَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا» أخرجه مسلم (٣٢٧٦) .

﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ أي: عند سدرة المنتهى جنة المأوى، الجنة التي أعدها الله لعباده وخلقها لإكرامهم، وهذا دليل على أن الجنة في السماء، وسميت بذلك لأنها مأوى المؤمنين .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ من الحُسن، قال النبي ﷺ: «رَآهَا لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ يَلُوذُ بِهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، **وفي رواية: «فراش من ذهب»**، وقيل: تأتيها الملائكة فتكون عليها.

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ أي بصر النبي ﷺ بل كان ثابتا ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ أي لم يقل ما لم ير فيما أخبر به النبي ﷺ.

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ رأى مالك خازن النار، ورأى جبريل، ورأى الجنة، ورأى النار، ولقي الأنبياء وصلى بهم كما تقدم في الحديث الصحيح .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ﴾ أخبروني يا معاشر قريش ﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ أي عن اللات: وهو صنم كان في الطائف يعبده ثقيف، واختلف في اشتقاقه فقيل: بأنه مشتق من الإله،

وقيل: بأنه نسبة إلى رجل كان يلت السويق للحجيج فلما مت بنوا على قبره بناء وعبدوه من دون الله.

والعزى: صنم مكان لعبادة غير الله كان في نخلة بين مكة والطائف، وكانوا يحلفون باللات والعزى ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، وقد هدم العزى خالد بن الوليد حيث أرسله رسول الله ﷺ بعد حنين لهدمها، فلما جاءها وأحرقها رجع إلى النبي ﷺ وأخبره فقال له: «ارْجَعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَرَجَعَ خَالِدٌ فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ يَا عُزَّى خَبِّلِيهِ يَا عُزَّى عَوِّرِيهِ فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْثُوا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا»؛ إذ أن الأصنام كانت تغشاها الشياطين والجان فيتكلمون من داخلها، وربما بعض حوائج السائلين ولذلك فتن الناس بها، وكان الكفار يتفاخرون بالعزى حتى قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال لهم النبي ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا الله مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

﴿ وَمَنَاةَ ﴾ صنم كان بالمشلل بين مكة والمدينة، وكان الأنصار في حجهم يمرون به، فأرسل النبي ﷺ لهدمه أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه بعد إسلامه، واللات هدمها المغيرة بن شعبة، وهناك أصنام غير هذه مثل ذي الخلصة هدمه جرير، إذ أن الأصنام كانت منتشرة في بلاد العرب كانتشارها الآن في شرق آسيا نسأل الله السلامة والعافية، وللكلبي كتاب الأصنام تكلم فيه عن أصنام الجاهلية، فإنهم كانوا قد بنوا في كل بلد كعبة وبيتًا يعظمونه ويطوفون به وينذرون له، ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ أي: ثالثة الأصنام المعظمة عند العرب، كأن الله عز وجل يقول: أخبروني ماذا أغنت عنكم هذه الأصنام وماذا صنعت لكم حتى تعبدونها من دون الله ؟ وعبادتهم لها دالة

على سخف عقولهم وضعف رأيهم، وإلا فهي حجارة صماء بكماء عاجزة عن نفع نفسها فضلًا عن غيرها.

وقال منكراً وصف الملائكة بالإناث: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ﴾ إذ كانوا يشركون ويندون ويأتون بالقول الباطل ومع ذلك ينسبون إلى الله عز وجل البنات كما قال: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[الصافات:١٥٣-١٥٤]، فهم لا يرضون بنسبة البنات إلى آلهتهم، ولا يرضون ببقاء البنات في بيوتهم، فكثير منهم ربما وأدوها ودفنوها حية، ومع ذلك كان حالهم مع ملائكة الله عزوجل : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾[الزخرف:١٩].

﴿ تِلْكَ﴾ أي جعل البنات لله عزوجل ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي جائرة باطلة غير موافقة للواقع ولا للعقل، ومنه قول امرئ القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم ** إذ يجعلون الرأس كالذنب

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ما هي إلا أسماء: ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حيث سموها بالآلهة واشتقوا لها من أسماء الله أو من أسماء قوم صالحين، ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ أي من حجة، بل الحجة قائمة على كسرها وإزالتها؛ ولذلك جعل النبي ﷺ يوم الفتح يطوف بالبيت ويخرب الأصنام ويقول: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١].

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الكذب والهوى والرأي، ويتبعون ظنهم بآبائهم أنهم كانوا على شيء وليسوا على شيء، ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾ وما تميل إليه أنفسهم، ومعلوم أن أغلب الأنفس تميل إلى الباطل، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أي القرآن

والوحي عن طريق محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٢]، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩] .

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أي ليس كل من أراد خيراً حصل له وهذا إنكار عليهم حين اتخذوا اللات والعزى ومناة لتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده وظنوا أنها على شيء رد الله عليهم ذلك .

فإن الأمر لله أولًا وآخرًا: ﴿ فَللهِ الآخِرَةُ ﴾ الحياة الأخيرة التي تكون بعد البعث والنشور، وسميت بالآخرة؛ لأنه لا يوم بعدها، ﴿ وَالأُولَى ﴾ الدنيا، فالآخرة ملكه والدنيا ملكه.

ثم أخبر الله عز وجل عن سفه المشركين الذين اتخذوا هذه الأصنام لتشفع لهم قال: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ممن قال الله فيهم: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ لا تقبل شفاعتهم ولا يستطيعون الشفاعة، ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ما قال الله عزوجل﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة:٢٥٥]، {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣] فالشفاعة لا تكون مقبولة إلا بثلاثة شروط: الأول: رضى الله عن الشافع، الثاني: رضى الله عن المشفوع له، الثالث: إذن الله للشافع، فإذا كانت الملائكة المسخرة في عبادة الله هذا حالها فكيف لهذه الأصنام الصماء البكماء وهذه القبور التي صار أصحابها ترابًا أن يشفعوا للمشركين المندين والحال كما قال الله عزوجل: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، وقال: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨] .

ثم أخبر الله عن سبب عدول الكافرين عن تسمية الملائكة بما سماهم الله به: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ الكفار، ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ﴾ لأنهم

يعتقدون أن الملائكة إناث، وزعموا أنهم بنات سروات وسيدات الجن قول مستقبح: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون:٤] .

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي هذا القول الذي قالوه، ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الكذب والخرص وعدم التيقن؛ لأنهم أخذوا دينهم تقليدًا عن آبائهم، كما قال الله عزوجل مخبراً عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾[الزخرف:٢٢]، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أي الكذب والحدس لا يغني شيئًا عن الحق الذي جاء الله به وهو الوحي المبين والصراط المستقيم والعلم القويم .

ثم قال الله عز وجل لمحمد ﷺ مسليًا له ومرشدًا له إلى أحسن الطرق: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى ﴾ أعرض أي عن دين الإسلام من الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات:٥٤-٥٥]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢٢]، وفي كثير من الآيات يأمر الله عز وجل محمدًا ﷺ أن يتول عن الكفار ولا ينشغل بهم، وقيل بأن هذا منسوخ نسخته آية القتال، والله أعلم، ﴿ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ طاعتنا، ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ليس له رغبة في الآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[الروم:٧]، ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾[الشورى:٢٠].

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي أعظم علمهم: أنهم يرغبون في الدنيا ويزهدون في الآخرة؛ لأنهم جهال بدين الله مضيعون لحقه، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ بمن انحرف عن طريق الله المستقيم الإسلام، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ إلى الإسلام دين الحق فيجازي المؤمن بإيمانه والكافر بكفره .

﴿ وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي له الملك المطلق التام للعالم بالحال والمآل، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الكفار يجازيهم بكفرهم فيخلدهم في النار، وأما ما دون ذلك من أصحاب الكبائر من أمة محمد ﷺ فهم تحت المشيئة إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨]، ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالإيمان ﴿بِالْحُسْنَى ﴾ الجنة، قال الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾[يونس:٢٦]، الجنة، ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، النظر إلى وجه الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾[الرحمن:٦٠]، ومن دعاء المسلمين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[البقرة:٢٠١]، إذ أن أعظم حسنة الجنة.

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ﴾ أي يغفر للذين يجتنبون كبائر الذنوب والكبيرة كل ما توعد عليه بنار أو حرمان من الجنة أو لعن أو طرد من رحمة الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «الصلاةُ إلى الصلاةِ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائرُ»، وقال الله عزوجل: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا } فالصغائر تكفر بالطاعات وترك الكبائر، ﴿ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ الإثم في القول، ما فحش من الأفعال: كالزنى، واللواط ونحو ذلك نسأل الله السلامة والعافية، ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ اللمم قيل: الرجل يلم بالذنب ثم يدعه كالزنى أو السرقة ومنه قول الشاعر:

إن تغفر اللهمّ تغفر جمّا ... وأيّ عبد لك لا ألمّا

وقيل: المراد بها الصغائر، فالصغائر تمحى إذا اجتنبت الكبائر وهذا هو تفسير أبي هريرة رضي الله عنه قال اقل رسول الله ﷺ: « لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ من الزنا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ،

وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» **أخرجه أحمد .**

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ لمن آمن به واتقاه واتبع رضاه، كقوله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦].

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ حين خلق آدم من طينة الأرض؛ فعن أبي موسى الأشعريُّ، قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "إنّ الله خَلَق آدمَ مِن قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنوآدَمَ على قَدْرِ الأرض: جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلك، والسَّهلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطَّيِّبُ» أخرجه أبو داود، وهو أعلم بكم أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ لم تعلم الأم بما في بطنها ولا الأب بما في بطن زوجته، وربنا عز وجل قد علم ما كان وما يكون من هذا الغلام، بل إنه يرسل ملائكته فيكتبون رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا " أخرجه مسلم ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ بفعل الطاعات وترك المعاصي فمطلوبة كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٢٩]، كما أن الإنسان لا يذم نفسه أيضًا فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ

نَفْسِي» **أخرجه مسلم (١٦)** ، والمعنى واحد لكن اللفظ المستقبح يترك، وإذا احتاج الإنسان أن يزكي نفسه كأن يكون في مجتمع ما يعرفون مقدار أهل السنة ومن حولهم عبارة عن أهل بدع وضلالات فله أن يقول: جئناكم بالخير والهدى والكتاب والسنة والدعوة الصحيحة، وقد قال يوسف عليه السلام للعزيز: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٥٥]، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي: أن الله أعلم بالمتقين ظاهرًا وباطنًا كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [النساء: ٤٩]، وفي الصحيح .عن زينب بنت أبي سلمة قالت قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَبَ» أخرجه مسلم (١٩) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ أي أخبرني يا محمد عن الذي تولى عن دين الله وشرعه.

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا ﴾ من المال، ﴿ وَأَكْدَى ﴾ بخل به عن الإنفاق في سبيل الله،

والبخل صفة ذميمة ولهذا وصف الله بها الكفار كثيرًا، فينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه في إزاحة هذه الصفة إن وقعت فيه، فعن جَابِرٌ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟» قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ» ، وَكَانَ عَمْرٌو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُولِمُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَزَوَّجَ. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦) أي: من الأدواء المعنوية، فمن طبيعة الكفار الاعراض عن دين الله كالصلاة وغير ذلك، والبخل بما أوجب الله عليهم {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة: ٣٤] .

﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أنك لن تنصر يا محمد، أو أن دينك على غير الطريق، أو أنه سيخلد وسيعيش منعمًا في هذا المال ويبعث عليه كما قال الله في وصف الآخر: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا ﴾[مريم:٧٧-٧٩]، والمعنى أنه لم يكن ذلك.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ ألم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ بما في أسفار وكتب موسى، وقد اختلف أهل العلم هل صحف موسى هي التوراة أم أنها غير التوراة، والذي يظهر أنه الكتاب المنزل على موسى.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ﴾ وفي صحف إبراهيم عليه السلام ﴿ الَّذِي وَفَّى ﴾ بما أمره الله له، كما قال الله عزوجل: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[البقرة:١٢٤]، أي: أتى بالأمر والنهي على تمامه ففعل المأمور واجتنب المحظور، ومن عظيم ما أمر به أنه أمر بذبح ولده فبادر إلى ذلك، وهذا دليل على أنه وفى بدين الله وأتى به على الوجه الذي أمره الله.

ومما ذكره الله وأوحاه في صحف براهيم وموسى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي لا يجني أحد على أحد ولا يتحمل أحد ذنب أحد، وعن أبي رمثه قال: انطلقتُ مع أبي نحو النبي - صلَّى الله عليه وسلم -، ثم إنَّ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلم - قال لأبي: "ابنُكَ هذا؟ " قال: إي ورَبِّ الكعبةِ، قال: "حقاً؟ " قال: أشهدُ بِهِ، قال: فتبسَّم رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم - ضاحِكاً مِنْ ثَبْت شبهي في أبي، ومن حَلِف أبي علىَّ، ثم قال: "أما إنَّه لا يَجني عليكَ ولا تَجنِي عليهِ" وقرأ رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم - {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥] وفي المثل: كل شاة برجلها معلقة، وقبل ذلك قول الله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[المدثر:٣٨]، فعلى الإنسان أن ينظر إلى عمله الصالح فيلازمه وينظر إلى عمله السوء فيتوب منه، فأخبر أنه لا يحمل وزر غيره .

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أي ليس له أجر غيره، واُستدل بهذه الآية على أن قراءة القرآن والصلاة ، وغير ذلك من أعمال البر لا تصل إلى الميت وإنما جاز الصيام لمن مات وعليه قضاء والحج والعمرة وأما الصدقة فليس فيها خلاف ، وأما القراءة للأموات هذا ليس له: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ إلا ما عمل، إلا أن الاستغفار له من سعيه؛ لأن إيمانه هو الذي أهله لاستغفار المؤمنين له قال تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾[محمد:١٩]، ومن سعيه ولده، والصدقالت الجاريات ولذلك كان من أنفع الأعمال: **فعن أبي هريرة** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " أخرجه مسلم (١٤) .

قال ابن كثير (٧/ ٤٣١): مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ، أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَى الْمَوْتَى، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا كَسْبِهِمْ وَلِهَذَا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيمَاءٍ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَبَابُ الْقُرُبَاتِ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى النُّصُوصِ وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيِسَةِ وَالْآرَاءِ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَى وُصُولِهِمَا وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا.

وَأَمَّا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»

فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ» وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ ونحوه هي

من آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ [يس: ١٢] الآية. وَالْعِلْمُ الَّذِي نَشَرَهُ فِي النَّاسِ فَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ «مَنْ دَعَا إِلَى هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا» . اهـ

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ ﴾ أي: عمله، ﴿ سَوْفَ يُرَى ﴾ يوم القيامة يراه رأي عين فيجازى بإحسانه، ويفرح به كما قال تعالى: {لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} [الغاشية: ٩] وربما أُخذ بذنبه وإجرامه.

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ فإن كان العمل صالحًا ضاعف الله له الأجر والمثوبة كما قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[الأنعام:١٦٠].

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ هذا إخبار من الله عز وجل بمصير الناس جميعًا إليه يوم القيامة مهما عاشوا فإن مردهم إلى الله كما قال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أي: الله، ﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ فما أنت فيه من الحزن والفرح والضحك والبكاء هو خلق لله وتقدير ، فكم من إنسان ربما يصاب بشلل ما يستطيع يضحك، أو ربما يصاب بفرحة ما يستطيع يبكي، فشأن البكاء، والضحك، والفرح، والسرور وجميع حالات الإنسان إلى الله.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أمات من شاء وأحيى من شاء كما قال: ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾[الأنعام:٩٥]، ولما حاجا إبراهيم النمرود: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

﴾[البقرة:٢٥٨]، قال النمرود: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[البقرة:٢٥٨]، وكان إحياؤه أنه قتل واحدًا وترك واحدًا، قال: أحييت هذا وقتلت هذا، لكن الله عز وجل هو الذي يحيي من شاء ويعطيه الحياة كما أحيى عزيرًا بعد أن مات مائة سنة ورد حماره، قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٥٩]، قال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦٠]، ويوم القيامة يخرج الناس من قبورهم ويحيي جميع المخلوقات ثم يقال للحيوان: كوني ترابًا، ويدخل الإنسان والجان من كان من أهل الإيمان الجنة ومن كان من أهل النار النار، والله المستعان .

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ تعالى، ﴿ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ من كل صنف من الحيوان، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات:٤٩]، ذكر وأنثى للمحافظة على النسل ولغير ذلك من المصالح، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾[آل عمران:٣٦]، فالذكر له صفات تؤهله أن يكون أعلى من الأنثى كما قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾[النساء:٣٤]، وبذلك تعلم فساد دعاة المساواة بين الرجال والنساء، فلا يمكن أن تساوي المرأة الرجل لا في الميراث، ولا في العقل، ولا في كثير مما جعله الله عز وجل القوام فيه للرجل كالرئاسة، والقضاء ونحو ذلك، وعن أبي بكرة ﷺ قال قال النبي ﷺ : «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» **أخرجه البخاري.**

﴿ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ نطفة تجتمع في رحم المرأة: ﴿ إِذَا تُمْنَى ﴾ أي: بعد خروج المني وهو ماء الرجل والمرأة، كما قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } [الإنسان: ٢] .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ يقول وكما أنه تعالى خلق الزوجين الذكر والأنثى في الدنيا فعليه النشأة الأخرى في الآخرة حيث يخرجون من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا، فيجمعهم ويجازيهم على أعمالهم، ولا يعجزه شيء، وقد تقدم بيان ذلك مراراً وتكراراً، ويأتي إن شاء الله .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى﴾ من الغنى، أي ملك من شاء من عباده من المال ﴿ وَأَقنى﴾: من القنية أي يرزقه الخدم ونحو ذلك فيصير عنده كثير من الأمور التي يقتنيها من النِعم وربما السيارات والعمارات ونحو ذلك، فَرُبّ غني وما عنده قنية، ورُبَّ صاحب قنية وليس بغني فربنا يغني من شاء ويعطي من شاء .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ ثم أخبر عما فعل بالمتقدمين من الأمم المخالفة لدين رب العالمين: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ عاد التي بعث إليها هود عليه السلام، وليس المعنى أن تمت عاد أولى وعاد ثانية؛ لأن بعض المفسرين ذكر ذلك ، وإنما هي أولى بالنسبة لما بعدها من الأمم، كما قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾[الفجر:٦-٨].

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أهلكهم أيضًا وهم قوم صالح، ﴿ فَمَا أَبْقَى ﴾ لهم باقية، حيث عقروا الناقة وتمالأوا عليها فصبحهم الله عز وجل بصيحة أتت عليهم من آخرهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وكذلك أهلك قوم نوح الذين تمردوا على دينه وشرعه فأغرقهم الله عز وجل بالطوفان ولم يسلم إلا من سلمه الله من أهل الإيمان في السفينة وما حمل من الدواب والأنعام، قال الله عز وجل: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا

مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [المؤمنون: ٢٧]

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ﴾ كانوا في ظلم شديد وبعد أكيد عن توحيد رب العبيد سبحانه وتعالى، مكث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا ما زادهم إلا عتوًا ونفورًا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[نوح:٥-٩]، فأبوا، ﴿ وَأَطْغَى ﴾ أي في أشد الطغيان.

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قوم لوط، ﴿ أَهْوَى ﴾ بهم بعد أن رفعهم، وقد تقدم بيان شيء من ذلك.

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ غشاها العذاب الأليم والخزي العميم؛ بسبب الفاحشة التي ارتكبوها والشرك الذي عاقروه، فجعلهم الله عبرة للمعتبرين، ولهذا كان حكم اللوطي أنه يرجم من أعلى شاهق ويرجم بالحجارة جزاءً لفعلته الشنيعة .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ﴾ أي نعماء ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ ما الذي يُشكك في آلاء الله العظيمة وآياته الجليلة مع ظهور هذه الحجج القوية في استحقاق الله عز وجل للعبادة لتفرده بالربوبية، وفي إهلاك الله عز وجل لمن تمرد على شرعه ودينه.

﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ أي: القرآن، أو محمد، ﴿ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ يعني: كما أرسل الله الرسل السابقة أرسل محمدًا مثلهم، وكما أنزل الله الكتب أنزل القرآن مثلها وفيه النذارة والبشارة.

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ أي دنت القيامة وقربت.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي لا يدفعها من دون الله عزوجل أحد فإن العباد عاجزون عن دفع شيء من أهوالها.

﴿ أَفَمِنْ هَذَا﴾ القرآن، ﴿الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ يعني المشركين يعجبون ويتضاحكون من القرآن، فتارة يزعمون أنه سحر، وتارة شعر، وتارة أساطير الأولين، وتارة كذب، وتارة يتضاحكون فيما بينهم يزعمون أن محمداً ﷺ به جنون وغير ذلك، فكانوا إذا مروا بالمسلمين يتضاحكون، وإذا انقبلوا إلى أهليهم في حال فكاهة على المسلمين فعاتبهم الله على ذلك، فالضحك من القرآن ودلالة القرآن يدل على سخف العقول.

﴿ وَتَضْحَكُونَ﴾ كما هو فعل السفهاء ﴿وَلا تَبْكُونَ ﴾ كما هو فعل الأتقياء لله عزوجل، قال تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩] .

﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾أي تغنون، في لغة اليمن وقيل غافلون، فكانوا يتضاحكون وهم يغنون ويسخرون بالقرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ فَاسْجُدُوا لله﴾ صلوا ﴿وَاعْبُدُوا ﴾ اخلصوا العبادة له، فهذا أمر الله، وحين نزلت هذه الآية سجد النبي ﷺ وسجد معه الجن والإنس، فعَنْ عَبْدِ الله، «عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَرَأَ وَالنَّجْمِ فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ» غَيْرَ أَنَّ شَيْخًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا قَالَ عَبْدُ الله: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا» أخرجه مسلم، ولهذا ظن أهل الإسلام الذين في الحبشة أن قريشاً قد دخلوا في الإسلام فرجعوا إلى مكة فابتلوا بلاءً عظيمًا ثم هاجروا الهجرة الثانية، وبعدها الهجرة إلى المدينة النبوية.[٢]

والحمد لله رب العالمين.

[٢] انتهينا من تفسير سورة النجم، ولله الحمد والمنة، في آخر يوم من رمضان من عام ١٤٤١هـ

تفسير سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً «فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ» أخرجه مسلم (٤٦) .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء:١]، وكقول الله عز وجل: ﴿ أَتَى أَمْرُ الله فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، وقد قال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وقال الله عزوجل: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[غافر:٥٩]، وكل ما هو آت قريب وإن بعد في وقته وزمانه؛ لكن قد علم أن هذه الأمة من آخر الأمم، كما في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صُلِّيَتِ العَصْرُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيتُمُ القُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابِ: هَؤُلاَءِ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلًا وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ الله: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ " أخرجه البخاري ، ﴿ السَّاعَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأن لها وقت معلوم محدود تكون فيه، ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ المراد به الانشقاق الذي حصل في زمن النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود وغيره: أن كفار قريش سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين، فكان فلقة منه على جبل أبي قبيس وفلقة منه على جبل عمر، ومع ذلك هل استجابوا حين جاءتهم

الآية العظيمة البينة؟ لم يقع منهم ذلك؛ بل أعرضوا وزعموا أن هذا سحر يزول سريعًا.

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً من آيات الدالة على وحدانيته والدالة على صدق نبوة محمد ﷺ يعرضوا عن الاستجابة والانقياد، ﴿ وَيَقُولُوا﴾ أن ما شاهدناه من الآيات ﴿ سِحْرٌ ﴾ هذا سحر يخيل لنا، ﴿ مُسْتَمِرٌّ ﴾ زائل ويوشك أن يزول ويذهب، وهذا لشدة عنادهم وإلا فقد أُرخت حادثة انشقاق القمر في الهند وفي غيرها من البلدان دليل على أنها حادثة عامة، قال ابن كثير (٧/ ٤٧٢): فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: "خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الرُّومُ، وَالدُّخَانُ، وَاللِّزَامُ، وَالْبَطْشَةُ، وَالْقَمَرُ" . وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَيِ انْشِقَاقُ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ. اهـ

﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ أي: كفار قريش بهذه الآية العظيمة، ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ من أن هذا سحر أو كذب أو تخييل ونحو ذلك، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي وردوا كل أمر ثابت وحق مما أوحاه الله عز وجل إلى محمد ﷺ، أو المعنى: أن كل أمر سيقع كما أراده الله عز وجل، ومع ذلك ستجد عندهم التكذيب والاعراض.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ أي: كفار قريش ﴿ مِنَ الْأَنبَاءِ ﴾ من الأخبار عن الأمم السابقة السالفة، والحجج القوية الظاهرة ﴿ مَا فِيهِ﴾ لهم ﴿مُزْدَجَرٌ ﴾ زاجرٌ ومانع عن باطلهم وكفرهم وعنادهم؛ لكن لم تغنِ النذارة عنهم شيئًا ولم يستفيدوا من دلالتها بل ازدادوا عتوا ونفوراً .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن حجة قوية ظاهرة بينة تبلغ إلى شغاف القلوب، ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ أي فليست تغني النذر، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، فمهما جئت الكفار بآية لن يستجيبوا لك بل يزداد كفرهم وعنادهم، وهل أبلغ من دعوة النبي ﷺ لهم فهو أبلغ وأعلم وأفصح

وأرفق وأحسن الناس خلقًا، وأكرمهم، وأقرب الناس منهم نسبًا ومع ذلك ما استجابوا لدعوته مكابرة وعناداً وإعراضاً .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم يا محمد ولا تلتفت إليهم، والحال كما قال تعالى: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} فإن الهداية من الله، يهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦]، وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ يَوْمَ﴾ أي إلى يوم، يعني: تول عنهم وسيعرفون عظيم دعوتك وصدق رسالتك، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ أي: في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٥٢]، والداعي إسرافيل حين ينفخ في الصور، ويحشر الناس إلى أرض المحشر، ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ شيء عظيم مستنكر شديد حال الناس فيه.

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي ذليلة خاضعة كما قال الله عز جل: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[إبراهيم:٤٢]، أي ترفع إلى السماء، فلا يستطيع أحدهم أن يغمض عينه؛ لشدة الخوف الذي نزل بهم والحال الذي وقع عليهم: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم:٤٣]، من شدة الفزع والخوف، ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ من القبور، ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ كثير هاهنا وهاهنا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[المعارج:٤٣]، وقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [يس: ٥١] فيخرجون في كثرة مسرعين في مشيهم وعدوهم فزعين من الحال الذي هم فيه.

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ خاضعين خاشعين، ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ الذي يدعوهم إلى المحشر،﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ ﴾ في ذلك الوقت: ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ شديدة أهواله وعظيمة أحواله ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩١]، ألم يخبركم رسول الله

ﷺ عن شدة ذلك اليوم في مثل قول الله عزوجل: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[المعارج:١-٩]، الآيات.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي: بالنبوة والرسالة مع ظهور الآيات والحجج، ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول أُرسل إلى أهل الأرض، ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ وكل الناس عبيدالله إلا أن عبودية الرسل عبودية خاصة عبودية اصطفاء وتذلل وخضوع، وأضافهم الله إلى نفسه تشريفًا لهم وإكرامًا لمنزلتهم، وقد سمى الله نوحاً عبدًا شكورًا: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء:٣]، ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي: قومه المخالفون المعرضون، ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ فلا يلتفت إلى قوله وفعله، ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أي أعرض عنه وطرد ولم يلتفت إليه، بل كان محتقرًا عندهم يتخذونه سخرية ونحو ذلك، كما قال الله عزوجل: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء: ١١٦] .

﴿ فَدَعَا﴾ نوح عليه السلام ﴿رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ يقول: يا رب إنهم غلبوني وقهروني فانتصر لي، ودعوته مذكورة في آخر سورة نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[نوح:٢٦-٢٧]، وفي الآية أن دعوة المظلوم مستجابة، وقد قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ الله، مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا» متفق عليه .

وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، .... فَيَأْتُونَ نُوحًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا ...» متفق عليه .

واستجاب الله دعوته ونصره: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ حيث كان قد أمره الله عز وجل بصنع السفينة فصنعها وهم يمرون عليه ويسخرون، تصنع سفينة في البر واليابسة؛ لكن استجاب الله له: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أي: السحاب، ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ كثير.

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أنهارًا وعيونًا تخرج من جبالها ووديانها، ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ النازل من السماء والخارج من الأرض: ﴿ عَلَى أَمْرٍ ﴾ وهو إغراق البسيطة ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ قد كتبه الله عليهم وأمضاه، وما قدره الله عز وجل كونًا لا بد أن يقع، وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذين يزعمون أن الماء يتكون من البحار ويتبخر ثم ينزل على هيئة المطر، لله الحكمة قد يكون أصله من ذلك؛ لكن القول بأنه من البحار هذا قول بعيد فإن المياه التي تنزل من السماء أكثر بكثير مما يمكن أن يتبخر، وقد دعا النبي ﷺ ربه بالمطر فجاءت سحابة ولم يكن في المدينة سحاب قبل ذلك من خلف جبل سلع كأنها الترس وأمطرتهم سبتًا، فينبغي عدم الالتفات إلى نظريات أصحاب الهيئات لا سيما المخالفة لكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي: نوح ومن معه من المؤمنين، ﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ وهي السفينة صنعت من الخشب، ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ مسامير تثبت فيها الأخشاب والألواح .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ تجري بمرأى من الله إذ أن الله على عرشه بائن من خلقه؛ لكنه يرى السفينة ويرى من في السفينة لا تخفى عليه خافية، وفيه: إثبات صفة العينين لله عز

وجل على ما يليق بجلاله، ﴿ جَزَاءً ﴾ أي: هذا الاغراق كان: ﴿ جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ جزاءً لهم على كفرهم وانتصاراً لنوح عليه السلام أنه أغرقهم وحفظ الله نوحاً ومن معه من المؤمنين: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾[الشعراء:١١٩]، من المؤمنين،.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي السفينة أو الحادثة جعلها الله آية وعبرة وعظه، وليس بالشرط أنها تُرى الآن كما يقول بعضهم: وجدنا بعض أجزائها أو كذا، الله أعلم؛ لكن ما وقع في هذا الطوفان العظيم آية، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [يس: ٤١]، وقال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة: ١١] ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي متذكر ومتعظ رجاع إلى الله عز وجل عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا، سَأَلَ الأَسْوَدَ: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٥] أَوْ (مُذَّكِرٍ)؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله يَقْرَؤُهَا: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٥] قَالَ: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَؤُهَا: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» دَالًا» أخرجه مسلم.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ انظروا يا معاشر من أعرض عن دين الله كيف كان عذاب الله عز وجل لا يعجزه شيء،﴿ وَنُذُرِ ﴾ يعني: كيف كانت نذارته، فمن أعرض عنها أهلكه بعذابه.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ أي سهلنا لفظه وفهم معناه ﴿لِلذِّكْرِ﴾ يتذكر الناس ويتعظوا ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ من متذكر.

﴿ كَذَّبَتْ﴾ وكذلك كذبت وأعرضت ﴿ عَادٌ ﴾ قوم عاد حيث أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام بالبشارة والنذارة، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عذابي ﴾ أي بعد إعراضهم وكفرهم، ﴿ وَنُذُرِ ﴾ وكيف كانت هذه النذارة، فقد صبحهم الله: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[الحاقة:٧]،

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ شديدة عظيمة وهي جند من جنود الله، وهي ريح الدبور ﴿ صَرْصَرًا ﴾ أي: في حال برودة وصوت مزعج، ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ عليهم وشدة وضيق، ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ دائم الشؤم فاستمر عليهم سبع ليال وثمانية أيام ثم زال؛ لكن بعد إهلاك الله لهم حيث أصبحوا كأعجاز نخل خاوية، وكما قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأحقاف:٢٤-٢٥]، وقد قال النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» أخرجه مسلم (١٧) عن ابن عباس رضي الله عنه، فالدبور: هي الريح الغربية التي أهلك الله بها قوم عاد، والصبا: هي الريح الشرقية التي نصر بها محمدًا ﷺ، والريح تمشي بأمر الله، فقد كان يحمل عليها سليمان عليه السلام في غدوته وروحته مسيرة شهر.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ عن أماكنهم، أي من عظيم شأنها أنها تنزع الناس ترفعهم ثم تهوي به، إما في حالة حرجة وإما أن نتقابض حتى نصل إلى المسجد مع قرب مسافته، ومن عجيب شأنهم أنهم يمكثون أشر لا يستطيعون صعود البحر ولا أن ترسوا سفينة في برهم، فإذا كان هذا في ريح موسمية فكيف بريح العذاب، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ كأنهم جذوع النخل التي أُخرجت من تربتها وألقيت .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ كرر الله هذا لبيان حججه القويمة وآياته العظيمة حتى لا يحتج محتج مجوزًا لكفره وبعده عن دين الله.

ثم قال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح، ﴿ بِالنُّذُرِ ﴾ وهو نذير لهم بين يدي عذاب شديد؛ لكن جمعت النذارة؛ لكثرة الآيات التي يأتي بها الأنبياء أو لكثرة الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إلى قومهم، والمكذب لواحد منهم كالمكذب لهم جميعًا، فقد قال

الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]، وحال المؤمنين ما قال الله عزوجل: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[البقرة:٢٨٥].

﴿ فَقَالُوا ﴾ أي: في رد دعوى الحق التي جاءتهم من الله، ﴿ أَبَشَرًا ﴾ آدمياً وهذه حجة ضعيفة دائمًا يأتي بها الكفار حيث يطلبون ملك، مع أن الله لو أرسل ملكًا لجعله رجلًا، كما قال الله عزوجل: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام:٩]، ﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ يعني: نتبع واحد ونترك رأي الجماعة، ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ قال قتادة: إنا إذا لفي عذاب وعناء مما يلزمنا من طاعة، وقيل جنون .

ثم ردوا نبوته ورسالته بحجة عليلة بل ميتة، وهي قولهم: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ كما قال قوم قريش: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، يعني: أبوا أن يسلموا بمحمد ﷺ بهذه الدعوى مع أن الله عزوجل يقول: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨]، وبنو إسرائيل حين ردوا تمليك الله عز وجل لطالوت عليهم: ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾[البقرة:٢٤٧]، فهذه دعوى كل مبطل ثم جاءوا برد دعوته جملةً وتفصيلًا بقولهم: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي صالح عليه السلام، ﴿كَذَّابٌ ﴾ في قوله بأن الله أرسله، ﴿ أَشِرٌ ﴾ شديد الشر والكبر والبطر، متجاوز في باب الكذب وفي الحديث: « وَالْأَشَرَةُ شَرٌّ».

قال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ وهذا على التهديد أي: سيعلم كفار ثمود الذين أعرضوا عن دعوة صالح عليه السلام غدًا ﴿ مَنَ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ حين يأتيهم بطش الله وغضبه وانتقامه.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أي اختباراً فقد أرسل الله لهم الناقة حيث سألوا الآية: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ

الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:١٥٥]، أتاهم الله بناقة ومن عظيم شأنها أنها تشرب ماء البئر في يوم وترويهم بلبنها جميعًا، وفي اليوم الثاني ماء البئر لهم؛ لكنهم أبوا إلا قتلها وعقرها: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس:١٤-١٥]، فتنة حلت بهم ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ انتظر ما هم صانعون، ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ على ارتقابهم، وقيل على ما يصيبك من الأذى حتى يأتي نصر الله، وهذا من تأييد الله عز وجل لأنبيائه، وفيه: عظيم الصبر، فإن الله أمر به المرسلين، ولا بد للداعي إلى الله عز وجل من الصبر على المخالفين والمعارضين، حتى ينهره الله ويؤيده .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ يا صالح: ﴿ أَنَّ الْمَاءَ﴾ أي ماء البر ﴿قسمة بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناقة وبين قوم صالح الذين هم ثمود، ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره من كانت نبوته، فإن كان يومها حضرت شربها، وإن كان يومهم حضروا شربهم .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو قدار بن سالف رجل عارم منيع في قومه، ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ أمروه بذبحها بعد أن تمالؤوا على قتل صالح فسلمه الله، كما قال الله عزوجل: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [النمل: ٤٨ - ٥٢] .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ انظر كيف دمر الله عليهم وأهلكهم مع كبرهم وبغيهم.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي صيحة جبريل عليه السلام فأهلكهم الله عز وجل بها، ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ كبقايا طعام الدواب، فما سقط من علفها

وداسته فهو الهشيم، وقيل كيابس الشجر إذا انحطم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ قومه من حيث أنه دعاهم وإلا فإن لوط ابن عم إبراهيم عليه السلام هاجر مع إبراهيم فنزل في منطقة سدوم وهي ما حول البحر الميت الآن فدعاهم إلى توحيد الله عز وجل وترك ما يعاقرونه من الفاحشة التي لم يسبقوا إليها؛ حيث أنهم يأتون الذكران من العالمين فكذبوا بالنذارة وكان جزائهم: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أرسل الله عليهم حاصبًا يحصبهم وهو حجارة من سجيل، كما مر في تفسير سورة الذاريات، قال الله عز وجل في شأن عذابها: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود:٨٢-٨٣].

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أي: أسرته، واستثني منها زوجته؛ لأنها كانت متمالئة مع قومها: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[النمل:٥٧]، وفي بعض الآيات: ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[العنكبوت:٣٢]، الهالكين، ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أي: أن الله أمرهم بالخروج من القرية في وقت السحر حيث أمرهم بقوله: ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:٨١].

﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ كان هذه النجاة نعمة من الله أن سلمهم من بين تلك الأمة، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ لأن الله يجزي الشاكرين والعابدين له على أعمالهم الصالحة إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرة ويأتيهم في الدنيا خير بسببها، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا» أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه، وفي هذا فضل الشكر لله عز وجل، ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ

﴾[إبراهيم:٧]، فلو اعتصم الناس بعبادة الله وشكروه وذكروه مع هذه الفتن والأدواء لرأيت فضل الله العظيم.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ كان من أمره معهم أنه أنذرهم وحذرهم بطش الله وغضبه عليهم، ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ شكوا وأعرضوا ولم يلتفتوا لنذرته، فكان جزاؤهم الهلاك.

وكان من سوء صنيعهم: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ﴾ أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ حين جاءه جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شباب حسان الوجوه، فكان حالهم كما قال الله: ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا الله وَلا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[الحجر:٦٧-٧٠].

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾[القمر:٣٧]، أي أعمى الله على أعينهم فلم يتوصلوا إلى مطلوبهم: وقال أهل التفسير: خرج إليهم جبريل فضرب أعينهم بجناحه حتى طمست وغارت، والله أعلم، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي ما أنذركم به لوط .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أي جاءهم العذاب في الصباح، وربما كان بعضهم في نوم وسبات بعد سهر وإرهاق كما قال الله عز وجل: ﴿ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:٨١]، عذاب واقع وثابت لازم حتى أهلكهم وأفضى إلى العذاب .

﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كررها عليهم لشدة ما نزل بهم من العذاب،﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

ثم أخبر الله عن حال فرعون، وهم من آخر الأمم المذكورة: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني موسى وهارون حيث قال الله عز وجل: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾[طه:٢٥-٣٠].

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ المتكاثرة كما قال الله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾[الإسراء:١٠١]، وهو كذاب في هذا القول كما أخبر الله عنه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[الإسراء:١٠٢]، ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل:١٤]، والآيات التسع جمعها بعضهم في قوله:

عصا سنة بحر جراد وقمل دم ويد بعد الضفادع طوفان

فكانت إذا جاءتهم هذه الآيات آمنوا ووعدوا بالإيمان فإذا دعا الله بصرفها عنهم عادوا إلى بغيهم وكفرهم، ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أخذهم الله، ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ قوي منيع ﴿مُقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢] فأنجى موسى ومن معه بإمساك ماء اليم عن التدفق، وأهلك فرعون ومن معه بإرسال الماء عليهم: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾[الشعراء:٦١-٦٤]، قرب فرعون ومن معه إلى البحر:﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:٦٥-٦٧].

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ أتظنون أنكم تسلمون من الهلاك؛ لأن كفاركم أشد وأقوى ممن تقدم ذكرهم ، ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ من العذاب والخزي ﴿فِي الزُّبُرِ ﴾ في الكتب مزبورة مكتوبة من رب العالمين على أن لا ينالكم خزي ولا عذاب ولا حساب، والواقع أنه قد توعدهم الله بعذاب أليم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني كفار مكة، ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ يعني: نحن جمع كثير وأمرنا على حال واحد، وستكون لنا الغلبة والنصر، وكانوا يتبجحون بكثرتهم وجموعهم؛ ولذلك زعم أبو جهل حين أراد أن يطأ على عنق النبي ﷺ أنه سيدعو ناديه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا» قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ -: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [العلق: ٧]- يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ الله يَرَى، كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لَا تُطِعْهُ} [العلق: ١٤] أخرجه مسلم .

﴿ سَيُهْزَمُ﴾ وفي قراءة: {سنهزم} ﴿الْجَمْعُ ﴾ كفار قريش، ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ وهذا خبر من الله بمكة وكان حصوله في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فقد انهزم كفار قريش وقتل منهم سبعون وأسر سبعون.

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ دعهم يتغطرسوا ويتكبروا والساعة موعدهم فيجازون على أعمالهم، ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أي أعظم داهية وأد مرارة من أسر يوم بدر، قال الله عز وجل في شأنها : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾[المزمل:١٧-١٨].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إن الكافرين، ﴿ فِي ضَلالٍ ﴾ في تيه وشك وريب، ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ شكوك وظنون فاسدة، لا يلون على عقيدة ثابتة؛ لأنهم يتبعون الظنون في جميع عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾[النجم:٢٣].

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ تقريعاً وتوبيخاً فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» أخرجه مسلم .

﴿ذُوقُوا ﴾ تذوقوا وتعذبوا، ﴿ مَسَّ سَقَرَ ﴾ عذاب النار المحرقة التي تسمى بسقر، وليس كما يقول بعض الدجاجلة: بأن سقر كوكب سيسقط من السماء ويكون به هلاك الأرض، بل هو من أسماء النار، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾[المدثر:٢٧-٢٨].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ وذلك أن كفار قريش أنكروا القدر وخاصموا فيه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: " جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَدَرِ، فَنَزَلَتْ {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩] أخرجه مسلم .

والإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان الستة، التي تضمنها حديث جبريل: قال «مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ» أخرجه مسلم، والقدر سر الله لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، والإيمان به يتم به بتحقيق أمور أربعة:

الأول: الإيمان بعلم الله الأزلي الأبدي المحيط بكل معلوم، كما قال تعالى: {إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة: ١١٥] وما في بابه من الآيات .

الثاني: الإيمان بكتابة الله عز وجل لما كان وما يكون إلى قيام الساعة، يدل عليه قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢].

الثالث: أنه لا يقع في هذا العالم إلا ما شاءه الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[الإنسان:٣٠].

الرابع: أن الله خالق الخير والشر، قال الله عز وجل: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]، وقال: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢] خلق الخير وهو يحبه، وخلق الشر لحكمته ولما تتحقق به من المصالح من جهاد الكافرين وابتلاء المؤمنين واختبارهم، فمن أطاع الله أكرمه ورفعه ومن عصاه فهو معرض للذل والهوان إلا أن يسلم الله عز وجل من شاء من أهل الإسلام.

ثم قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ أي: إذا أردنا الساعة، ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي لا يحتاج إلى تأكيد ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي طرفة عين، وقد أحسن من قال:

إذا ما أراد الله أمر فإنما ** يقول له كن قوله فيكون

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وانظر قدرة ما قصه الله عز وجل علينا: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل:٤٠]، فهذا فعل مخلوق مستعين بالله عز وجل فكيف بفعل الله الذي لا يعجزه شيء: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فهل من معتبر ومنزجر عن معصية الله عز وجل.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي كل ما سيكون منهم وعليهم مكتوب في الزبر وباللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق حيث خلق القلم فقال له: «اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»، أخرجه أبو داود عن عبادة رضي الله عنه ومع ذلك يمهل الله ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ ﴾ من أعمالهم، ﴿ وَكَبِيرٍ ﴾ من أفعالهم، ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مكتوب ومدون ومحفوظ عليهم يجازون عليه يوم القيامة، وفي مسند أحمد (٢٢٨٠٨) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ (١) كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ " ، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره عن سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ أَنَّهُ عَمِلَ ذَنْبًا فَاسْتَصْغَرَهُ، فَأَتَاهُ آتٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا سُلَيْمَانُ:

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذنوبِ صَغِيرا ... إِنَّ الصَّغير غَدًا يَعُودُ كَبِيرَا ...

إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرَا ...

فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ الْبَطَالَةِ لَا تَكُنْ ... صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا ...

إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلهُ ... طَارَ الْفُؤَادُ وأُلْهِم التَّفْكِيرَا ...

فَاسْأَلْ هِدَايَتَكَ الْإِلَهَ بِنِيَّة ... فَكَفَى بِرَبّكَ هَادِيًا وَنَصِيرَا. اهـ

﴿ فِي جَنَّاتٍ﴾ جمع جنة، جمعت لكثرة وتنوع من فيها ﴿وَنَهَرٍ ﴾ لما ذكر الله حال الكافرين عقب بحال المؤمنين، وهذا يكون في القرآن على أوجه متعددة إما أن يتقدم حال المؤمنين ويتلوه حال الكافرين، وإما أن يتقدم حال الكافرين ويتلوه حال المؤمنين، إما أن يذكر حال الكافرين مجردًا عن حال المؤمنين أو يذكر حال المؤمنين مجردًا عن حال الكافرين، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾[الحديد:١٢]، كما جاء في مواطن عدة، منها: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي

وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [محمد: ١٥] .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان يستقرون فيه حق لا تحول عن حالهم إلى غيره: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[الكهف:١٠٨]، ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ وهو الله عز وجل، المالك لهم والقادر عليهم لا يعجزه شيء فيكرمهم بكرامات عظيمة ويجزي لهم المثوبة ويرضى عنهم: ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[البينة:٨]، وينعمون أبد الآباد، فعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ -أنه ينادي مناد في الجنة -: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» أخرجه مسلم، وفي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» أخرجه مسلم فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مكية كما هو ترجيح ابن كثير وقيل: مدنية، والذي يظهر أن سياقتها سياقة السورة المكية، وهي أول المفصل عند ابن مسعود رحمه الله ورضي عنه.

قوله: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ افتتح الله عز وجل هذه السورة بذكر اسمه الرحمن؛ لبيان رحمته الواسعة وفضله العظيم في تعليم الناس ما يحتاجون إليه ولإتمامه لخلقتهم على أحسن تقويم فهو المتفضل على عبادة بما شاء من نعمه، والرحمن: من الأسماء المختصة به لم يسمَ به غيره، وما جاء عن مسيلمة أنه سمى نفسه رحمان اليمامة فهو من باب المكابرة، وكانت تعرفه العرب، وأما ما جاء عن قول قريش: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾[الفرقان:٦٠]، فيعمل أن بعضهم كان لا يعرفه، وبعضهم كان يعرفه فقد جاء في بعض أشعار العرب: (ألا قضب الرحمن ربي يمينها)، وهو على وزن فعلان، ويدل على الرحمة العامة الواسعة .

ومن رحمته أنه: ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ فأنزله وبينه ويسره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧]، وعلمه محمداً ﷺ كما قال: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } [النساء: ١١٣] ومعلوم أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من أعظم الرحمات إذ أن الله لم يترك عباده هملًا؛ بل أرسل إليهم رسلًا فيبشرون المؤمنين وينذرون الكافرين، قال الله عز وجل: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} [المزمل: ١٥] والقرآن كلامه الذي أنزله على محمد ﷺ فبين ربنا عز وجل لفظه ومعناه، ويسره للقراءة والتدبر والتعقل، وهو الكتاب المحفوظ كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩] .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ خلقه من طين: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٩ -٧].

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ علمه القراءة والكتابة ونطق الحروف من مخارجها والإفصاح عما في نفسه بخلاف بقية الحيوان البهيم .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي: يجريان وفق حساب ثابت لا يتغير ولا يتبدل: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠]، وقد جعل الشمس والقمر حسبانًا أي: تحسب بها الشهور والأعوام، كما قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦].

﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ المعروف في السماء، وقيل: بأنه الشجر الذي لا ساق له، ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ المثمر وغير المثمر مما له ساق، ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ لله عز وجل على وجه يعلمه الله عز وجل.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ بغير عمد، ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ العدل، كما قال عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد: ٢٥].

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي لا تتجاوز العدل في جميع شؤونكم .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل، ﴿ وَلا تُخْسِرُوا ﴾ تنقصوا ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ وهذا عام في الموزونات الحسية كالمكيلات أو الموزونات المعنوية كالعدل والانصاف، ﴿ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فمن خسر ميزانه فقد استحق الوعيد: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ

أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾[المطففين:١-٤]، ولو استقام الناس على هذا الأمر لصلح الحال، ولكن إلى الله المشتكى، فقد قل الإنصاف، وظهر الإجحاف في جميع شؤون الحياة .

﴿ وَالأَرْضَ ﴾ المسطوحة المبسوطة، ﴿ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ للخلق الذين بثهم فيها يأكلون مما يخرج منها، ويشربون من مائها، ويستظلون ببنائها، فإذا جاءت الساعة جعلها ربي دكًا.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ مما لذ وطاب من أنواع الثمار، ﴿ وَالنَّخْلُ ﴾ خصه بالذكر؛ لما يتميز به من أنه طعام وحلوى ويسهل ادخاره، ﴿ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ ذات العزوق والأوعية التي قد استوى فيها التمر.

﴿ وَالْحَبُّ ﴾ معروف من الذرة، والشعير وغيرها من الحبوب ، ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ ورق كل شيء وهو ما يخرج منه حين تنقيته فيخرج منه شيء يسير يتجمع ويكون تبنًا، ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ هو الرزق في قول كثير من المفسؤين، وبه قال ابن عباس ﷺ، وقال الحسن وابن زيد ريحانكم الذي يشم ، وقيل: العشبة المعهودة ذات الرائحة، الجميلة، وقد ضرب به النبي ﷺ بالمنافق الذي يقرأ القرآن، فعن أبي موسى ﷺ قال ثقال النبي ﷺ : «وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ» **متفق عليه** .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بعد أن ذكر الله عز وجل من قدرته النافذة وحججه على عباده خاطب الثقلين من الجن والإنس بأي شيء من نعم الله عز وجل يقع تكذيبكم؟ وفي الترمذي عن جابر: أن النبي ﷺ قال: «لقد كان الجن أحسن ردًا منكم، كلما قرأتُ عليهم: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، قَالُوا: لا بِشَيْءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنَا نكذبُ»، لكن الحديث ضعيف من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد ورواية أهل الشام عنه ضعيفة.

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ خلق آدم عليه السلام أبو البشرية ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ وهو الطين إذا يبس، ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ معروف وهو ما تصنع منه الأواني من الطين ونحوه.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ إبليس عليه لعنة الله، ﴿ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ قيل: من أصفاها، وقيل: من دخانها، وهذا دليل على ثبوت آدم عليه السلام وعلى خفة الشيطان؛ ولذلك حين أكل آدم من الشجرة تاب وأناب، وحين أبى الشيطان السجود استكبر ومضى في شأنه؛ لأن شأن النار الطيشان وعدم السكون، وهذا أصل الخليقة، ففي حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» أخرجه مسلم .

قال: ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ هو الرزق في قول الأكثرين، قال ابن عباس: كل ريحان في القرآن فهو رزق، وقال الحسن وابن زيد: هو ريحانكم الذي يشم.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرقي الصيف والشتاء ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وأما قول الله عز وجل: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[المعارج:٤٠]، فهو بالنسبة إلى المطالع، الشمس والقمر في كل يوم وقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[المزمل:٩]، فالمشرق: ما تطلع منه الشمس، والمغرب: ما تغرب منه .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ﴾ أرسل ﴿الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ البحر المالح الذي هو المحيط وما إليه من الخلجان، والبحر العذب وهو الأنهار وما إليها، يعني: فصل بينهما بحيث لا يقع بينهما التمازج والتداخل، قال الله عزوجل: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٥٣]

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ الحاجز من الأرض حتى لا يلحقها المفاسد باختلاطها ﴿لا يَبْغِيَانِ ﴾ لأنه إذا تداخل الماء العذب مع الماء المالح فسد؛ بينما الماء العذب للشرب

والغسل والسقي، والماء المالح يوجد فيه أنواع الأسماك واللؤلؤ والمرجان، ومما يظهر أن الماء المالح حين يلتقي بالماء العذب يكون بينهما مثل الفاصل، والله عز وجل صاحب القدرة النافذة، في مدينة الخوخة تحفر على الساحل بل وما البحر يمشي عليك فتحفر حفرةً فتستخرج منها عذبًا زلالًا، وهذا من آيات الله.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ قيل: يخرج من أحدهما وهو المالح، كما قال ابن كثير: وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمِلْحِ لَا مِنَ الْحُلْوِ. وَهَذَا وَاضِحٌ. اهـ، وهذا كقوله تعالى: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } [الأنعام: ١٣٠] ﴿ اللُّؤْلُؤُ ﴾ وهو نوع من الزينة، ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ هو صغار اللؤلؤ، وقيل كباره، ويكثر خروجه في الخليج العربي؛ لأن البحار المحيطة والخلجان العميقة قد لا تجد فيها مثل هذا؛ ولكن حين يكون البحر قريبًا تصل إليه الشمس ونحو ذلك ربما تكون في هذا النوع من أنواع الزينة، وقد قال الله عز وجل في وصف البحرين: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢].

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يذكر الله عز وجل النعمة ثم يذكر بعدها بماذا تكذبون من نعم الله الكثيرة وآلاه الجزيلة.

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ السفن، ﴿ الْمُنشَآتُ ﴾ المخلوقات التي صنعها الإنسان، ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ يعني على البحر، ﴿ كَالأَعْلامِ ﴾ كالجبال العالية ترى من بعد، وهي كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾[الشورى:٣٢]، فجعلها آية عظيمة من آيات الله، فكم تنقل السفن من حاجيات الناس، ولو كان النقل على الطائرات والناقلات التي تسير على الأرض لشق ذلك على الناس .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ إخبار بفناء الإنسان والجآن ومن إليهم مما كتب الله عليه الفناء، وهكذا كقوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ

الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وكقوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} [آل عمران: ١٨٥] وقد كتب الله الفناء على جميع المخلوقات إلا ثمانية أشياء ذكرها أهل العلم:

ثمانية حكم البقاء عمها من الخلق والباقون في حيز العدم

هي العرش والكرسي نار وجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ في هذه الآية عزاء لكل مسلم إن مات قريبك أو حبيبك أو ابنك أو أخوك فاعلم أن هذا أمر قد كتب على الناس، كتب الموت على الناس، فكم أخذ من ممالك وكم أفنى من دول، ذهب فرعون، ونمرود، وبختنصر، وقارون، وهامان ومن معهم من المتكبرين لم تغنِ عنهم أموالهم شيئًا، قال ابن الوردي رحمه الله في لاميته:

كُتبَ الموت على الخَلقِ فكمْ ** فَلَّ من جيشٍ وأفنى من دُوَلْ

أينَ نمرودُ وكنعانُ ومنْ ** مَلَكَ الأرضَ وولَّى وعَزَلْ

أين عادٌ أين فرعونُ ومن** رفعَ الأهرامَ من يسمعْ يَخَلْ

أينَ من سادوا وشادوا وبَنَوا ** هَلَكَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ

أينَ أربابُ الحِجَى أهلُ النُّهى** أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأوَلْ

سيُعيدُ الله كلاً منهمُ ** وسيَجزي فاعلاً ما قد فَعَلْ

وفيه إثبات صفة الوجه لله عز وجل وهي من الصفات الذاتية الخبرية، والأدلة في ذلك كثيرة منها قول رسول الله ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ» وقال رسول الله ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» أخرجه مسلم، وعن جابر ت قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: {أَوْ مِنْ

تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -» أخرجه البخاري﴿ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ وصف للوجه؛ لأنه رفع، ولو كان وصف لكلمة ربك لكان ذي الجلال والإكرام، فمن فسر الوجه بالثواب أو الإحسان أو الذات فقد أخطأ وزل طريق السلف الكرام، و﴿ الْجَلالِ ﴾: العظمة، ﴿ وَالإِكْرَامِ ﴾: الكرام والجود والتفضل والإحسان، ومعنى الآية يبقى الله عز وجل المتصف بالوجه العظيم الجميل البهم .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وأنتم تشاهدون من يموت وتشاهدون ذهاب الممالك.

﴿ يَسْأَلُهُ﴾ أي الله ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي من المخلوقات أرزاقًا وعطايا ومنحًا، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ كل وقت هو في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، يحيي هذا ويميت هذا، ويرزق ويجبر ويعز ويذل ويرفع ويخفض ويستجيب ، والله المستعان، فهو تعالى: {فعّال لما يريد}.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ أنه هذا وعيد من الله للع باد وليس لديه شغل، ولكن يكون ذلك في يوم القيامة حين يجمع الناس لرب العالمين حفاةً عراةً غرلًا، فيجازون على أعمالهم، فعن ابن عباس ﷺ قال قال النبي ﷺ : «" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]» أخرجه مسلم، والثقلان: الجن والإنس؛ لأنهم حملوا الأمانة الثقيلة فعجزوا عن القيام بها إلا ما رحم ربي، وقيل سنفرغ لكم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب:٧٢].

وقال البخاري: سيحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء وهو معروف في كلام العرب يقول: لأتفرغن لك وما به شغل .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة حين يجمعون: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ يناديهم باسمهم العام متحديًا لهم مظهرًا لضعفهم، ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إن كان في قدرتكم: ﴿أَنْ تَنفُذُوا ﴾ تهربوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ وجوانبها ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وقيل: تحداهم أن يفروا من الموت، وهي كقوله: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] وأصحاب الهيئة استدلوا بهذه الآية على صعود القمر والمريخ والزهرة ونحو ذلك، ولا دلالة لهم فيها لأن هذه الآية في اليوم الآخر، والمعنى يقول الله عز وجل: إن استطعتم أن تفروا من الله ففروا وهيهات، ﴿ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ بحجة قاهرة وقوة ظاهرة، وليس إليكم ذلك، فإن الله محيط بكم وملائكته قد أحاطوا بكم، فلا نفاذ إلا بأمر الله عز وجل، وهذا كقوله: {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ} [القيامة: ١٠، ١١]، وكقوله: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [يونس: ٢٧]، وقوله: . {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا } [النبأ: ١٩]، وقوله: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ } [الانفطار: ١] .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ أي: على الإنس والجآن، ﴿ شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ لهب النار وقيل الدخان والأول أظهر ﴿وَنُحَاسٌ﴾ دخان النار في تفسير ابن عباس، ومنه قول نابغة بن جعدة :

(يضيء كضوء سراج السّليط... لم يَجْعَل الله فِيهِ نُحَاسا)

، ﴿ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴾ لا يقع لكم النصر؛ لأنهم هزموا، ولأن النصر عليهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم بينما المؤمنون حالهم ما قاله الله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ يوم القيامة، كقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١]، وقوله: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا } [الفرقان: ٢٥].

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الأحمر وقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ كَالدُّهْنِ صَافِيَةُ الْحُمْرَةِ مُشْرِقَةٌ واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في يوم القيامة شديد الأهوال والأحوال: ﴿ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ كقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقد جاء في بعض المواطن أنهم يُسألون قال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢، ٩٣، فهذا على حالات في المواطن، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «مَا مِنكمْ مِن أحدٍ إلا سَيُكلمهُ رَبهُ، ليس بينهُ وبينهُ تُرجُمان» **متفق عليه** .

قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: يوم القيام، ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلاماتهم التي في وجوههم، من أثر الشرك وما إليه من الذنوب كما يعرف المؤمنون بآثار السجود والوضوء، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ حَتَّى كَادَ يَبْلُغُ الْمَنْكِبَيْنِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ حَتَّى رَفَعَ إِلَى السَّاقَيْنِ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ» متفق

عليه، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي﴾ أي: تأخذهم الزبانية بنواصيهم وهي مقدمة رؤوسهم، ﴿ وَالأَقْدَامِ ﴾ فتلقيهم في النار وبئس القرار، وهذا لشدة الهوان الذي هم عليه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ قد أزلفت لهم وقربت ورأوها رأي العين، ﴿ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي كذبوا بها في الدنيا إما بعدم العذاب فيها، كما هو قول اليهود: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠] .

{يطوفون بينها وبين حميم آن} يعذبون بحريقها وتارة بشرب الماء الحميم الذي هو كالرصاص المذاب، والحال ، ويأكلون من شجر من زقوم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٦] إلى غير ذلك من أنواع بلائِهم وفتنتهم نسأل الله السلامة والعافية.

ولما ذكر الله عز وجل حال الكافرين والمعرضين ثناه بحال المؤمنين فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[النازعات:٤٠-٤١]، فعبادة الخوف من أفضل العبادات وأقرب الطاعات يتميز بها خلص المؤمنين، فأخبر الله عز وجل عن الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وقال الله عز وجل عن زكريا: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] ولبيان الجنتين {جنتان} أي جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين وفي حديث أبي موسى قال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» **متفق عليه**، ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي: خاف ربه لعظمته سبحانه وتعالى.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بعد هذه الحجج القوية الظاهرة.

وفي وصف هاتين الجنتين قال: ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي أشجار نضرة دانية وجميلة، يُتنعم بالنظر إليها كما يُتنعم بالأكل من ثمارها.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا﴾ أي: في هاتين الجنتين، ﴿ عَيْنَانِ ﴾ إما من ماء وإما من خمر أو نحو ذلك، قال الحسن: إحداهما يقال لها تسنيم والأخرى سلسبيل ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ تسيحان وتسرحان في الجنة فيشرب منها المؤمنون بحيث لا يحتاج أحدهم إلى أن ينتقل إلى مكان آخر، وتسقي لهم زروعهم فتثمر بما لذ وطاب من الفاكهة العظيمة.

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي في الجنتين من كل فاكهة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل: من ألفاظ العموم، والفاكهة: ما يتفكه بأكله والنظر إليه، والزوج: المراد به النوع، وهذا يدل على جميل ما فيها مع تنوعه وخيره .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ﴾ حال جلوسهم ﴿عَلَى فُرُشٍ ﴾ جمع فراش والفراش: ما يُجلس عليه، ﴿ بَطَائِنُهَا﴾ دواخلها ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ الحرير الخالص فإذا كانت بطانتها من الحرير الخالص فما بالك بظاهرها فإن الناس يهتمون بالظاهر أكثر من اهتمامهم بالباطن، فذكر الله عز وجل جمال باطنها؛ ليدل على عظيم جمال ظاهرها، ﴿ وَجَنَى﴾ ما يجتني من الثمار﴿الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ قريب ممن يريد أكله، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[الإنسان:١٤]، فيتناولونها بغير عناء أو تعب.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ غاضات الأعين عن غير أزواجهن، فلما ذكر الفرش وما يتعلق بها من الجمال ذكر جمال نسائهم الظاهر والباطن، ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ على غير الأزواج فلا يرفعن أبصارهن يمنة ولا يسرة، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي: لم يقع في معاشرتهن، ﴿ إِنْسٌ ﴾ بشر، ﴿ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ بل هُنّ محفوظات مصانات، وهذا أكمل ما يكون به التمتع من النساء: أن تكون عفيفة في

نفسها، وأن تكون جميلة في هيئتها، وأن تكون بكرًا، وقيل هذا وصف للحوريات اللاتي خلقهن في الجنة، وقيل من نساء الدنيا .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ في جمالهن وذلك أنه حين ذكر من حسنهن الباطن أتى ببيان حسنهن الظاهر أي: كأنهن في جمال وجوههن: ﴿ الْيَاقُوتُ ﴾: في صفاته وهو نوع من الحجر الكريم، ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾: في بياضه، وهو يخرج من البحار فيتزين به لجمال صفائه وحسن بهائه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأُلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» متفق عليه، وعن أنس ﷺ في البخاري قال النبي ﷺ: « وَلَوِ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ، وعن أبي هريرة ﷺ قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» أخرجه مسلم .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾ أي: أن كل ما ذكره الله للمؤمنين من النعيم المقيم والخير العميم سببه؛ إحسان العباد في عبادة ربهم في الدنيا فجزاهم الله بالحسنات إحسانًا، وجازى المؤمنين بالسيئات عفوًا وغفرانًا، والجزاء من جنس العمل، وقد قال الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، وهي النظر إلى وجه الله عز وجل.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولما ذكر أعلى الجنات وما فيها من الهبات عقب بذكر جنتي الفضة وما فيهما: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ في الفضل والمنزلة والجمال: ﴿ جَنَّتَانِ ﴾

لكنهما خير عظيم، هنيئًا لمن دخل الجنة ولو كان آخرهم دخولًا، والويل لمن دخل النار وإن كان أعلاهم، فإن أبا طالب في ضحضاح من النار، له نعلان يغلي منهما دماغه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ممتلئتان من الخضرة وذلك لشدة سوادهما وكثرة أشجارهما .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فياضتان وهذه دون الأولى، فتلك: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وهذه نضاخة، والفرق واضح فإن النضاخة: هي التي تدفع مرة وتقبض أخرى، بينما الجارية: هي التي تسرح في جميع وقتها، ومع ذلك وجود هذه العيون نافع ويُتنعم به ويُتلذذ بالنظر إليه وفي مائه.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وفي الأولى: ﴿ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وكل: من ألفاظ العموم، وهنا قيدها ببعض الفواكه المأكولة والمشروبة والمطعومة، ﴿ فَاكِهَةٌ ﴾ وهو ما يتفكه ، ﴿ وَنَخْلٌ ﴾ ذكره لبيان فضله، وهو من عطف الخاص على العام، ﴿ وَرُمَّانٌ ﴾ فاكهة معروفة نوع من الفاكهة الحولية لكن ، ليس في الجنة مما في الدنيا إلا المسميات كما قاله ابن عباس رضي الله عنه .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي خيرات كثيرة حسنة، فلما ذكر ما يُتنعم به من المآكل، وذكر ما يتعلق كذلك بالمشارب، ذكر ما يتعلق بالنساء اللاتي يُتنعم بهن في الجنة فقال: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي: نساء جميلات وما هو أبلغ من ذلك، فلفظ الخيرات: لفظ عام، والحسان: المراد به الجمال.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ ﴾ من شأنهن أنهن حوريات جميلات يُرى مخ ساقيها من وراء اللحم، ﴿ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ أي: أنهن مقصورات عن النظر إلى غير أزواجهن في خيام، والوصف الأول أكمل؛ لأن الأولات: ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ من أنفسهن، وهؤلاء قُصِرن بوضع الخيام عليهن، وكلهن في خير عظيم إلا أن الأولى أكمل وأفضل، وخيام المؤمنين في الجنة عظيمة ففي حديث أبي موسى قال رسول الله

ﷺ: «فِي الْجَنَّة لخيمة من لُؤْلُؤ وَاحِدَة مجوفة طولهَا سِتُّونَ ميلًا لِلْمُؤمنِ فِيهَا أهلون يطوف عَلَيْهِم الْمُؤمن فَلَا يرى بَعضهم بَعْضًا» **متفق عليه .**

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ أي: لم يقع في معاشرتهن إنس ولا جآن، بل هن محفوظات مصانات عفيفات .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ في الأولى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهذه: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ ﴾ السرير وقيل البسط الذي يجلس عليه ولونه أخضر، ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ طنافس وزرابي ونحو ذلك من الألبسة المزوقة والمزينة، ﴿ حِسَانٍ ﴾ عظيمة المنظر والمخبر طنافس ولكنها في اللين كأرق ما يكون يُتمتع بلبسها كما يُتمتع بالجلوس عليها، وهذا وصف عظيم وصف الله عز وجل به الجنة، وربما لم يأتِ في سورة هذا الوصف إلا ما سيأتي بعضه في سورة الواقعة، إذ أن الله عز وجل أظهر نعيم الجنة للمؤمنين أي: جملة ما فيها، وأما تفاصيل ما فيها فالحال ما قاله رسول الله ﷺ: «فيها مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ»، وقبل ذلك قوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧] .

ومن أعظم ما يوصل إلى الجنة: التوحيد والصلاة والدعاء قال ﷺ: «مَنْ سَأَلَ الله الْجَنَّةَ ثَلَاثًا، قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللهمَّ أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِالله مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا، قَالَتِ النَّارُ: اللهمَّ أَعِذْهُ مِنَ النَّارِ»، والجنة عظيمة الشأن سواء كان ذلك في قصورها وخيامها من المسكونات، أو كان ذلك في مطعوماتها ومشروباتها، أو كان ذلك بما يستمتع به من النكاح وغيره، ففيها كمال الحياة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» **أخرجه مسلم**، وكان المسلمون لعلمهم بمعاني القرآن ولتدبرهم له إذا وقعت عليهم مثل هذه الآيات

يجدون لذةً عظيمة، وربما انخلعت القلوب لبعدهم عن مثل هذه الحياة، فلما قال رجل للنبي ﷺ: إن قتلت أين أنا؟ قال: «فِي الْجَنَّةِ»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه النعم العظيمة التي امتن بها على عباده في الدنيا والآخرة.

﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو وصف لله، بمعنى تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ولا يجوز أن يقال لغيره تبارك، وإنما تقول: بارك الله عليك، أو بارك الله لك، ، ﴿ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ أي: الاسم الذي سُمي به الله عز وجل، ﴿ ذِي الْجَلالِ ﴾ وصف للرب، ﴿وَالإِكْرَامِ ﴾ فهو العظيم في صفاته والعظيم في كرمه، وهو المتعالي والمتعاظم عن صفات المخلوقين؛ لكمال صفاته وعظيم شأنه سبحانه وتعالى إذ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:٤]، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٤].

فائدة: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ وقال قبل: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٧]، فذوا الجلال والإكرام: وصف للوجه الذي اتصف الله به الوجه العظيم الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو ألذ ما يُتنعم بالنظر إليه يوم القيامة، فلذلك كان النبي ﷺ يقول: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»، وجرها في قوله: ﴿ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ لأنه وصف للرب، بهذا تعلم وجه من أوجه الرد على المبتدعة الذين يزعمون أن

الوجه بمعنى: الذات، أو أن الوجه هو الثواب أو غير ذلك من الأقوال البائرة، نسأل الله السلامة والعافية والحمد لله.

تفسير سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

في تفسير ابن كثير: وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ بِسَنَدِهِ إِلَى عَمْرِو بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ طَارِقٍ الْمِصْرِيِّ: حَدَّثَنَا السَّرِّي بْنُ يَحْيَى الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ أَبِي شُجَاعٍ، عَنْ أَبِي ظَبْيَةَ قَالَ: مَرِضَ عَبْدُ الله مَرَضَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَعَادَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: مَا تَشْتَكِي؟ قَالَ: ذُنُوبِي. قَالَ: فَمَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي. قَالَ أَلَا آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ؟ قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلَا آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: أَتَخْشَى عَلَى بَنَاتِي الْفَقْرَ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلم يَقُولُ: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا". انتهى وقد أعل الحديث بأربع علل:

الأولى: الانقطاع كما ذكره الدارقطني وابن أبي حاتم في علله نقلا عن أبيه.

الثانية: نكارة متنه قاله الإمام أحمد.

الثالثة: ضعف رواته: السري بن يحيى وشجاع كما ذكره ابن الجوزي.

الرابعة: الاضطراب فمنهم من يقول: أبو طيبة بالطاء المهملة ومنهم من يقول: أبو ظبية بالظاء المعجمة. ومنهم من يقول: أبو فاطمة ومنهم من يقول: شجاع ومنهم من يقول: أبو شجاع وقد اجتمع على ضعفه: الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطني والبيهقي وابن الجوزي تلويحا وتصريحا والله أعلم.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي: القيامة، سميت بالواقعة؛ لتحقق وقوعها.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ كقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ ﴾[الأنعام:١٣٤]، وقوله: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، وقوله: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، فوقعتها حاصلة لا كذب فيها.

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ للكافرين والمنافقين إلى أسفل سافلين، حيث يجعلون في الدركات والعذاب الأليم نسأل الله العافية، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء: ١٤٥]، وقال: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: ٥] ﴿ رَافِعَةٌ ﴾ للمؤمنين الموحدين إلى الدرجات العلى في الجنة، وفي حديث عبد الله بن عمر: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»، فالنار دركات النزول فيها إلى الأسفل، والجنة درجات إلى الأعلى.

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي تحركت وتزلزلة كقوله: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة:١]، فإنها ترج وتزلزل لتخرج أخبارها، فهو يوم عصيب شديدة أهواله عظيمة أحواله، كما قال: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١]، وقال تعالى: { يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا} [المزمل: ١٤] .

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي: فتتت فأصبحت كالرمل المتطاير بعد تماسكها وشدتها، بينما الآن الجبال الصماء والحجارة الشديدة تحتاج إلى معالجة من أجل إخراج بعض أجزائها، فيصيرها يوم القيامة كالرمل.

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخلت كوة، كما قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥]، وقيل:

كالدخان، المنبث: المتفرق لا تجد له جوماء، وهذه حالة من حالات الجبال كما تقدم .

﴿ وَكُنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ أي أصناف ثلاثة الأول: خلص الثاني: خلص الكافرين ، وصنف إلى أهل الإيمان ودون المرتبة الأولى .

وهذا كقول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢]، فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الظالم لنفسه: الكافر، فيكون تقسيمها على هذا التقسيم، وذهب جمع من أهل العلم وهو الصحيح: أن الأصناف الثلاثة المذكورة في سورة فاطر كلهم من أصحاب اليمين: السابقون، وهم المحافظون على الفرائض والنوافل، والمقتصدون، وهم المحافظون على الفرائض والظالم لنفسه، وهو من فرط في بعض الفرائض وارتكب بعض ما هو دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه.

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ عن يمنين الرحمن، وكلتي يدي ربي يمين، وأعمالهم ممدوحة، محبوبة عند الله عز وجل ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ وفي حديث الإسراء: « فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، قَالَ: فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، قَالَ: فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ "، قَالَ: " قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى " أخرجه مسلم (٢٦٣) .

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ من أخذ بهم ذات الشمال: وهم

الكفار في هذه الآية، وقوله: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كأنه يقول: وأصحاب الميمنة وشأنهم كذا وكذا كما سيأتي بيانه، كما يقال لك: أهل اليمن وما أهل اليمن؟ وقبيلة كذا وما قبيلة كذا؟ على المدح أو الذم بحسبه.

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ قيل عن شمال العرش، وأما الرب عز وجل فكلتا يديه يمين ولا يوصف بالشمال.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أي والصنف الثالث السابقون، كأنه يقول: والسابقون وما أدراك ما السابقون؟ شأنهم عظيم، ومنزلتهم رفيعة، ودرجاتهم سامية سبقوا إلى طاعة الله ومرضاته، وسبقوا إلى الاستجابة لرسله وهم الأنبياء وخلص المؤمنين.

﴿ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند ربهم.

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ يتنعمون بأنواع النعم والخير العظيم العميم.

﴿ ثُلَّةٌ﴾ جماعة غير محصورة العدد ﴿مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي أن الأولين السابقين ثلة من الأمم السابقة سواء في الصحابة أو في الأنبياء والمرسلين في كل زمن، وهم الذين سبقوا وعملوا الإيمان والإخلاص، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال الله عز وجل: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ الله الْحُسْنَى ﴾[الحديد:١٠].

﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ يعني من هذه الأمة، ومع ذلك: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله » **متفق عليه عن معاوية** رضي الله عنه.

﴿ عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير في الجنة ﴿ مَوْضُونَةٍ ﴾ متراصة، ومنسوجة بالذهب والجواهر.

﴿ مُتَّكِئِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ﴿عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ يتحدثون ويتناجون فيما كان من شأن الدنيا، كما تقدم في تفسير سورة الطور من قولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾[الطور:٢٨]، وهذا من تمام نعيمهم أن يتحدث الأهل مع بعضهم والأصحاب مع أصحابهم، ومن نعيمهم: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، يتكئون ويجلسون عليها وينظرون إلى ربهم عز وجل.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم والإكرام لهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ غلمان في أعمار متقاربة، ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون لا يلحقهم الهرم والضعف، جميلة أوصافهم حسنة وجوههم.

﴿ بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهي الأقداح المستديرة التي لا عروة فيها ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ وَأَبَارِيقَ﴾ ذات الخراطيم ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ تجري عليهم فيها خمر صافي لذيذ منعش.

﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ لا يلحقهم الصداع، كما هو الحال مع خمر الدنيا حيث يلحقهم الصداع والقيء والرائحة المنتنة السيئة، أما خمر الجنة فهو نعيم صرف عوضه الله لمن زهد في خمر الدنيا، قال النبي ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَاتَ وَهُوَ يَشْرَبُهَا لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حَرَّمَهَا الله عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ»، ﴿ وَلا يُنزِفُونَ ﴾ أي لا ينفد شرابهم وبالفتح لا يلحقهم السكر بحيث تفقد عقولهم: ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾[الصافات:٤٧]، أي: لا سكر فيها إنما هو نعيم وشراب يتلذذون به.

﴿ وَفَاكِهَةٍ ﴾ أي ويطوف الولدان المخلدون عليهم بفاكهة، ﴿ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ فيختارون ويشتهون، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ

﴾[الرحمن:٥٢]، وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على عدم تعين الأكل مما يلي الآكل في الفاكهة .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وذكر الطير لخفة لحمه على البطن وللرغبة فيه، وكثير من طير الجنة يسرح فإذا اشتاه المؤمن كان بين يديه على الحال التي اشتهاها كما قال تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾[الزخرف:٧١].

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ويطوف عليهم أيضًا حور عين زوجات جميلات يتنعمون بهن: فعن أبي موسى ﷺ قال قال النبي ﷺ: «لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أخرجه مسلم (٢٣)، « يُرَى مُخُّ سَاقَيْهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا» متفق عليه .

ومن صفاتهن: ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[الواقعة:٢٣]، أي في جمالهن كأنهن الؤلؤ الرطب، كما قال تعالى: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [الصافات: ٤٩] ، وهذا من فضل الله على المؤمنين.

والسبب في نيلهم هذا الخير العظيم: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزخرف:٧٢]، وقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٩]، وقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[الحاقة:٢٤].

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴾ كلامًا باطلًا، كما قال تعالى: {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} [الغاشية: ١١] أي ولا كلام فيه قبح يلحقهم به الأثم.

﴿ إِلَّا قِيلًا ﴾ أي قولاً ﴿سَلامًا سَلامًا ﴾ يحيي بعضهم بالسلام، فليس فيها هم ولا حزن ولا سب ولا شتم ولا شيء من ذلك كما هو حال الدنيا بل يدعون بالسلامة، بل ويسلم عليهم الملائكة ويسلم عليهم الرب سبحانه وتعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ

سَلَامٌ} [الأحزاب: ٤٤] ويسلمون على أنفسهم فهي دار السلام، كما قال الله عز وجل .

ولما ذكر من شأن السابقين ما ذكر من الخير العميم أراد أن يبين فضل أصحاب اليمين فقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ شأنهم أيضًا: ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ لا شوك فيه، إذ قد قطع ونزع منه شوكه، وثمرها كالقلال وطعمها في اللذة كالشهد الزلال، فضل من الله سبحانه وتعالى ذو الجلال.

﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ الطلح معروف شجرة تكون في الحجاز ولها شوك، وقيل الموز ﴿ مَنْضُودٍ ﴾ أي متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره، قال مسروق: أشجار الجنة عروقها إلى أفنانها ثمر كله .

وذكر الله عز وجل السدر والطلح؛ لأن قريش كان يعجبهم شأن وادي وج الذي في الطائف فكانوا يتعجبون مما فيه من السدر والطلح، فأخبرهم الله بما في الجنة مما هو أفضل من هذا وأكمل.

﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ دائم لا تنسخه الشمس ولا يلحقه حر ولا قر، كما قال الله عز وجل: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } [النساء: ٥٧] وقال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥] وحالها في أحسن حال وأتمه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ» متفق عليه .

﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ مصبوب يجري في غير أخدود دائما يشربونه ويتلذذون به .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ متنوعة في ألوانها كما أنها متنوعة في طعومها، ففي مسند أحمد عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُفُوفِنَا فِي الصَّلَاةِ،

صَلَاةِ الظُّهْرِ، أَوِ الْعَصْرِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، ثُمَّ تَأَخَّرَ فَتَأَخَّرَ النَّاسُ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: شَيْئًا صَنَعْتَهُ فِي الصَّلَاةِ لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ قَالَ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّضْرَةِ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يُنْقِصُونَهُ شَيْئًا، ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَلَمَّا وَجَدْتُ سَفْعَهَا تَأَخَّرْتُ عَنْهَا، وَأَكْثَرُ مَنْ رَأَيْتُ فِيهَا النِّسَاءُ اللَّاتِي إِنْ اؤْتُمِنَّ أَفْشَيْنَ، وَإِنْ يُسْأَلْنَ بَخِلْنَ، وَإِنْ يَسْأَلْنَ أَلْحَفْنَ - قَالَ حُسَيْنٌ: وَإِنْ أُعْطِينَ لَمْ يَشْكُرْنَ - وَرَأَيْتُ فِيهَا لُحَيَّ بْنَ عَمْرٍو يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ مَعْبَدُ بْنُ أَكْثَمَ الْكَعْبِيُّ "، قَالَ مَعْبَدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُخْشَى عَلَيَّ مِنْ شَبَهِهِ وَهُوَ وَالِدٌ؟ فَقَالَ: " لَا، أَنْتَ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ كَافِرٌ ".

﴿ لا مَقْطُوعَةٍ ﴾ فتنتهي بعد أن وجدت، بل دائمة مستمرة ﴿ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ بحيث أنهم يتمنونها فلا يجدونها وهذا من تمام كمال نعيم أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾[ص:٥٤]، فمهما بلغ الإنسان في الدنيا من المال والأولاد وتجري عليهم جميع أنواع النعم الدنيوية إلا أنها قد تنقطع لعدم وجودها أو تمتنع لعدم القدرة على حصولها، وكانت الجنة في الكمال الذي لا يوازيه كمال .

﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ عالية وطيبة ناعمة على سرر وأرائك ، وقد تقدم وصف هذه الفرش في سورة الرحمن عند قول الله عز وجل: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[الرحمن:٥٤] .

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ عائدة إلى قوله: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ* كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أي: أزواجهم من الحور العين اللاتي يضاجعن على هذه الفرش أنشأهن الله عز وجل وخلقهن بأمره: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧]، وزوجاتهن الدنيويات أعادهن الله

أبكار عرباً بعد إن كن عجائز .

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي: لم يجامعن قبل والتمتع بالبكر ألذ من التمتع بالثيبة، وفي الحديث: « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْضِي فِي الْغَدَاةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ» أخرجه أبي يعلى الموصلي.

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ أي: غنجات جميلة في هيئتها، ومتحببة إلى بعلها، ومتزينة في جسمها بخلاف المرأة التي لا تهتم بنفسها فربما يرغب الزوج عنها ولا يطمع فيها، ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أي: قريبات في العمر.

﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ هذا النعيم كله أعده الله عز وجل لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ شأنهم أنهم طائفة كثيرة في الصدر الأول.

﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ وطائفة كثيرة في الزمن المتأخر، وبما تقدم يظهر أن جمهور أهل الجنة من أصحاب اليمين، والله أعلم .

فلما ذكر المؤمنين المقربين ثم من لحقهم من المؤمنين والموحدين ثلث بذكر أصحاب الشمال المعرضين عن دين رب العالمين الواقعين في الشرك والتنديد ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾.

﴿ فِي سَمُومٍ﴾ ريح حارة في جهنم تلفح وجوههم؛ فيلحقهم بسببها الأذى الشديد ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء حار .

﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ دخان شديد السواد، وقيل اليحموم من أسماء النار، كما أخبر الله عز وجل في سورة المرسلات بقوله: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهبِ ﴾[المرسلات:٣٠-٣١]، لا يظلون به ولا يغنيهم من اللهب وإنما تشتد حرارتهم به.

﴿ لا بَارِدٍ ﴾ المنزلة فيتنعمون ببرودته، ﴿ وَلا كَرِيمٍ ﴾ المنظر أي لا خير فيه ولا بركة لهم فيه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ متنعمين في الدنيا حيث كانوا ينعمون، ويتكبرون ويتبخترون.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يقيمون، وفي حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: " ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ الله لَكُمْ ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ " أخرجه أحمد، ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ الذنب العظيم: وهو الشرك بالله عز وجل فهو أكبر ذنب عُصي الله به، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣]، وبالحديث: أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» متفق عليه، وهذا الذنب من شدة عظمته لا يغفره الله: ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨]، فانوا يدعون إلى عبادة الملك العلام فيستمرون على عبادة الأوثان، بينما أهل الإيمان وإن وقع منهم شيء لا يصرون عليه، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥] .

﴿ وَكَانُوا﴾ أي الكفار ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بلسان الحال والمقال تكذيباً بالبعث: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني: يستبعدون ذلك.

﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ أي يبعثون كما نبعث أيضًا، وهذه دعواهم العليلة، كما قال تعالى: {بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}

[المؤمنون: ٨١ - ٨٣] .

فأخبرهم الله بأن هذا الأمر كائن.

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴾ منكم يا معاشر بني الإنسان.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ﴾ من إرجاء الأرض الواسعة ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يوم القيامة، فوقته معلوم وسيكون مشهودًا من جميع المخلوقين والمكلفين، قال الله عز وجل: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣] والمعنى: والله إنكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فالام للقسم .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ المنحرفون عن دين رب العالمين، ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ للوحي المبين.

﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهذه الشجرة من أشد أشجار النار عذابًا ومنظرًا، كما قال تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾، يأكلون منها فإذا ما أكلوا منها احتاجوا إلى الماء فيشار لهم إلى الحميم فيزدادون عذاب إلى عذاب .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ تملؤون بطونكم لشرههم بها ولتسخير الله لهم لها.

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ الماء الذي هو كالرصاص المذاب والحال كما قال تعالى: ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٥-٤٦].

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ لشدة عطشهم يشربون الحميم كشرب الإبل العطاش للماء حين تجده، ومع ذلك يعذبون بهذا العذاب الأليم نسأل الله السلام.

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ﴾ منزلهم أي في الجحيم وحالهم ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء والحساب

يوم القيامة: ﴿ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾[الليل:١٤-١٦].

المنكرين للبعث والنشور: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ من العدم، ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ فهلا تؤمنون بذلك وتقرون به.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿مَا تُمْنُونَ ﴾ ما يكون منكم من مني الرجال والنساء: وهو أصل الخلقة في التكاثر.

﴿ أَأَنْتُمْ﴾ يا معاشر من أعرضتم ﴿تَخْلُقُونَهُ ﴾ توجدونه من العدم، ﴿ أَمْ نَحْنُ﴾ على التعظيم لنفسه المقدسة ﴿الْخَالِقُونَ ﴾ والجواب: أن الله عز وجل هو الخالق.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ صرفنا ﴿بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ الأجل، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي: بمعجزين عن قبض أرواحكم، فالله لا يعجزه شيء لكمال قدرته وعموم قوته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤].

﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ﴾ نغير خلقكم يوم القيامة ﴿أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: من الصفات والأولى .

ثم قال مبينًا لهم أن البعث عليه يسير: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى ﴾ علمتم أن الله أوجدكم وأنشأكم من العدم، ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تتذكرون وتستجيبون؛ لكن الواقع أنهم لم يستفيدوا من وحي الله، وقد أنزل الله عز وجل آيات كثيرة تبين عموم قدرته، والنشأ والمعاد ومع ذلك ما ازادوا إلا عتوًا ونفورًا، كقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } [الروم: ٢٧]، { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: ٧٧] .

ثم قال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني، ﴿ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ من الأرض للزروع.

﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه؟ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ بل أن الله هو الذي ينبت، وإلا كم من إنسان يزرع ولا ينبت، وربما تزرع ويمنع الله المطر ولا ينبت.

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ ﴾ بعد أن قال قام على ساقه،{حطاماً} يابساً ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ بقيتم تتكلمون فيما بينكم، تتعجبون، والصواب: أنهم يتنادمون فيما بينهم في السبب الذي لحقهم والضرر الذي نزل بهم فيقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ نزلت بنا الغرامة ولحقنا الفلس.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي لا حظ لنا من رزق الله عز وجل إذ منعنا ذلك.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ﴾ أخبروني ﴿ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ العذب الزلال الذي ينزله الله من السحاب، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٢١] .

﴿ أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾يقولون بل نحن المنزلون .

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ مالحًا لا يستساغ شربًا ولا يصلح لغسل ولا لطبخ وغير ذلك، ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون الله عز وجل على عظيم نعمه ومزيد مننه: أن مَنَّ عليكم بالماء العذب الزلال تشربونه بغير تنقية ودون مشقة وتستسيغون شربه، وتستفيدون منه في جميع شؤونكم.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أيضًا أخبروني عن هذه النار التي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها، والتي منّ الله بها عليكم توقدونها في أسفاركم وفي

حضركم فتستفيدون من حرها في إنضاج طعامكم وتستفيدون من ضوئها في تحديد مساركم.

﴿ أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ وأيضًا من عجيب شأنها: أن الله جعل من الشجر الأخضر كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[يس:٨٠]، ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ يقول بل نحن الذين أنشأنها والمعنى أن الله هو الذي أنشأها وخلقها وجهزها.

﴿ نَحْنُ﴾ أي لله معظما لنفسه ﴿جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي: هذه النار جعل الله فيها تذكرة؛ لأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، فإذا كان أحدهم لا يقوى على هذه النار التي هي جزء من تسعة وستين جزءً من نار جهنم فكيف بالنار الشديدة،﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قيل: للمسافرين، والصحيح أنها متاع للحاضر والباد وللمسافر وغيره، كلهم يستفيد منها.

﴿ فَسَبِّحْ﴾ يا محمد وهو أمر للأمة ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ على هذه النعم العظيمة والمنن الجزيلة الدالة على عظيم قدرته وعلى تنزهه عن جميع النقائص والعيوب، وفي الحديث: " إِنَّ الله اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ الله، كَتَبَ الله لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: الله أَكْبَرُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، أَوْ حُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً " أخرجه أحمد .

﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ أي: أقسم بمواقع النجوم، وقيل: لا أقسم بمعنى: نفي القسم، والصحيح الأول، ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ وهي الأنواء والمطالع.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ قسم من الله سبحانه وتعالى الصادق في قيله، ولو لم يقسم لوجب قبول خبره فكيف وقد أضاف سبحانه وتعالى القسم المؤكدة لخبره وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لعبده أن يقسم بشيء من مخلوقاته قال رسول الله: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ» **أخرجه الترمذي عن ابن عمر** رضي الله عنه.

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: هذا الوحي الذي أنزله على محمد ﷺ، يتلوه عليكم في نواديكم ويدعوكم به إلى ربكم، مقروء كريم كثيرة صفاته الجميلة العظيمة، سواء في قصصه أو في نظمه أو في أحكامه، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة مثله.

﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ اللوح المحفوظ، كتب الله عز وجل القرآن حيث كتب علمه مما كان وما يكون إلى قيام الساعة، ولا يلزم من هذا أن الله عز وجل تكلم به حال الكتابة.

﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة، والعجيب أن هذه الآية استدل بها كثير من الفقهاء على أنه لا يجوز مس المصحف إلا للمتوضئ وليس كذلك (فإن المؤمن لا ينجس) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، فيجوز له أن يقرأ القرآن سواء كان على طهارة أو على حدث، فقد قال النبي ﷺ لعائشة: « حَيضَتَكِ ليستْ بيدِكِ».

وإنما المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ: ﴿ لا يَمَسُّهُ﴾ يلمسه ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة كما هو تفسير ابن عباس وغير واحد من أهل العلم، ولو أراد به المتوضئين لقال: لا يسمه إلا المتطهرون، فظهر من هذا أن المراد بالكتاب المكنون: اللوح المحفوظ لا القرآن، ويؤيد ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: القرآن، فهو غير الكتاب المكنون، والقرآن معلوم أنه ربما مسه الكافر؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن

السفر بالقرآن إلى أرض العدو» أخرجاه عن ابن عمر رضي الله عنه.

﴿ تَنزِيلٌ﴾ أي القرآن نزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حيث تكلم به حقيقةً، ونزل به جبريل الروح الأمين إلى محمد الصادق الأمين، وهذا أمر مجمع عليه بين أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أفبالقرآن والوحي المبين تكذبون وتختلفون وتشكون.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالقرآن والوحي المبين، والمعنى أن ربنا عز وجل أنزل إليكم الرزق أي: المطر من السحاب ثم تقولون: صدق نوء كذا، وهذا بنوء كذا، ففي حديث ابن عباس عند مسلم: أن النبي ﷺ قال: قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا أَوْ نَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»، ثم تلى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تضيفون النعمة إلى غير الله سبحانه وتعالى، كما يقولون: سهيل والثريا والشعرى ونحو ذلك.

ثم قال الله عز وجل مخبرًا عن حال الإنسان حين الاحتضار: ﴿ فَلَوْلا ﴾ فهلا، ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ النفس وشارفت على الخروج وأصبحتم في سياقة الموت.

﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ إلى الميت بين أيديكم لا تستطيعون تقديمًا ولا تأخيرًا ولا عونًا ولا شيء من ذلك.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي ملك الموت وأعوانه، حيث يكون ملك الموت عند رأسه ويأمر روحه أن تخرج كما تخرج القطرة من فِيِّ السقاء﴿ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ ﴾ كما في حديث البراء الذي أخرجه أحمد بطوله: "الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ

صَالِحًا، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا الله عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ".

﴿ فَلَوْلا ﴾ فهلا، ﴿ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ يعني: يقول الله عز وجل لهم: إن كنتم غير مذنبين وغير محاسبين ومجزيين .

﴿ تَرْجِعُونَهَا﴾ أي تردون النفس إلى الجسد الميت بعد هذا الحال ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولكن الواقع أنهم عاجزون عن ذلك؛ وهذا بيان لقدرة الله النافذة وقوته التي لا يعجزه شيء، فإن كنتم يا معاشر الكافرين تزعمون أنكم على شيء فردوا هذه الروح إلى جسدها، وأنتم حولها وهو يحتضر بين أيديكم، ربما كان أبًا أو أخًا أو زوجًا أو قريب أو بعيد فأين رحمتكم .

ثم أخبر الله عز وجل عن حال النفس بعد خروجها من الإنسان، فإنها تخرج ويتبعها البصر، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ» **أخرجه مسلم عن أم سلمة**، أمر بإغلاق البصر وذلك حين يتبع بصره نفسه؛ ولذلك أي ميت تجد

بصره مفتوحًا بعد موته، ويعرف الناس موته .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: من السابقين المسارعين إلى مرضات رب العالمين والموحدين الطائعين له في سرائهم وضرائهم.

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يبشر من الله ومن ملائكة الله بما يروح عليه من الخير ، ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ روح: الرائحة الطيبة، ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ يتنعم فيها، واستدل ابن رجب رحمه الله وغيره بهذه الآيات على إثبات عذاب القبر ونعيمه، خلاف ما ذهب إليه الرافضة والمعتزلة والخوارج من إنكار القبر وما فيه من العذاب والنعيم، وقد تقدم حديث البراء وما فيه من الوصف لهذا الحال .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وهم المرتبة الثانية من أهل التوحيد.

﴿ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك، كما قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ أي المحتضر ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ من الكافرين والمنافقين المعرضين عن دين رب العالمين.

﴿ فَنُزُلٌ﴾ أي الضيافة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم .

﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي تحيط به النار من جميع جهاته فتصليه وتشويه.

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ هذا الخبر الذي تقدم ذكره هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ نزه ربك عن كل نقص وعيب سبحانه وتعالى.

فهذه سورة عظيمة وتعتبر من السور الطوال في عدد آيها إذ أنها تبلغ ستة وتسعين

آية مع قصرها؛ ولكن فيها من العبر والوعد والوعيد ما يستبشر به المؤمنون وتنخلع به قلوب المخالفين لدين رب العالمين، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

مدنية.

﴿ سَبَّحَ لله﴾ أي: نزه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وأثبت له جميع المحامد بلسان الحال والمقال أو بأحدهما، ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي الذين في السموات من الملائكة، ﴿ وَالأَرْضِ ﴾ من جميع المخلوقين، وقد يكون هذا التسبيح بلسان الحال، وهذا كقوله: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤] ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب، وقد خضع له كل شيء ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره فأفعال على مقتضى علمه وحكمته.

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ له الملك المطلق لما في السموات والأرض، ﴿ يُحْيِي ﴾ وجدوا من العدم ويهيء لهم سبل الحياة، ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ يقبض الأرواح متى شاء، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي ما شاء كان وإن لم يشأ لم يكن فلا يعجزه شيء لكمال قوته وقدرته وعلمه، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤].

﴿ هُوَ الأَوَّلُ ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿ وَالآخِرُ ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ الذي ليس دوه شيء، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾[سبأ:٣]، فهو سبحانه وتعالى له الأولية المطلقة؛ ومن أسمائه الأول ولا يسمى بالقديم؛ فالقديم قد يسبق بغيره قال عز وجل: ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[يس:٣٩].

﴿ وَالآخِرُ ﴾: الذي ليس بعده شيء، وقد دل اسم الأول والآخر على الإحاطة الزمانية، كما دل اسم الظاهر والباطن على الإحاطة المكانية، فهو تعالى محيط بكل شيء وفوقه،﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ فالعال فيدل على صفة العلو الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]، وقال: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } [الأعلى: ١]، وعن معاوية بن الحكم السلمي تقال قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ الله؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» أخرجه مسلم .

﴿ الْبَاطِنُ ﴾ الذي ليس دونه شيء فهو باطن وهو على عرشه بائن من خلقه، وقد فصل النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة المتقابلة بالسلب كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اللهمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» **أخرجه مسلم**، والأصل أن الأسماء تفسر بالإثبات إلا أن المعنى في هذا التفسير: أن لله الأولية المطلقة فلم يسبقه.

وأما أبدية الجنة والنار فهي بتأبيد الله عز وجل لها فهو الآخر سبحانه وتعالى، وهذه الآية من أشهر الآيات الدالة على مسألة العلو وإثبات الصفات.

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كما قال: {لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨] رد على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الجزئيات، فهو بكل شيء في هذا العالم العلوي والسفلي عليم، كما قال {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩] .

﴿ هُوَ﴾ أي الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ العظيمة ﴿وَالأَرْضَ ﴾ الواسعة، ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ خلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، وخلق السموات في يومين فهذه ستة أيام، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾[فصلت:١٠]، ولو أراد خلق السموات والأرض بقوله: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، لكانتا؛ لكن له الحكمة البالغة والحجة الدامغة في ربط الأمور بمسبباتها، واختلف في هذه الأيام إلى أقوال والذي يهمنا أن نؤمن بما دل عليه القرآن.

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ أي علا وارتفع وصعد، وقيل: استقر، قال ابن القيم في نونيته (ص: ٨٧):

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ار ... تفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو أربع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

وقد فسر أهل التعطيل من الْجَهْمِيَّة وَمَنْ وَافَقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ مَجَازٌ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي مَجَازِهِ، وَالْمَشْهُورُ عَنْهُمْ مَا حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ وَبَدَّعَهُمْ وَضَلَّلَهُمْ فِيهِ بِمَعْنَى اسْتَوْلَى، أَيْ مَلَكَ وَقَهَرَ وهذا تفسير باطل قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٣٧٢): أَنَّ لَفْظَ الِاسْتِوَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِي خَاطَبَنَا اللهُ تَعَالَى بِلُغَتِهِمْ وَأَنْزَلَ بِهَا كَلَامَهُ نَوْعَانِ: مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ، فَالْمُطْلَقُ مَا لَمْ يُوصَلْ مَعْنَاهُ بِحَرْفٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: ١٤] وَهَذَا مَعْنَاهُ كَمُلَ

وَتَمَّ، يُقَالُ: اسْتَوَى النَّبَاتُ وَاسْتَوَى الطَّعَامُ، وَأَمَّا الْمُقَيَّدُ فَثَلَاثَةُ أَضْرَابٍ: أَحَدُهَا: مُقَيَّدٌ بِإِلَى كَقَوْلِهِ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: ٢٩] وَاسْتَوَى فُلَانٌ إِلَى السَّطْحِ وَإِلَى الْغُرْفَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمُعَدَّى بِإِلَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ: فِي الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: ٢٩] وَالثَّانِي فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١] وَهَذَا بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَنَذْكُرُ أَلْفَاظَهُمْ بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله.

وَالثَّانِي: مُقَيَّدٌ بِعَلَى كَقَوْلِهِ: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [هود: ٤٤] وَقَوْلِهِ: {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح: ٢٩] وَهَذَا أَيْضًا مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ وَالِاعْتِدَالُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ، الثَّالِثُ: الْمُقْرُونُ بِوَاوِ (مَعَ) الَّتِي تُعَدِّي الْفِعْلَ إِلَى الْمَفْعُولِ مَعَهُ، نَحْوَ: اسْتَوَى الْمَاءُ وَالْخَشَبَةَ بِمَعْنَى سَاوَاهَا، وَهَذِهِ مَعَانِي الِاسْتِوَاءِ الْمَعْقُولَةِ فِي كَلَامِهِمْ، لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى اسْتَوْلَى الْبَتَّةَ، وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ الَّذِينَ يُعْتَمَدُ قَوْلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَهُ مُتَأَخِّرُو النُّحَاةِ مِمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، يُوَضِّحُهُ:

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقُولُوهُ نَقْلًا، فَإِنَّهُ مُجَاهَرَةٌ بِالْكَذِبِ وَإِنَّمَا قَالُوهُ اسْتِنْبَاطًا وَحَمْلًا مِنْهُمْ لِلَفْظَةِ اسْتَوَى عَلَى اسْتَوْلَى، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

وَهَذَا الْبَيْتُ لَيْسَ مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

ثم: للتعقيب فاستواؤه على العرش كان بعد خلق السموات والأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[هود:٧]، والعرش: هو السرير الذي يكون عليه الملك وهو أكبر المخلوقات وأعلى المخلوقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: « فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى

الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» أخرجه البخاري، وجاء قوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[التوبة:١٢٩].

استوى على العرش ، مع أن العرش وحملته بحاجة إلى الله، ﴿ يَعْلَمُ ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ ما يدخل فيها، ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات والماء ونحوه، ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من المطر وغيره، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد كعروج الملائكة بأعمال العباد، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ العَصْرِ وَصَلاَةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ " متفق عليه .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ بعلمه وقدرته وسلطانه وبصره وإحاطته، وهذه الآية دالة على إثبات المعية العامة معية الله عز وجل لجميع المخلوقات، ولا تعارض بين هذه الآية وآيات أدلة العلو فهو معنا وهو على عرشه، إذ أن كلمة: معَ إنما تدل على معنى مطلق مصاحبة فيقول أحدهم: ما زلت أسير والقمر معي، والقمر في السماء وهو في الأرض، فعلى المسلم أن يثبت ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ومعية الله تنقسم إلى قسمين: معية عامة: وهي معية العلم والسلطان والقهر والبصر، ومعية خاصة: وهي مقتضية للحفظ والنصر والتأييد: ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه:٤٦]، فقال: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، وقد جاءت المعية الخاصة مفيدة بوصف شخص على ما تقدم من الأدلة .

﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويرى أفعالكم بعينين حقيقيتين: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:١١].

ومن شأنه تعالى: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الملك المطلق، ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ في تصريفها وشأن العباد في رجوعهم يوم القيامة إلى الله فيجازيهم على أعمالهم كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١] .

ومن شأنه أنه تعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يداخل بعضها في بعض، ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ وذلك عند قدوم الليل ودخول النهار ترى أن هذا يدخل في هذا بدون أن يرى الإنسان تغيرًا ملحوظًا وإنما هو آية من آيات الله العظيمات: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت:٣٧].

﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عليم بأفعالكم وأقوالكم واعتقاداتكم، وإنما ذكر العلم بذات الصدور؛ لبيان أنه أعلم بغيرها: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[التغابن:١٨]، والمعنى: أنه إذا كان عليمًا بذات الصدور فهو أعلم بما يظهر من تصرفات الناس القولية أو الفعلية، وكل هذه الآيات فيها ترغيب وترهيب، ترغيب في طاعة الله عز وجل إذ أنه المطلق المحيط بعبده المجازي له، وفيها ترهيب من أن الله عز وجل مع عباده عالم بأفعالهم وأقوالهم فليكن العبد على بعد ونأي ونهي مما يؤدي إلى مغضبات الله، نسأل الله عز وجل السلامة والعافية.

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ هذا أمر من الله عز وجل بالاستمرار على الإيمان والثبات

عليه، كقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦] ﴿ آمِنُوا بِالله ﴾ ربًا، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ نبيًا مرسلًا إليكم تطيعونه بأمر الله وتتأسون به في طاعة الله، ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ تصدقوا وزكوا، ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ من الأموال بل ومن العلم والجاه وغير ذلك، ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الصحابة ومن سار على سيرهم ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله والمعنى أن الذين آمنوا وانقادوا لأمر الله عز وجل ظاهرًا وباطنًا وازدادوا مع ذلك إنفاقًا في سبيل الله، ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ جزاء وثواب، ﴿ كَبِيرٌ ﴾ عظيم وسع.

ثم قال محضضًا لهم على الإيمان بالله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان، ﴿ وَالرَّسُولُ﴾ بين أظهركم ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى ذلك ويبين لكم ما شرعه الله لكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أي يأمركم بذلك ويحثكم عليه ويرغبكم فيه، ﴿ و وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ في الطاعة بالمعروف، كما قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور} [المائدة: ٧] ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقًا ظاهرًا وباطنًا، فعليكم الاستجابة لله عز وجل ظاهرًا وباطنًا.

﴿ هُوَ ﴾ الله، ﴿ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وهو القرآن، والسبب في ذلك: ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أي: ظلمات الشرك، والبدع الجهل ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور التوحيد والعلم، والسنة ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث أرسل الرسل وأنزل الكتب.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله ﴾ أي وما يمنعكم من الانفاق في سبيل الله عز

وجل والبذل في مرضات الله عز وجل، وقوله: ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ كلمة عامة؛ ويدخل فيها ابتداءً الانفاق في الجهاد، ﴿ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يخلف على من أنفق في سبيله فوهبكم ما وهبكم من الأموال ليبتليكم فيها وإلا فهو غني حميد، ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ قبل الحديبية، فمن أنفق قبل الحديبية نفقته أفضل ممن أنفق بعد الحديبية، ومن آمن قبل الحديبية فهو من السابقين أفضل ممن آمن بعد الحديبية وهي الفتح حقًا؛ لأن الله عز وجل أنزل على نبيه بعد الحديبية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾[الفتح:١]، والجمهور على أنه فتح مكة والصحيح ما تقدم، فعن سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا»، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ الله أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» أخرجه البخاري .

﴿ وَقَاتَلَ ﴾ وجاهد في سبيل، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أنه وقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فقال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» أخرجه مسلم، مع أن كلهم أصحابه.

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ منزلة ومكانة ﴿مِنَ الَّذِينَ

﴿أَنْفَقُوا﴾ بذلوا في أوجه الخير ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ الحديبية ﴿وَقَاتَلُوا ﴾ والسبب في كونهم أعظم أجرًا ومثوبة لأن المسلمين كانوا في قلة وضعف والجزاء على قدر النصب والتعب، ﴿ وَكُلًّا ﴾ ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وعد الله ﴿ الْحُسْنَى ﴾ الجنة، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع لا تخفى عليه خافية.

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أمر من الله عز وجل بالإنفاق في سبيله وقيل النفقة على العيال والصحيح العموم، فهو الغني الحميد، وزعم اليهود ومن إليهم من المنافقين قالوا: الله يقترض منا؟ وإنما هو اختبار وابتلاء، فمن أنفق في سبيل الله جازاه الله بالمضاعفة، فعن بريدة مرفوعاً : «مَنَ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةً»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةً؟ فَقَالَ: " بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ مَا لَمْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَإِنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ الْحِلِّ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةً» أخرجه مسلم .

﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ لا منة فيه ولا تعيير، ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ أي: الحسنة بعشر أمثالها كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ واسع مبارك، وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ يقول الله: «وَأَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ» متفق عليه .

ثم يخبر الله عن حال المؤمنين يوم القيامة فقال:﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أي على قدر أعمالهم: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ حين يصعدون على الصراط، ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل كتبهم، كما قال تعالى: { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا{

[الإسراء: ٧١] ، ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي لكم البشارة ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ جمع جنة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ تجري فيها الأنهار، إذ أن أنهار الجنة ليست لها أخاديد ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إذ أنهم حصلوا على المطلوب وأمنوا من المرهوب، فلا فوز بعده، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

ويكون الناس ثلاثة أقسام: مؤمن، وكافر، ومنافق، فالمؤمن للجنة، والكافر للنار، والمنافق يعطيه الله عز وجل نورًا على ما كان يظهر ثم يسلب منه هذا النور فيكون في النار، ولذلك يقول: ﴿ يوم يقول الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي من أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ﴿ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ كذلك، ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وذلك على الصراط، ﴿ انْظُرُونَا ﴾ انتظرونا؛ لأنها عديت بنفسها فهي بمعنى الانتظار، أما إذا عديت بإلى فهي بمعنى النظر كما قال تعالى: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة: ٢٣]، ﴿ نَقْتَبِسْ﴾ نلتمس ﴿مِنْ نُورِكُمْ ﴾ من نوركم فنستفيد منه ونمشي عليه، ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ إلى الخلف، ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ واطلبوا نوراً من ربكم، وذلك أن ظلمات الكفر والنفاق يلحقهم إلى آخره، كما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠] ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴾ أي بعد انصرافهم وعودتهم لأخذ النور، وهذا السور قيل حائط بين الجنة والنار ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: وبعد أن يلحقهم الهلاك .

ثم عند ذلك: ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ويطلبون منهم العون والنجدة، ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ في الدنيا، ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي: كنتم معنا ظاهرًا، ﴿

وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق والكفر والشرك، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالنبي ﷺ وأصحابه الدوائر حتى تقع لهم الهلكة، وقيل أخرتم التوبة ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ في وحي الله وتشككتم، بالبعث والنشور ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ التي كنتم تتمنونها من زوال دين الإسلام وانتصار دين أهل الأوثان، أو أن الله سيغفر لكم ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله ﴾ وهو الموت والساعة، ﴿ وَغَرَّكُمْ بِالله الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان زين لكم ما أنتم فيه من الباطل والضلال: ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٦].

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أي القيامة، ﴿ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ يا معاشر المنافقين ولو افتدى بمن في الأرض جميعًا كما قال الله عز وجل: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[المعارج:١١-١٤]، فلا فداء في ذلك اليوم، ولا سلامة إلا من سلمه الله وكان قد تقرب إلى الله بالتوحيد والبراءة من الشرك والتنديد، وهو في حديث أنس: قال النبي ﷺ: «يقول الله للعبد يوم القيامة: لو كانت لك الدنيا بما فيها أكنت مفتديًا بها قال: نعم يا رب، قال: سألتك أيسر من ذلك وأنت في صلب أبيك فأبيت إلا الشرك» أخرجه مسلم .

﴿ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني المشركين تؤخذ منهم فدية، ولا تنفعهم شفاعة، كما قال الله عز وجل: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨]، ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هي مصيركم تصلونها وتأكلون من زقومها وتشربون من حميمها، ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ هي مأواكم وملجأوكم، وأولى بكم من منزل جزاء على كفركم وريبكم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس المكان الذي تصيرون إليه وتدخلون فيه.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ نزلت في المؤمنين، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يكن بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله عز وجل بهذه الآية إلا أربع سنوات.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: ألم يكن لهم أن يتعجلوا ما يقع في قلوبهم من الخشوع والخوف والوجول من ذكر الله عز وجل، ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ لأن القلب إذا خشع خشعت الجوارح، وإذا سكن سكنت الجوارح، وإذا صلح صلحت الجوارح، وإذا اطمأن اطمأنت الجوارح: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، ﴿ لِذِكْرِ اللهِ ﴾ للقرآن، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ من الوحي الذي أوحاه لله إلى محمد ﷺ، ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قبل ﴾ فيه النهي عن التشبه بأهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم:٣١-٣٢]، وقد حذر الله عز وجل من التشبه بهم في مواطن، ، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فقست قلوبهم ﴾ طال عليهم الوقت وبعدوا عن الوحي فقست قلوبهم؛ بسبب رغبتهم في الدنيا وإعراضهم وجهلهم، أما الجهل فكان متحقق في النصارى، وأما الإعراض فكان تحققه في اليهود، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ معرضون عن طاعة الله مشركون منددون.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني: اعلموا علم تدبر وتعقل بمعاني تلك الآيات، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الذي يحيي الأرض بعد موتها؛ لكن طلب

منهم علماً يزيدهم إيمانًا وهدىً وتقى، فيحييها الله عز وجل بالمطر، كذلك يحيي القلوب الميتة بالتوحيد والعلم، ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ وضحنا وجلينا الآيات الشرعية والآيات الكونية القدرية، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بما أوحاه الله عزوجل إلى نبيه ورسوله ﷺ .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ ﴾ أي: المتصدقين من المؤمنين وهم المؤدون للزكاة والباذلون للأموال في أوجه الخير، ﴿ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أي: من المسلمات، وقد ذكرهم الله أيضًا في سورة الأحزاب، وأخبر أنه أعد لهم مغفرةً وأجرًا كبيرًا، ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ في الإنفاق في سبيله رجاء ثوابه، والقرض الحسن: هو الذي لا يكون فيه منٌّ ولا عجب ولا تطاول، ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الأجر، كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أجر عظيم ينتفعون به في الدنيا والآخرة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» أخرجه مسلم، وقد كرر الله عز وجل في هذه السورة الحض على الإنفاق وما فيه من الأجر العظيم في موطنين فدل على علو منزلته وعظيم نفعه.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ ﴾ أي: ربًا، ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ واتبعوا الرسول محمد ﷺ، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ وهي مرتبة علية بعد الأنبياء قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ ﴾[النساء:٦٩-٧٠].

﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ نالتهم الشهادة بسبب جهادهم في سبيل الله وابتغائهم لمرضاته، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وهم أيضًا عند ربهم لهم ثواب عظيم وهو الأجر الجزيل، ﴿وَنُورُهُمْ ﴾ أي نور الإيمان في قلوبهم في الدنيا، ونور الآخرة يستضيئون به على الصراط، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أعرضوا عن دين الله، واستكبروا عن اتباع رسول الله ﷺ، وكذبوا القرآن وردوه، ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ يخلدون فيها فتحرقهمويلقون فيها سوء العذاب وبئس المصير .

ثم حذر الله عز وجل من الدنيا؛ لأنها من أعظم أسباب فتنة الإنسان: ﴿ اعْلَمُوا﴾ يا معاشر المسلمين ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ التي تقتتلون من أجلها وتتهاجرون وتتقاطعون وتتدابرون من أجل الحرص عليها، ويؤمل أحدكم البقاء عليها، ﴿ لَعِبٌ ﴾ دار لعب لسرعة زوالها، ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ يتلهى فيها، وربما كان اللعب فيها واللهو بالحرام فيقع في الإثم والهوان، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ زينها الله بالزراعات، الأبناء والزوجات، وزينها الله عز وجل بكثير من العطايا والهبات كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[آل عمران:١٤]، وقال: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الكهف:٤٦]، ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أي أن التكاثر فيها من أسباب تفاخر الناس إلا ما رحم ربي؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنْ الْجُعَلِ »، والجعل: هو الذي يدهده الخراء بجسمه، فكذلك الذي يفتخر بأبيه وأمه ونسبه وهو بعيد عن دين الله عز وجل، وكذلك من يفتخر بآبائه الذين كانوا في الكفر نعوذ بالله من الخذلان، فإن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فأعضُّوه وَلَا تكنوه»، أي: يقال له: عض هن

أبيك، والهن: هو العضو الذي يستقبح ذكره، الذي أمرنا الله بالتواضع، وترك التفاخر لا بالأحساب ولا بالأنساب، وإنما الفخر حقًا بالدخول في الإسلام صدقًا والمتابعة للنبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، مع أن هذا الأمر لا يدعو إلى التعالي على الناس والاستطالة على الخلق؛ بل الواجب التواضع: «إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» **أخرجه مسلم عن عياض بن حمار** رضي الله عنه.

﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ يقول ومن شأن الدنيا أيضا أن يقع فيها المكاثرة والتفاخر في الأموال والأولاد، والحال أن الدنيا: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ مطر ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ والمراد بالكفار: الزراع سمي بذلك لأنه يكفر الحب ويغطيه، فالكفر: هو التغطية، ﴿نَبَاتُهُ ﴾ زرعه، فحال الناس مع الدنيا كمثل المطر الغزير الذي أنبت الكلأ والعشب فأعجب المزارعين ما فيها من النبات والخير العميم، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يكبر، ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ يقارب اليباس والجذاذ، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ هشيما مطما، والحال كما قال تعالى: ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾[يونس:٢٤]، فكم من مزرعة إذا أتيبت على أرجائها تجدها نضرة بيهية جميلة فإذا ما ذهب ثمرها وإذا بها بيضاء لا مكان لظل ولا طعام أو شراب فيها، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ موجع للكافرين والمنافقين ممن آثروا الدنيا على الآخرة، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرِضْوَانٌ ﴾ للمؤمنين، وفيه إثبات صفة الرضى لله عزوجل، وهو أعلى نعيم الجنة، ف عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ

عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " أخرجه مسلم ، وقبل ذلك قول الله عز وجل: {وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٧٢] .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ هذه الحياة التي قد تطول إلى الستين سبعين ثمانين مائة سنة، ويموت الأبناء ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ زائل فاني، ربما غرت الناس وألهتهم عن آخرتهم يغتر به أصحاب العقول الضعيفة، والهمم الهابطة .

فلما ذكر الدنيا وحال أهلها معها، وحال الناس في الآخرة حظ ورغب في المسارعة إليها فقال: ﴿ سَابِقُوا ﴾ أي سابقوا، كقوله: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[البقرة:١٤٨]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾[آل عمران:١٣٣]، {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] .

﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ بستر عيوبكم وغفر ذنوبكم ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تعالى الرحيم بكم والمربي لكم، ﴿ وَجَنَّةٍ ﴾ أي: جنات، ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ فإذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فكيف بطولها؟ ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ جهزت، ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وذلك أن الجنة «لا يدخلها إلا نفس مسلمة» «ولا يدخلها إلا المؤمنون»، ﴿ ذَلِكَ﴾ أي نعيم الجنة ﴿فَضْلُ اللهِ ﴾ الذي أكرم به المؤمنين، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من الموحدين، ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء:٣٢]، فعليك أن تكون متضرعًا سائلًا لله عز وجل من فضله؛ وفي دعاء الخروج من المسجد: " إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ " أخرجه مسلم عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ ﷺ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا

سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا» أخرجه مسلم، فهكذا أخي المسلم سل الله من فضله في كل شيء: سله علمًا، ومالًا، وزوجةً، وأولادًا، ورزقًا فهو ذو الفضل العظيم، يمن على من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» .

﴿ مَا أَصَابَ﴾ الناس في هذه الدنيا ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ من قحط أو قلة النبات والثمار ﴿وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ أي أن ما يقع على الإنسان من خير أو شر في هذه الدنيا فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، فإن الله لما خلق القلم قال: « اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ» **أخرجه أبو داود عن عبادة** رضي الله عنه، وهذه الآية دليل على الإيمان بالقدر، والدليل على أن الخير والشر من الله قوله تعالى: ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢]، ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات:٩٦]، وفي حديث

حُذَيْفَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: «إِنَّ الله خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ، إِنَّ الله خَلَقَ صَانِعَ الْخَزَمِ وَصَنْعَتَهُ» أخرجه البخاري في الأدب المفرد .

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، فدلت هذه الآية على مرتبتين من مراتب القدر: المرتبة الأولى: الكتابة، والثانية: الخلق، ويلزم من الكتابة العلم، فإن الله عز وجل أمر القلم أن يكتب علمه إلى قيام الساعة، وكونها وقعت يلزم منه المشيئة، وهذه هي مراتب القدر الأربع، وقد قلت في المنظومة الزعكرية في مهمات العقيدة والأخلاق الإسلامية:

مراتب الأقدار فيها أربعُ.. قد حققوها قبل ذا فلتسمعوا

علم كتابة له تعالى.. مشيئة خلق بذا قد قالا

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ أي أن علمه بالأشياء وكتابتها يسيرة لا يعجزه شيء ولا يكرثه شيء.

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أعلمكم وأخبركم بذلك حتى لا يقع منكم الأسى على ما فاتكم من المصالح الدنيوية بل والدينية إلا أن الإنسان يستغفر من ذنبه ويتوب ويأوب، وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ. أخرجه الترمذي

﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ من الخير، يعني: فرح البطر والأشر، الأشرة شر، وأما

الفرح الشرعي: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨]، ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في نفسه ﴿فَخُورٍ ﴾ على غيره والمعنى: أنه يحب المتواضعين كما تقدم حديث عياض بن حمار ﷺ: ««إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا» أخرجه مسلم، ولكنه سبحانه لا يحب المتكبرين المختالين في مشيتهم وفي أقوالهم وفي جميع شأنهم، وفي الآية إثبات صفة المحبة، وهي من الصفات الفعلية، وقد دل على إثباتها الكتاب والسنة والإجماع .

ومن صفات المختال الفخور: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أي بخيل في نفسه ويحث غيره، وقد ذم الله عز وجل البخل لسوءه فهو خلق سيء صاحبه ضعيف الشجاعة، ضعيف التوكل، ضعيف المروءة، ضعيف الإحسان، وفي الحديث من سيدكم «وأي داء أدوء من البخل»، فينبغي للإنسان أن يكون كريمًا بغير إسراف، وإن يكون حريصًا بغير إفتار أو شح: **فعن جابر ﷺ قال النبي ﷺ:** «وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

والكرم منه الجبلي، ومنه المكتسب وذلك أن الإنسان يتخلق بأخلاق الكرام ويتأسى بالنبي عليه الصلاة والسلام فهو بهذا سيصل إلى الكرم، وإذا وصل إلى الكرم انشرح صدره وحسنت طبيعته وحصل له الخير العظيم، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله ﷺ ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن عباده ﴿الْحَمِيدُ ﴾ بلسان الحال والمقال وغناه ذاتي بمعنى: أنه غني عبده الناس أم كفروه غني في حال وجود المخلوقين وفي حال عدمهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥]، وفي حديث أبي ذر ﷺ الذي أخرجه مسلم دلالة على

غناه: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه مسلم، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ مفرد وهو شامل لجميع الكتب التي أنزلها الله عز وجل على أنبياءه ورسله، ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ العدل والقسط، ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالحق فيما بينهم فلا ظلم، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي أنزله من رؤوس الجبال يستفيده الناس فيصنعون منه الدروع والسهام والحراب والسيوف وغير ذلك، من الآلات يؤدب بها المخالف، ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ كالفلوس والفؤوس وغيره، فأغلب الآلات المركوبة وغير المركوبة يدخل فيها الحديد في صناعتها، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: من كان ناصرًا لله بتوحيده وعمله بطاعته، وناصرًا لرسل الله باتباعهم علم وقوع وإلا فإن الله بكل شيء عليم والاقتداء بهم في حال مشهده وغيبته، وينصر الله دينه بالقتال والجهاد في سبيل الله إذا تعين ذلك، ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا

يغلبه شيء.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ خصهما بالذكر؛ لأن نوح هو أبو البشرية الثاني، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء بعده، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وإبراهيم من ذرة نوح، وهذه كرامة عظيمة لهم: أن جعل النبوة في أبنائهم، ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ﴾ أي: من الذرية منهم من يهتدي إلى الصراط المستقيم وإلى دين الله القويم، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ معرضون كافرون كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ﴾ وأغلبهم من بني إسرائيل، أي: جعلهم الله عز وجل بعد نوح وإبراهيم، ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وهذا من الخاص بعد العام ذكره؛ لأنه أقرب الأنبياء من محمد ﷺ، ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ أنزله الله إليه وقد حرف وغير وبدل، كما قال تعالى: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣].

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من النصارى ﴿ رَأْفَةً ﴾ رقة، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فيما بينهم، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أي تنسكاً وتعبداً ﴿ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي: لم يفرضها الله عليهم وإنما هم ترهبنوا وتقربوا إلى الله عز وجل ببعض ما أوجبوه على أنفسهم ثم كثير منهم أعرض عن ذلك، ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: أن الله ما فرضناها عليهم الرهبانية: وهو ترك الزواج والتنعم، ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله ﴾ أي: هم فعلوها ابتغاء رضوان الله بتلك الرهباني فأحدثوها ظنًا منهم أن يقوموا بها وتقربهم إلى الله، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ حيث اتبعوا رهبانهم وملوكهم بالباطل، ولعله والله أعلم كان في دينهم مأذون لهم بمثل هذا وإلا ما جاز التعبد بالبدعة، وأن من أوجب على نفسه شيئًا قام

به، وأما في ديننا فقد تم وكمل، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»، «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: من آمن منهم بعيسى عليه السلام وكان على التوحيد، أما من كان على الشرك والتنديد ممن يؤله عيسى فلا أجر له، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[الفرقان:٢٣]، فما وجدت من مدح في أهل الكتاب فهو محمول على من كان مؤمنًا حقًا وكان إيمانه بهم قبل مبعث النبي ﷺ، أما بعد مبعث النبي ﷺ فليس لهم دين ولا كرامة بل إنهم أهل الخيانة والمهانة، ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ من للتبعيض أو لبيان الجنس: أن الله أكرم المؤمنين بالأجر العظيم، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ كثير من أهل الكتاب: ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية، وكفروا بدين عيسى عليه السلام .

ولما ذكر الله أهل الكتاب وما هم عليه ذكر الذين أمنوا والذين ينقادون لله ظاهرًا وباطنًا، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحضور، ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ وهو تصديقه بما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع، ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يكرمكم بكرامة عظيمة ويأجركم أجرين: أجر العمل، وأجر المتابعة، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة على الصراط، أو أن المعنى يوفقك للخير، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الأنفال: ٢٩]، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم وما أسرفتم من العاصي على أنفسكم، ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يستر الماضي ويوفق في الآتي.

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، وقرأ ابن مسعود ﷺ: لكي يعلم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله ﴾ ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على منع فضل الله عز وجل عن أحد من عباده؛ فإن الله قد خص هذه الأمة بالفضيلة مع بغض أهل الكتاب لذلك، كما قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَالله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة: ١٠٥]، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وأن الفضل بيد الله يكرم من يشاء فيجعله رسولًا أن يجعله مقربًا أو يجعله عالمًا فاضلًا؛ ولذلك كانت الفضيلة في بني إسرائيل كما قال الله: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:٤٧]، أي: عالمين زمانهم فنقلها الله إلى أمة محمد ﷺ.

والفضل عام دخل فيه فضل الهداية، والرزق، والعطاء، والجنة وغير ذلك من الفضائل، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لعلمه أنه أهل لذلك، ﴿ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع الذي إذا أنعم به على الإنسان فلا طمع له في غيره، وقد أخرج البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمِلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ "، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ

النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ "، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» أخرجه البخاري .

والله المستعان .

كان الانتهاء من مراجعته غروب الثلاثاء السادس من محرم / ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم[٣]

سورة المجادلة

جزء المجادلة كله مدني، والسور المدنية هي التي نزلت بعد هجرة النبي ﷺ، وليس المراد بها ما نزل بالمدينة فقط، فسورة الفتح مدنية وكان نزولها بالحديبية، وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[المائدة:٣]، مدنية وكان نزولها بعرفة من نواحي مكة .

والفرق بين المكي والمدني:

الأول: أن السور المكية النداء فيها في الغالب يكون: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾[الحج:١].

الثاني: أن فيها الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، والبعث والنشور أكثر من غيرها، بينما في السور المدنية تجد فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[الحجرات:١]، وفيها الأحكام ونحو ذلك.

الثالث أن المكي يركز على العقائد والإيمان، وكله كلام الله ووحيه وتنزيله أنزله على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: **تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ كُلَّهَا ، إِنَّ الْمَرْأَةَ لَتُنَاجِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْمَعُ بَعْضَ كَلَامِهَا وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضٌ، إِذْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾**، الحديث ذكره البخاري تعليقًا مستدلًا به على إثبات صفة السمع لله عز وجل، وهي صفة ذاتية حقيقية فإن الله لا تخفى عليه خافية، فيسمع المسموعات ويبصر المبصرات.

﴿ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ هي خولة بنت ثعلبة، ويقال خُويلة بالتصغير، ويقال: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت؛ ففي مسند أحمد عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: فِيَّ – وَاللهِ – وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ ، قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ "، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا بَرِحْتُ

[٣] بدأنا في تفسير جزء المجادلة في الثاني عشر من رمضان لعام ١٤٤١هـ

حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشَّى رَسُولُ الله ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ لِي: " يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ "، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ: {قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله، وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١] إِلَى قَوْلِهِ: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤]، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: " مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً "، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ، قَالَ: " فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ "، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: " فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا، وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ "، قَالَتْ: فَقُلْتُ : وَالله يَا رَسُولَ الله مَا ذَاكَ عِنْدَهُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ "، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ الله سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قَالَ: " قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا "، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ » .

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى الله ﴾ تكرر وتقول: والله لا أشكوه إلا إلى الله، يعني: كيف ذهب بشبابي وفعل بي وفعل وأطعته وأكرمته وبقيت معه ثم يطلقني أو يهجرني، فالطلاق والهجر شديد على النساء وقعه، فالإنسان بحاجة إلى الإحسان إلى نفسه وأهله، والنبي ﷺ يقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» .

﴿ وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أي تحاور المرأة مع النبي ﷺ، ومرادة الكلام الذي تشكو فيه زوجها ورسول الله ﷺ يأمرها بالصبر، ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم، ﴿ بَصِيرٌ ﴾ أفعالكم .

ثم شرع في ذكر أحكام الظهار، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن الرجل إذا قال لزوجته: أنتي عليّ كأمي أو كظهر أمي أو كأختي أو كظهر أختي أي محرم له فإنه يعد مظاهرًا من زوجته، وذهب بعض المحققين إلى أنه لا يكون مظاهرًا إلا إذا قال: أنتي عليّ كظهر أمي وقيده وعلقه بالظهر.

قال ابن قدامة في المغني (٧/ ٤١٤):

كَمَا لَوْ قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ كَظَهْرِ أُمِّي. فَأَمَّا إنْ نَوَى غَيْرَ الظِّهَارِ، فَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ جَمَاعَةٍ، أَنَّهُ ظِهَارٌ، نَوَى الطَّلَاقَ أَوْ لَمْ يَنْوِهِ. وَذَكَرَهُ الْخِرَقِيِّ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا. وَمِمَّنْ قَالَ: إنَّهُ ظِهَارٌ؛ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو قِلَابَةَ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، وَالْبَتِّيُّ. رَوَى الْأَثْرَمُ، بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي الْحَرَامِ، أَنَّهُ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، أَوْ إطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا. وَلِأَنَّهُ صَرِيحٌ فِي تَحْرِيمِهَا، فَكَانَ ظِهَارًا، وَإِنْ نَوَى غَيْرَهُ، كَقَوْلِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. اهـ

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ قوله: ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي: من المؤمنين فلا عبرة بمظاهرة الكافرين عند مالك، وذهب جمهور أهل العلم إلى أنهم يدخلون في هذا الخطاب، ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ مفهومه: أن الرجل إذا ظاهر من امرأة لم يتزوجها أنه لا يعد ظهارًا وإنما يكون الظهار من زوجته، ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ يعني: كيف يقول: أنتي عليّ كظهر أمي وهي ليست بأم له، ولذلك حرم بعض أهل العلم أن يقول الرجل لزوجته: يا أمي أو

يا أختي فالزوجة تطلق عليها ألفاظ الزوجية، وما كان قول إبراهيم لسارة قولي: أنت أختي إلا من باب رد كيد الكافر والفاجر وكان هذا من المعاريض التي يتقى بها الكذب .

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي ولدنهم ﴾ أي أن الأمهات اللاتي ولدنهم وخرجوا من بطونهن، ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: المظاهرون، ﴿ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ بهذه الآية استدل أهل العلم على أن الظهار يعتبر كبيرة من كبائر الذنوب وعظيمة من عظائم الآثام، ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: بالمظاهرة، ﴿ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي قولهم منكر باطل ﴿ وَزُورًا ﴾ حرام وكذب، ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ ﴾ عن من تاب وأناب، ﴿ غَفُورٌ ﴾ لمن أصلح، فيتجاوز عن سيئاته وزلته؛ لكن التوبة في هذا الأمر لا بد لها من كفارة، فلا يكفي أن يقول: أنا تائب أو أستغفر الله وأتوب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ هذه الآية تفيد العموم يدخل فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فمن ظاهر من امرأته شمله هذا الحكم، ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قال بعض أهل العلم: يعودون للظهار يقول مرة ثانية: أنتي عليَّ كظهر أمي وليس بصحيح، وإنما المراد: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي: يريدون الجماع ونحو ذلك مما يريده الرجل من امرأته، ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي: تحرير عبد سواءً كان ذكرًا أو أنثى، وأطلق هنا وقيد في سورة النساء، ﴿مُؤْمِنَةٍ ﴾[النساء:٩٢]، وبهذا استدل العلماء على أن الرقبة تكون مؤمنة، ففي حديث معاوية بن الحكم السلمي قال النبي ﷺ للجارية: «أَيْنَ الله؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، فدل على تعين الرقبة المؤمنة؛ لأن الرقبة الكافرة إذا أُعتقت زاد شرها، بينما المؤمنة اعتاقها فيه التعاون على البر والتقوى، ويصلح في العتق الذكر والأنثى سواء إلا أن بعض أهل العلم اشترطوا: أن تكون الرقبة سالمة من العيوب، قادرة على نفع نفسها؛ لأنك إذا أعتقت رقبة تحتاج إلى من يعولها قد يؤدي إلى ضررها، وإن كانت امرأة ربما أدى إلى فسادها، وإن كان رجل أدى إلى إرهاقه.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أي: من قبل أن يجامعها، فالمراد بالمماسة هنا الجماع، وأما الاستمتاع بها فيه دون الجماع فلا حرج منه كالقبلة ونحو ذلك بل أجاز بعضهم ما هو أوسع من ذلك كما قال الحسن البصري رحمه الله، لكن لو قدر أنه مسها فليس عليه كفارة إنما عليه التوبة إلى الله عز وجل.

﴿ ذَلِكُمْ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام، ﴿ تُوعَظُونَ به ﴾ تخوفون وترهبون به ، ﴿ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله على أعمالكم مطلع وبها عالم.

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ أي: لعجزه عن الكفارة، ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ إن كان صام في أول الشهر فيصوم من الهلال إلى الهلال، وإن كان قد صام من وسط الشهر فيصوم ستين يومًا، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ على ما تقدم، ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ يعني: يطعم ستين مسكينًا إن تيسر من قوت بلده ومن

طعام أهله فلا يكتفي بالأرز أو الدقيق أو الشعير ونحو ذلك، بل يطعمه إطعامًا كاملًا، فإن عجز عن ذلك أعطاه ما يقوم به من نصف صاع ونحو ذلك، والقصة أن هذا رضي الله عنه لم يكن معه رقبة ولا يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين ولا يستطيع أن يطعم ستين مسكينًا فأعانه النبي ﷺ وأعانته زوجته على ما جاء في بعض الروايات ثم كفر عن مظاهرته.

وتجوز المظاهرة المقيدة

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ قَدْ ظَاهَرَ مِنَ امْرَأَتِهِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي ظَاهَرْتُ مِنَ امْرَأَتِي فَوَقَعْتُ قَبْلَ أَنْ أُكَفِّرَ، قَالَ: «وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ يَرْحَمُكَ الله؟» قَالَ: رَأَيْتُ خَلْخَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، فَقَالَ: «لَا تَقْرَبْهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ» أخرجه النسائي .

فالصحيح أن الآية نزلت في خولة وزوجها، وإنما هذا عمل بمضمون الآية .

﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ يعني: لا يطعم واحداً ستين مرة لكن يطعم ستين مسكينًا، ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ﴾ أي: تلك الأحكام لتؤمنوا بالله ورسوله وتطبقوا شرع الله وسنة رسوله ﷺ، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ الله ﴾ تلك حرمات الله يجب ألا تعتدوها وألا تنتهكوها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[الطلاق:١]، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع لأنهم أشد من تعدى حدود الله وأعرض عن امتثال شرع الله سبحانه وتعالى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يخالفون شرع الله وشرع رسوله ﷺ، ﴿ كُبِتُوا ﴾ أهينوا ونكسوا، ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما أُهين من كان قبلهم وأُركس بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات جليات ظاهرات، ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ موجع يوم القيامة ويهانون به، قال تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعًا ﴾ أي يكون هذا العذاب يوم القيامة حين يبعث الله الأولين والآخرين، ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فيخبرهم بجميع أعمالهم سواءً في ذلك إنباؤهم بالقراءة من كتبهم: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٤]، أو بشهادة الملائكة، أو بإخبار الله عز وجل لهم، كما قال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤] .

﴿ أَحْصَاهُ الله ﴾ حفظه ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لتباعد الزمان، ﴿ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع لا تخفى عليه خافية من عظيم الأمور ودقيقها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ومن يقرأ هذا الكلام، ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ لا تخفى عليه خافية، يعلم ما في السموات والأرض وما بينهما، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ ﴾ من كلام سر بين ثلاثة، ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ أي: مطلع على أقوالهم وأفعالهم، ﴿ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ لا أدنى من الثلاثة ولا أكثر من الستة: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ فيها إثبات المعية لله عز وجل، وقد تقدم قول الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[الحديد:٤]، وقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[طه:٤٦]، السؤال: ولكن ماذا تعني هذه الآية؟ هل تعني أن الله في كل مكان؟ فيكون معنا داخل المسجد وخارجه مثلاً بذاته المقدسة العلية؟ الجواب: لا، فهذا لا يعتقده المسلم؛ لأن المسلمين يعتقدون أن الله على عرشه استوى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه:٥]، وأنه في العلو سبحانه وتعالى؛ ولكن معنى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي: بعلمه وسلطانه وبصره وقهره كما يقول العربي: ما زلت أسير والقمر معي، والقمر في السماء وهو في الأرض، ويقول: زوجتي معي، وزوجته في مدينة وهو في الأخرى، فليس معنى المعية أنه بذاته في كل مكان كما يزعم الحلولية والاتحادية؛ بل معنا بعلمه يعلم ما نعمل، ويبصر ما نعمل، ويسمع ما نقول، وهو قاهر لنا سبحانه وتعالى.

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بجميع أعمالهم، وقد سطرها في كتاب، وتشهد عليهم ألسنتهم، ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية، ومما يدل على أن المعية معية علم؛ أن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ومن آمن معك، ﴿ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ نهوا عن التناجي بالباطل من الغيبة والنميمة والمكر والكيد، ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ مع أن الله قد حرمه عليهم، ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ أي: يتسارون في مجالسهم، ﴿ بِالإِثْمِ ﴾ قول الزور والكلام الباطل، ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ البهت ونحو ذلك، ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ يدعون إلى معصية الرسول ﷺ، ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ ﴾ أظهروا خلاف ما يبطنون، فـ﴿ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ كانوا يقولون: راعنا، ويقصدون بها الرعونة، وكانوا يقولون: السام عليك يا محمد، ويريدون بها الموت، فيظن

الظان أنهم يقولون: السلام عليكم دعاء بالسلامة ، ولهذا لعنتهم عائشة رضي الله عنها فقال لها النبي ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»**متفق عليه .**

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: لبعضهم إذا التقوا، ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ يعني: هل سيعذبنا الله بما يقول، إن كان العذاب إلا بهذا كأنهم يقولون: نحن نتحمل، بئس قولهم وبئس صنيعهم، ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يكفيهم يوم القيامة أن يعذبوا في جهنم، ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ تغشاهم بنارها من جميع أجزاء أجسامهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مصيرهم إذ لا راحة فيه لشراب، ولا طعام، ولا أكل، ولا لباس، ولا نوم وغير ذلك.

ولما ذكر الله عز وجل شأن المنافقين ومن تشبه بهم قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا أهل الإيمان، ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ تحدثتم فيما بينكم في مجالسكم وطرقكم، ﴿ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ بالغيبة والنميمة والبهت والكذب وغير ذلك، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ البر كل فعل معروف وفعله مبرة مقرب من الله وترك المحظور والمعنى لتسكن مناجاتكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على الصلاة والصيام والزكاة وبر الوالدين، والحث على فعل المأمورات وترك المحظورات، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في أنفسكم بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى ﴾ أي: في الباطل، ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ يقذفها في قلوب أوليائه ليقذفونها في قلوب المؤمنين ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ليحصل لهم الحزن فربما خوفهم بالفقر، والمرض، وخوفهم من الكفار، قال الله عز وجل: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا } [البقرة: ٢٦٨] .

﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا ﴾ هذا التخويف، ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ الكوني لا الشرعي، فإن الأذى يكون في المحبوب وغيره، والشرعي لا يكون إلا في المحبوب فلا يكون شيء في هذا العالم العلوي والسفلي إلا بإذن الله القدر الكوني: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ دينية أو بدنية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾[التغابن:١١]، الكوني؛ لأن الإذن ينقسم إلى نوعين: إذن شرعي: وهو ما أمر الله به في الكتاب والسنة، وإذن كوني: وهو الذي لا بد أن يقع، ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع شؤونهم ويعتمدون عليه بجلب منافعهم ودفع مضارهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾[الزمر:٣٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب آخر للمؤمنين، ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ من إخوانكم ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ بحيث يتوسع بعضهم لبعض، وهذا أدب رفيع لا يوجد في غير دين الإسلام ولا يجوز أن يقام الرجل من مجلسه كما قال النبي ﷺ: « لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا »، فهنا يأمر الله عز وجل

بالتفسح للؤمن الداخل في البيت، ﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ إذ أن الجزاء من جنس العمل، فيدخل في فسحة الله الفسحة في القبر والدنيا براحة البال وطمأنينة الحال وفسحة الآخرة.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ أي: قوموا ارتفعوا وتنحوا لحاجة تعرض، ﴿ فَانشُزُوا ﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة؛ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وهذه الآية يستدل بها أهل العلم على فضيلة العلم والإيمان، ﴿ يَرْفَعِ اللهُ ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ صدقوا وانقادوا، ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وهذا من عطف العام على الخاص فإن أهل العلم يدخلون في الذين أمنوا دخولًا أوليًا إلا أنه ذكرهم لبيان فضلهم وعلو منزلتهم، في الدنيا والآخرة، فإن العالم هو المقدم في الصلاة، والمقدم في الخطابة، والمقدم في الوعظ، والمقدم في الفتوى، وإذا كان في القبر كان المقدم فلما كان يوم أحد قال النبي ﷺ: «انْظُرُوا أَكْثَرَهُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ فَقَدِّمُوهُ»، يعني: في اللحد، وإذا كان يوم القيامة قال النبي ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وارْتَقِي ورَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَ»، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع وعالم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ يا أهل الإيمان إذا تكلمتم مع الرسول، ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ وقد كان هذا الأمر واجبًا في أول الأمر، من أراد أن يتكلم مع النبي ﷺ يبدأ ويتصدق على فقير أو مسكين أو نحو ذلك ثم نسخه الله عز وجل؛ لأن النفوس مجبولة على حب المال: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[الفجر:٢٠]، ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي تقديم الصدقة ﴿خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ سبب لقبول نجواكم ولجعل البركة فيها، وسبب لطهارة النفوس والأموال وقضاء حاجة المسكين، ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ ما تتصدقون به، ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يعفو عنكم ويصفح.

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي: هل خفتم وبخلتم بالمال، ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ كما أمركم الله عز وجل، ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ذلك، ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ عفى عنكم في هذه الصدقة، ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ المفروضة، ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المكتوبة، ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وطاعة الرسول ﷺ طاعة لله، فالذي يطعن في سنة النبي ﷺ ويقول: نحن نعمل بالقرآن فهو ضال؛ لأن القرآن أمر بطاعة النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عز وجل: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النور:٥٦]، فالآية فيها رد على القرآنيين والرافضة ومن إليهم الذين يقولون نكتفي بالقرآن، فالقرآن لا يكفي وحده، لا بد أن تبينه السنة، القرآن جاء بالصلاة إجمالاً ومن الذي علمنا بصلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء؟ النبي ﷺ في السنة، ومن الذي أخبرنا أن صلاة الفجر ركعتان والظهر أربع والعصر أربع والمغرب ثلاث والعشار أربع؟ ومن الذي أخبرنا بنوافل الصلاة .

فإذًا لا يمكن أن يفرق بين القرآن والسنة، فالتفريق بينهما تفريق بين المتماثلات التي لا يقوم بعضها إلا ببعض، والأصل في أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ أنه للوجوب إلا أن تأتي قرينة تدل على أنه للاستحباب أو نحو ذلك، ثم قال: ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع على أعمالكم ويعلم الصادق من غيره.

ثم قال عز وجل مخبرًا عن حال المنافقين: ﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ نافقوا حيث ﴿ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ اليهود والكفار يعاضدونهم ويناصرونهم، مع أنهم ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ وكذلك: ﴿ وَلا مِنْهُمْ﴾، وإنما جمعهم على ذلك بغض الحق وأهله ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أنهم أرادوا كذا وكذا مما الواقع خلافه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم يكذبون وحالهم كما قال رسول الله ﷺ: «كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ»، قال تعالى: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ ﴾[النساء:١٤٣] .

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في الآخرة، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ساء الفعل فعلهم، والسبيل سبيلهم.

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وقاية والمعنى أنهم أكثروا من الأيمان من أجل أن يتقوا بها العقوبة، فالجُنة: هي الشيء الذي يحجز بينك وبين الآخر، قال النبي ﷺ: «إنما الإمام جُنة»، يعني: ولي الأمر يكفيك كثير من شرور أهل المعاصي ويكفيك كثيراً من الأمور؛ وقال النبي ﷺ: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»؛ لأن الصائم يترك كثيراً من المعاصي، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ستراً لباطنهم، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن طريق الحق ونفروا منه، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ يهانون فيه يوم القيامة.

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ﴾ وإن كثرت، ﴿ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ وإن كثروا، ﴿ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ لأن الله عز وجل لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ من تقدم وصفهم من أهل النفاق، ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دليل على مذهب أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله عز وجل حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يؤتى بالموت فيذبح قال فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ [ص:٩٤] رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩] " متفق عليه .

ويكون ذلك :﴿ يَوْمَ﴾ القيامة حيث ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ الكفار والمنافقين بل جميع الناس، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ في الآخرة، ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ يحسبون أنهم يتقون وأنهم

سيسلمون، ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ إذ أن الله عز وجل مطلع عليهم لا تخفى عليه خافية، وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩]، ويأمر جوارحهم أن تتكلم والكرام الكاتبين قد كتبواجرحوا من الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى ﴾[الزخرف:٨٠]، نسمع، ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف:٨٠]، يقيدون عليهم ما قالوه.

﴿ اسْتَحْوَذَ﴾ تغلب ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ الرجيم حيث صيرهم لطاعته بما يلقى من الشبهات والشهوات في صدورهم، ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴾ شغلهم وألهاهم عن طاعة الله عز وجل، ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ حزبه؛ لأنهم على طريقته، وحزب الشيطان خاسر في الدنيا والآخرة، وأشد أحزاب الشيطان الكفار والمنافقون، وكل من تحزب لغير الكتاب والسنة عنده من حزب الشيطان بقدر ما عنده من البعد عن طريق الرحمن سبحانه وتعالى، فهذه الحزبيات التي ترونها في المجتمعات الإسلامية فرقت البلدان ومزقتهم وسببت الثورات والانقلابات وغير ذلك ليست من حزب الله أبدًا، فإن حزب الله عز وجل على طريقة رسول الله ﷺ، وإذ نقول حزب الله لا نقصد (حزب الله الشيطاني) الذي هو في لبنان الرافضي كما أننا إذا نقول: أنصار الله (لا نقصد الحوثيين الرافضة) فإن هذه أسماء اتخذوها مخالفة لواقعهم، فحزب الله اللبناني حقه أن يكون حزب الشيطان ؛ لأنهم رافضة يقتلون أهل الإسلام ويتقمصون بغض اليهود تقمصًا وإلا فهم عملاء لليهود على مر الأزمان، ويسمون بأنصار الله ونصرتهم لدين الرافضة وأذى أهل الإيمان نعوذ بالله من الخذلان، ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ بالدنيا بالهزيمة وفي الآخرة في النار.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ يشاقون ﴿الله وَرَسُولَهُ ﴾ من الكفار والمنافقين ومن إليهم، كما قال الله عز وجل: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ١٣] .

﴿ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ تلحقهم الذلة والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي»، تصيبهم ذلة وإن كثرت أموالهم وأعدادهم وتجاراتهم وأسلحتهم.

﴿ كَتَبَ الله﴾ أي قضى الله وقدر كوناً ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي: قضى وقدر أن الغلبة دائمًا تكون للمؤمنين، ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ الله قَوِيٌّ﴾ لا يقهر ﴿عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب، كما قال: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[طه:١٣٢]، وقال الله عز وجل: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، وقال: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأعراف: ١٣٧] .

ثم قال الله عز وجل: ﴿ لا تَجِدُ ﴾ يا محمد، ﴿ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ ربًا، ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ معادًا، ﴿ يُوَادُّونَ﴾ يحبون ﴿مَنْ حَادَّ الله﴾ شاق وخالف ﴿وَرَسُولَهُ ﴾ لدين الله ورسوله ﷺ، وكتاب الله عز وجل وسنة

رسوله ﷺ، ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ وهذا دليل على تعمق جانب الولاء والبراء في نفوس هؤلاء المؤمنين الذين قال الله عز وجل لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ ﴾[التوبة:٢٣-٢٤]، وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

﴿ أُوْلَئِكَ﴾ الذين تقدم وصفهم ﴿كَتَبَ﴾ قذف بعد تقديره الكوني ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ بالله ورسوله ﷺ، ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ بنصر وبعز وتمكين منه تعالى، كما قال عز وجل: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: ١٦٠] .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: يوم القيامة يتنعمون بأنواع النعم، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾[الحجر:٤٧].

﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ لحسن أفعالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بحسن معتقدهم، وفيه إثبات صفة الرضا لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية وأعظم المكاسب الدينية والدنيوية والأخروية هي رضا الله سبحانه وتعالى فإنه إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم: « هَلْ رَضِيتُمْ؟ ، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» **أخرجه مسلم عن أبي سعيد** ﷺ، ومن رضوانه: أنه يمكنهم من النظر إلى وجهه الكريم الوجه العظيم الذي هو أعلى وأزكى نعيم الجنة، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ».

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أي: من تقدم ذكر أوصافهم من حبتهم للمؤمنين وبراءتهم من الكافرين، ﴿ حِزْبُ اللهِ ﴾ الذين امتثلوا شرعه وانتهوا عن نهيه وزجره، ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ ﴾ إخبار بمآلهم، ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة، والمفلح: هو الذي ينال المطلوب ويسلم من المرهوب.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

تفسير سورة الحشر وهي مدنية، سميت بالحشر؛ لأن النضير حين أجلاهم النبي ﷺ كان جلاؤهم إلى أرض الشام إلى أرض المحشر والمنشر، وتسمى هذه السورة بسورة بني النضير قوم من اليهود كاتبهم النبي ﷺ حين قدم المدينة، فلما جاءهم النبي ﷺ في شأن دية قد تعينت عليه قالوا له: أبشر يا محمد ثم ذهبوا وتمالأوا أن يلقوا عليه الرحى وهو جالس في أصل الحصن أرادوا قتله والتخلص منه؛ وذلك لشدة بغضهم وعداوتهم له ولدينه، فجاءه الوحي فانطلق ثم تبعه أصحابه فأرسل إلى يهود وأخبرهم أنه عزم على إجلائهم وأنهم لا يساكنوه لخيانتهم وأملهم أيامًا للرحيل، وكان في ذلك فسحة لهم يستطيعون حمل أموالهم وسلاحهم، ولكنهم أعرضوا فمكر الله بهم، وقال لهم بعض المنافقين كعبد الله بن أبيّ: لن تخرجوا وسنقاتل معكم وإذا أُخرجتم خرجنا معكم، فلما وقعوا فيما وقعوا فيه جبُن عبد الله بن أُبيّ بن سلول عن نصرتهم ففي سنن أبي داود عَنْ رَجُلٍ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أُبَيٍّ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الْأَوْثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا، وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ، أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمُ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ، وَإِخْوَانَكُمْ» فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَكَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا، أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ، وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ، فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ، أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالْغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ، وَلْيَخْرُجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا، حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمَنْصَفِ فَيَسْمَعُوا مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ، فَقَصَّ خَبَرَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، غَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ وَاللهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ»، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ عَهْدًا، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ غَدَا الْغَدُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ، وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ، فَعَاهَدُوهُ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ، وَغَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ، فَجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ، وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ، وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَخَشَبِهَا، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً، أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا، فَقَالَ: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ، وَلَا رِكَابٍ} [الحشر: ٦] يَقُولُ: بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَأَعْطَى

النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ الله ﷺ الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا» .

﴿ سَبَّحَ لله﴾ يسبح الله عز وجل نفسه المقدسة والتسبيح التنزيه والتقديس، فالمسبح: هو المنزه عن كل نقيصة وعيب، وقد سبح له سبحانه: ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ واختلف العلماء في نوع هذا التسبيح فقال بعضهم: بلسان الحال، وقال بعضهم: بلسان المقال كقول الله عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ومعنى الآية: أن الله ينزهه الذين في السموات والأرض، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب ولا يقهر؛ لكمال عظمته وعزته، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أحكم كل شيء قولًا وفعلًا.

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله، ﴿ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يريد بني النضير، ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ مساكنهم بجوار المدينة، ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ إلى أرض الشام (أرض المحشر والمنشر)، ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ من ديارهم، وذلك لقوتهم ومناعتهم وكثرة سلاحهم وأموالهم ولتعصب المنافقين لهم، ﴿ وَظَنُّوا﴾ اليهود ﴿أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله ﴾ أي استيقنوا أن حصونهم العالية المشيدة المحصنة ربما يأتيها الطعام من داخلها لسعة أرجائها وقرب الماء منها، فلو حوصروا سلموا، ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ حيث قذف الرعب في قلوبهم، فهزمهم الله من أنفسهم فجبنوا وانخلعت أفئدتهم خوفًا من النبي ﷺ وأصحابه، وهذا من فضل الله: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الخوف الشديد والرهب الأكيد الذي لا يهنأ صاحبه بنوم ولا طعام ومن أصابه الرعب يفر من أدنى ويرتهب من أدنى شيء، فلو أن رجلًا يرهب من الثعابين بمجرد أن يجد حركة ينخلع فؤاده، وآخر يرهب من الناس بمجرد أن يهدده أحدهم ينخلع فؤاده، فهؤلاء قذف الله في قلوبهم الرعب من محمد ﷺ وأصحابه، واليهود أجبن الناس وهذا معلوم على مر العصور وتقلبات الدهور، وإنما قويت شوكتهم في هذه الأزمنة المتأخرة بالمكر والكيد وناصرهم النصارى على ما هم فيه وأعطوهم فلسطين بوعد بلفور النصراني البريطاني في عام ١٩١٧م، وفي عامنا هذا ٢٠٢٠م أعطوهم ما يسمى بصفقة القرن بجعل القدس عاصمة لهم، وتبنى هذه الفكرة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب دمر الله عليه وعلى قومه، وسيأتي اليوم الموعود بقتل اليهود، فعن عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " تُقَاتِلُكُمْ يَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ " أخرجه أحمد .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ من أجل أخذ ما فيها من المتاع، ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنكيلًا وإعاظة لهم، ﴿ فَاعْتَبِرُوا ﴾ من هذه الحادثة، ﴿ يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ يا أصحاب البصائر انظروا إلى هؤلاء الناس الذين كانت قد قويت شوكتهم وكثرت رجالتهم وأسلحتهم كيف أصبحوا في الذل والهوان والخزي والحرمان، بسبب كفرهم وبغيهم وذنوبهم، فلا أشد على الإنسان من نفسه منها يدخل عليه الشيطان، والله المستعان .

﴿ وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ ﴾ يعني: لكانت عقوبتهم أشد بالقتل وغير ذلك لكن كتب الله عليهم الجلاء: وهو الخروج من ديارهم إلى الأرض التي ذهبوا إليها، ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ بالقتل، ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ وبئس القرار؛ لأنهم كفار.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: أصابهم هذا العذاب والخزي، ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ حاربوا الله وحاربوا رسوله ﷺ، وخالفوا دين الله الحق، ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ ﴾ أي يخالف ويحاد دين الله، ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في الدنيا بذهاب أموالهم وأنفسهم وضيق حالهم، وفي الآخرة بالنار.

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ يا معاشر المسلمين، واللينة: النخل، فإن المسلمين حين استعصت بنو النضير جعلوا يقطعون في نخلهم تنكيلًا بهم وجرًا لهم إلى الاستسلام، فلما قطعوا النخل عيرهم اليهود وقالوا: أنتم تدعون الصلاح وأنتم تقطعون النخل وتفسدون في الأرض، فقال الله عز وجل: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ﴾ لم تتعرضوا لها، ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي هو الذي أذن لكم، سواء كان الإذن الشرعي أو الكوني أو مجموعهما، ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ بهذا الفعل الذي لحقهم من تخريب بيوتهم ومزارعهم وهم ينظرون لا يستطيعون الدفاع عنها، لشدة جبنهم وخورهم وضعفهم .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ الفيء: هو المال الذي يأخذه المسلمون بغير قتال، وتكون قسمته على ما يأتي: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أي: من يهود بني النضير، ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ أي وضعتم وأسرعتم ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ﴾ الإبل والمعنى لم يكن منكم قتل ولا قتال وإنما هو الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم، ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ يقويهم وينصرهم ويمدهم بجنده، ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي: من جميع البلدان التي يكون حالها كحالهم، فيكون قسمتها ومصرفها، ﴿ فَللهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ أي: إلى خمسة أقسام، فخمسه الأول لله ولرسوله يكون في مصالح المسلمين، ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ وهم قرابة النبي ﷺ وأهل بيته فلهم الخمس، لكن ليس للرافضة منه شيء؛ لأن الرافضة في الأصل ليسوا من أهل بيته ﷺ، فإن نوح عليه السلام حين قال: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[هود:٤٥]، وكان كافرًا قال الله له: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾[هود:٤٦]، ويجب على أولياء الأمور أن يعطوا أهل القرابة حقهم مما شرعه الله لهم، ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ الذي مات أبوه قبل بلوغه، ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الذين قلت أرزاقهم، ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ صاحب الطريق الذي قل متاعه ولم يوصله إلى بلده، ﴿ كَيْ لا يَكُونَ ﴾ هذا المال ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أي: يتداوله بعضهم دون بعض، وفي الصحيحين عن مالك بن أوس قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَجِئْتُهُ حِينَ تَعَالَى النَّهَارُ، قَالَ: فَوَجَدْتُهُ فِي بَيْتِهِ جَالِسًا عَلَى سَرِيرٍ مُفْضِيًا إِلَى رُمَالِهِ، مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ لِي: يَا

مَالُ، إِنَّهُ قَدْ دَفَّ أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ قَوْمِكَ، وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرَضْخٍ، فَخُذْهُ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ، قَالَ: قُلْتُ: لَوْ أَمَرْتَ بِهَذَا غَيْرِي، قَالَ: خُذْهُ يَا مَالُ، قَالَ: فَجَاءَ يَرْفَا، فَقَالَ: هَلْ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُثْمَانَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَالزُّبَيْرِ، وَسَعْدٍ؟ فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ فِي عَبَّاسٍ، وَعَلِيٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَذِنَ لَهُمَا، فَقَالَ عَبَّاسٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الْكَاذِبِ الْآثِمِ الْغَادِرِ الْخَائِنِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: أَجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ وَأَرِحْهُمْ فَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَوْسٍ: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا قَدَّمُوهُمْ لِذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: اتَّئِدَا، أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ، وَعَلِيٍّ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمَا بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، قَالَا: نَعَمْ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ بِخَاصَّةٍ، لَمْ يُخَصِّصْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَهُ، قَالَ: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} [الحشر: ٧]- مَا أَدْرِي هَلْ قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي قَبْلَهَا أَمْ لَا - قَالَ: فَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَكُمْ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ، فَوَاللهِ، مَا اسْتَأْثَرَ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَخَذَهَا دُونَكُمْ، حَتَّى بَقِيَ هَذَا الْمَالُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْخُذُ مِنْهُ نَفَقَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ أُسْوَةَ الْمَالِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَتَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ نَشَدَ عَبَّاسًا، وَعَلِيًّا، بِمِثْلِ مَا نَشَدَ بِهِ الْقَوْمَ، أَتَعْلَمَانِ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، قَالَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُمَا تَطْلُبُ مِيرَاثَكَ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، وَيَطْلُبُ هَذَا مِيرَاثَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، فَرَأَيْتُمَاهُ كَاذِبًا آثِمًا غَادِرًا خَائِنًا، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، ثُمَّ تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ، فَرَأَيْتُمَانِي كَاذِبًا آثِمًا غَادِرًا خَائِنًا، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، فَوَلِيتُهَا ثُمَّ جِئْتَنِي أَنْتَ وَهَذَا وَأَنْتُمَا جَمِيعٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ، فَقُلْتُمَا: ادْفَعْهَا إِلَيْنَا، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُمْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللهِ أَنْ تَعْمَلَا فِيهَا بِالَّذِي كَانَ يَعْمَلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذْتُمَاهَا بِذَلِكَ، قَالَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُمَانِي لِأَقْضِيَ بَيْنَكُمَا، وَلَا وَاللهِ لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَرُدَّاهَا إِلَيَّ» .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ في جميع شأنكم، فلازموا المأمور واجتنبوا المحظور ليس فقط في مال بني النضير ولكن في جميع الأحكام والأوامر والنواهي، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ فعلًا، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وهذه آية عامة يستدل بها على وجوب الأخذ بالسنة ويستدل بها في الرد على الفرقة القرآنية، و على وجوب طاعة النبي ﷺ، وتحريم مخالفته، ومعنى: ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي: ما استطعتم، قوله: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦]، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالف أمره.

ثم قال الله عز وجل مبينًا لمن له الحق في الفيء: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي لفقراء المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وبلدانهم وتركوا أرزاقهم وأموالهم عوضهم الله بهذه الغنائم وهذا الخير العظيم، ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ فرارًا بدينهم، ﴿ يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا ﴾ أجراً من الله وثواباً ويؤملون رضوان الله عز وجل، ﴿ وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ والسبب في خروجهم: أنهم ينصرون الله عز وجل بنصر دينه ونصر رسول الله ﷺ ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ قولًا وفعلًا واعتقادًا، واستدل بهذه الآية على تفضيل المهاجرين على الأنصار، فإن المهاجرين قدموا في هذه الآيات ثم إنهم قد نصروا النبي ﷺ فجُمعت لهم الهجرة والنصرة، بخلاف الأنصار ناصروا النبي ﷺ وهم في بلدانهم.

ثم قال مادحاً للأنصار: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي سكنوا دار الهجرة وآمنوا قبل كثير منهم ﴿وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهم الأوس والخزرج الأنصار الذين أمنوا بالنبي ﷺ ونصروه، وقد دعا لهم النبي ﷺ بقوله: «اللهمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»، ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ أي: هؤلاء الأنصار، ﴿ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ من الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فقيرًا أو على أي حال كان، وها لكرمهم وصفاء قلوبهم ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ لا يجدون في صدورهم بغضًا ولا حسدًا ولا حقدًا مع ما يُبذل للمهاجرين من الأموال ومع ما أعطاهم الله عز وجل من الهبات، ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ وإن قل وإن كثر ما يؤتاه غيرهم، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الإثرة فيؤثرون على أنفسهم أي: أنهم يقدمون حظ غيرهم على حظ أنفسهم ويستبشرون بذلك ويفرحون به، ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ولو كان بهم حاجة وفقر، وهذه درجة عظيمة وإيمان قوي لا يسلكه إلا أصحاب الأخلاق السامية والفطر القوية؛ من أن المال يذهب لغيرهم ولا يقع فيهم تأثر، بل أعطوا أموالهم للمهاجرين وقسموها بينهم ولم يرد لهم إلا بعد خيبر حين فتح الله على المهاجرين، ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ وهذه الآية نزلت في أبي طلحة الأنصاري: (أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا؟»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ)، طعام الصغار، (فَقَالَ: " هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَطْفِئِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا الْعَشَاءَ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْلَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، وَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ)، ففعلت ذاك الأمر وتعشى الضيف ظنًا أنهم تعشوا جميعًا ثم رجع أبو طلحة في الغد إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ ـ أَوْ عَجِبَ ـ مِنْ فَعَالِكُمَا» **متفق عليه .**

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ البخل وحب المال الذي يتسلط على النفوس فيهلكها، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة؛ لأن الشح سبب لقطيعة الأرحام، ومنع الفقير مما أوجب الله له، وسبب لحب المال، وسبب

للقتل والقتال حتى قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»، فأخبر الله عن صفات الأنصار العظيمة التي تميزوا بها، وفي البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال، حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلَى الوَلِيدِ قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الأَنْصَارَ إِلَى أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ البَحْرَيْنِ، فَقَالُوا: لاَ إِلَّا أَنْ تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا، قَالَ: «إِمَّا لاَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ»، وعند البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لاَ» فَقَالُوا: تَكْفُونَا المَئُونَةَ، وَنَشْرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» .

ثم أتى الله عز وجل على المؤمنين الذين ساروا على سيرهم وأحبوهم ودعوا لهم وترضوا عليهم وذكروهم بالخير والجميل وهم أهل السنة والجماعة في كل زمن، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: من بعد المهاجرين والأنصار، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ تجاوز عنا ﴿وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ وهم المهاجرون والأنصار ابتداءً، كما قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ١٠٠].

﴿ الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ بالإقرار لما جاء عن الله وبالنصرة لمحمد ﷺ ، ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ بغضًا وكراهةً وحقدًا وحسدًا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ لأن هذا يدل على ضعف الإيمان، إذ أن النبي ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ بعبادك ﴿رَحِيمٌ ﴾ وبهم ولذلك قال الله عز وجل في شأن علي رضي الله عنه: «لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»، وقال في شأن الأنصار: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ الله ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ الله»، فإن من أظهر علامات الاستقامة على دين الله عز وجل حب المهاجرين والأنصار؛ لأن حبهم صادر عن محبة الله عز وجل وعن محبة رسول الله ﷺ فقد قاموا على هذا الدين خير قيام نصروا بالأبدان والأرواح والأموال والمهج، ونصروا بالعلم والعمل به والدعوة إليه وقدموا دين الله وعظموه فكانت رفعتهم عند الله بقدر تعظيمهم للدين، ﴿رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة:١٠٠]، ووجدوا حلاوة الإيمان فعن أنس رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» **متفق عليه .**

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَالله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾، هذا خبر من الله عز وجل

عما عزم عليه رئيس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومن إليه حيث أغرى اليهود بمخالفة أمر النبي ﷺ، ولو أنه أمرهم بالتوبة والإنابة لكان ذلك خير ولكن لكبرهم وبغضهم لرسول الله ﷺ أبوا إلا المالأة على الكفر.

يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد، ﴿ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في العقيدة، وهذا دليل على كفر المنافقين أصحاب النفاق الأكبر المخرج من الملة،﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وسموا بذلك لأن الله عز وجل أنزل إليهم كتب يتعبدون له بها ولكنهم حرفوها وغيروها وبدلوها، فأنزل على موسى التوراة وأنزل على عيسى الإنجيل، وكان من قولهم لهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي أجليتم من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ يقولون اثبتوا على ما أنتم عليه فإن قدر أن محمدًا أخرجكم خرجنا معكم وتركنا البلاد، ﴿ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ لا نقدم عليكم أحدًا، ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ إن وقع بينكم وبين محمد قتال فإننا سننصركم بالسلاح ونحوه، ولكنهم كذبوا وجبنوا، فاليهود أصابهم الجبن والهلع إذ قذف الله في قلوبهم الرعب والمنافقون أجبن وأسوأ حالًا فالحمد لله الذي رد كيدهم في نحرهم، ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ ﴾ أي: يخبر ويحكم، ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم واعتقادهم وجميع شأنهم .

وفي قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾ رد دعواهم جملةً وتفصيلًا، لإن أُخرج اليهود من بلادهم: ﴿ لا يَخْرُجُونَ﴾ المنافقون ﴿مَعَهُمْ ﴾ لحرصهم على أموالهم ودورهم وشؤونهم، ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا ﴾ أي لو كان بينهم وبين رسول الله ﷺ قتال: ﴿ لا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ لجبنهم وخورهم وضعفهم، ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ لو سُلم جدلاً أنهم نصروا اليهود في حربهم مع النبي ﷺ، ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ﴾ فرارًا وجبنًا وخورًا، ﴿ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾ لا يكون لهم نصر وإنما تكون الدبرة عليهم.

والسبب في عدم نصرهم لهم: ﴿ لَأَنْتُمْ﴾ يا معاشر أهل الإسلام ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ﴾ إذ أن المنافقين يخشون من المؤمنين أشد من خشيتهم من الله، ويراقبون المؤمنين أكثر من مراقبتهم لله؛ ولهذا أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، كما قال تعالى: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء:١٤٢]، وهذا دليل على ضعف تعظيمهم لله، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي السبب في ما حصل لهم: ﴿قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا عقول لهم يدركون بها وعد الله ووعيده وغير ذلك.

﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أي: اليهود وأهل النفاق ، ﴿ جَمِيعًا ﴾ بأجمعهم، ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ في حصونهم وبيوتهم بالنبل أو بالرمي، ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لجبنهم وهلعهم وحرصهم على الحياة ولخوفهم من الموت، بينما كان المسلمون يأتونهم وجهًا لوجه ويبارزونهم ويقاتلونهم، ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ فيما هم مع بعضهم

يظهرون الشجاعة والشكامة والقوة، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: في حالهم، ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ مختلفون متفرقون لفساد عقائدهم ومذاهبهم، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى.

حال اليهود: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ كفار قريش في غزوة بدر حين خرجوا لمبارزة النبي ﷺ وقتاله فأهانهم الله وقتل منهم سبعون وأُسر سبعون وقيل يهود بني قينقاع، ﴿ ذَاقُوا﴾ لقوا ﴿وَبَالَ﴾ نكال ﴿أَمْرِهِمْ ﴾ الهزيمة التي لحقتهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع في الدنيا والآخرة.

ومثل المنافقين الذين أغروا اليهود على حرب النبي ﷺ: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الرجيم عليه لعنة الله ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ أمره بالكفر ومناه ورغبه، ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ بالله عز وجل، ﴿ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ أي: الشيطان تبرأ من الإنسان، ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وخوفه ليس بنافع له؛ لأنه تكبر وأبى السجود لآدم عليه السلام بأمر الله، فذكر الله بهذا الموطن مثل اليهود بهزيمتهم ومثل المنافقين بكذبهم وخداعهم، وقد ذكر الله عز وجل ما كان من الشيطان في بدر: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الأنفال:٤٨].

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أهل النفاق واليهود، ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ ﴾ يوم القيامة، ﴿ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، فإن الظلم يطلق ويراد به الكفر وما دون الكفر ويعرف ذلك بالسياقة، ولذلك يقال: ظلم دون ظلم، وكفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وبدعة دون بدعة.

ثم خاطب الله عز وجل المؤمنين بعد أن ذكر ما كان من شأن النبي ﷺ مع اليهود وما حصل له من النصر والضفر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ﴾ اتقوا الله عز وجل وراقبوه بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي: من الأعمال فهي مجازاة بها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ كرر الأمر بالتقوى؛ لأهميتها وعظيم شأنها، ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع على ظواهر أعمالكم وبواطنها لا تخفى عليه خافية؛ فإذا جُمع العليم مع الخبير، فالعليم: يدل على العلم بالظاهر، والخبير: يدل على العلم بالباطن، أما إذا افترقا فكل اسم يدل على معنى الآخر.

﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿ كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ ﴾ تركوا عبادة الله عز وجل، فالنسيان يأتي بمعنى الترك، ﴿ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وهذا من شديد العذاب الدنيوي فضلًا عن الأُخروي أن من نسيء الله وجهله فهو لنفسه أجهل، فإذا أردت التوفيق من الله عز وجل فكن مبادرًا إلى مرضات الله ملتزمًا لشرعه، ونسيانهم لأنفسهم أنهم لم يوفقوا للهداية فكيف بنسيان الله لهم يوم القيامة: ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة:٦٧]، ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[الجاثية:٣٤]، ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾[آل عمران:١٥١]، تركهم ربنا عز وجل في النار يعذبون في حميمها ويشربون من غساقها، ويلبسون من ثيابها:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦]، ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن الطاعة.

ثم أخبر الله عز وجل عن حال المسلمين والكافرين فقال: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وهم الكفار، ﴿ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ وهم أهل الإيمان، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧]، وأما في الآخرة: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

ثم قال الله عز وجل مخبرًا عن عظيم آيات القرآن الذي يتلى علينا في الليل والنهار، وربما لم نتفطن لمعانيه ولم ننزجر لزواجره: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الذي أنزل عليك يا محمد، ﴿ عَلَى جَبَلٍ ﴾ صلب عظيم، ﴿ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ﴾ قد أصابه الخشوع؛ بسبب خوفه من الله عز وجل، ﴿ مُتَصَدِّعًا ﴾ متشققًا تنهار قواه كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوتَى ﴾[الرعد:٣١]، أي: لكان هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، ﴿ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ من خوف الله مع تعظيمه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:٢٨]، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ ﴾ التي تتلى عليك في القرآن، ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، كما قال الله عز وجل، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ويتعظون فينزجرون عن باطلهم ويقبلون على طاعة ربهم؛ لكن الواقع ما قاله الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[الزمر:٤٥]، وقليل هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢].

ثم عرف الله عز وجل بنفسه المقدسة فقال: ﴿ هُوَ الله ﴾ أي: الذي أنزل عليك هذا القرآن وضرب لك هذه الأمثال ونصرك وأعزك وأكرمك، ﴿ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك له في ملكه ولا شريك له في أُلوهيته، وهذا معنى: لا إله إلا الله، واسمه أيضًا الإله المعبود محبةً وتعظيمًا، ، ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[الحج:٦٢].

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ عالم ما غاب عن نواظركم ولم تتطلعوا عليه أو ما خفي في صدوركم، ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ هو ما كان مرئيًا لكم فالله عز وجل مطلع على ما ظهر ومطلع على ما بطن، ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ في ذاته والرحمن بعباده، فالرحمن هو ذو الرحمة، واسم الرحمن من الأسماء المختصة به لم يسم به إلا مسيلمة الكذاب كبرًا وعنادًا، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ وهو أيضًا الرحيم ذو الرحمة، وانظروا إلى فضيلة هاذين الاسمين إذ جعل في البسملة التي تتقدم كثيرًا

من الأعمال: بسم الله الرحمن الرحيم، وهكذا في سورة الفاتحة التي تُقرأ في كل ركعة حتى قال بعض أهل العلم: لما قال الله عز وجل: ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، دلت على الوعيد والتهديد أعقبها بقوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:٣]، أي: أنه رحيم بالمؤمنين، بل إنه رحم الكافرين في الدنيا أن رزقهم وأحياهم ومتعهم إلا أنهم أبوا إلا الكفر فعُذبوا يوم القيامة جزاء أعمالهم.

﴿ هُوَ الله ﴾ تكرار لوصفه المقدسة العظيمة، ﴿ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يا عباد الأصنام وعباد الأوثان وعباد البشر، ﴿ الْمَلِكُ ﴾ الذي له الملك المطلق فالسموات ملكه والأراضي ملكه وكل ما فيهما ملكه، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الملك:١].

﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ المنزه عن النقائص والعيوب الذي يثبت له كل كمال مقدس، ﴿ السَّلامُ ﴾ السالم من النقائص والعيوب، وداره دار السلام، ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ المصدق من المؤمنين والصادق في قيله كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا ﴾[النساء:٨٧].

﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ المتسلط على عباده القاهر لهم بقوته وقدرته وقهره لا يخرج عنه شيء من المخلوقات، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع القوي الذي لا يعجزه شيء، وعز عن كل شيء فقهره، كما قال تعالى: ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ ذو الجبروت والقوة والقهر، الذي لا تليق هذه الصفات إلا به، وقيل الشاهد على خلقه بأعمالهم، كما قال تعالى: {وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [البروج: ٩]، وقال: {ثُمَّ الله شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٤٦] .

﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ لعظمه وأحقيته بذلك فهو بالصفات العلية والأسماء الحسنى الجلية؛ ولهذا قال: «الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ»، بينما المخلوق لا يجوز له أن يتكبر، فصفة الكبر في حق الله كمال وفي حق المخلوق نقص؛ لأنه عاجز ضعيف، ﴿ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه لله عز وجل عن كل ما يقوله أهل الشرك والعناد والكفر والبغي والجحود من ادعاء الصاحبة والولد والشريك والنظير والمثيل.

﴿ هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ ﴾ الخلق التقدير والبراء وهو التنفيذ كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾[الأعلى:٢-٤]، حيث أوجد الخلق من العدم كما قال عن نفسه المقدسة: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢].

﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ للإنسان وغيره كما أراد كما قال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[التغابن:٣].

﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ الكثيرة التي لا يعلمها إلا هو ففي حديث ابن مسعود: « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ نُورَ صَدْرِي، وَرَبِيعَ قَلْبِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغُمِّي » **أخرجه الحاكم وهو حديث ثابت**

كما بينت ذلك في كتابي (التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين)، ولا يجوز دعاء الله إلا بالأسماء الحسنى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠]، والأسماء الحسنى: هي المأخوذة من القرآن والسنة فمن حسنها: أنها أسماء مدح وتتضمن صفات مدح، وأنها مذكورة في الكتاب والسنة، وأن الله عز وجل يُدعى بها.

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كما تقدم إما بلسان الحال والمقال، وإما بأحدهما ولا مانع أن يُسبح له بلسان المقال أيضًا كقول الله عز وجل: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ينزهونه ويقدسونه ويعظمونه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب، و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أفعاله على مقتضى حكمته، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، فلم يكن في ملكه إلا ما شاء، وما شاء فهو على مقتضى علمه وحكمته.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

وهي مدنية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾.

وسبب نزولها ما جاء في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ الله ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ – قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا – وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة: ١].

واستدل بهذه الحادثة على جواز قتل جاسوس الكافرين على المسلمين، وإن كان من المسلمين وتكلم عنها ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد فقال (٣/ ٣٧١):

وَفِيهَا: جَوَازُ قَتْلِ الْجَاسُوسِ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا؛ لِأَنَّ عمر – رَضِيَ الله عَنْهُ – سَأَلَ رَسُولَ الله – ﷺ – قَتْلَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ لَمَّا بَعَثَ يُخْبِرُ أَهْلَ مَكَّةَ بِالْخَبَرِ وَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ الله – ﷺ –: لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ إِنَّهُ مُسْلِمٌ، بَلْ قَالَ: " «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» " فَأَجَابَ بِأَنَّ فِيهِ مَانِعًا مِنْ قَتْلِهِ وَهُوَ شُهُودُهُ بَدْرًا، وَفِي الْجَوَابِ بِهَذَا كَالتَّنْبِيهِ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ جَاسُوسٍ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْمَانِعِ، وَهَذَا مَذْهَبُ مالك، وَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ أحمد، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وأبو حنيفة: لَا يُقْتَلُ، وَهُوَ ظَاهِرُ مَذْهَبِ أحمد، وَالْفَرِيقَانِ يَحْتَجُّونَ

بِقِصَّةِ حاطب. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ قَتْلَهُ رَاجِعٌ إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ، فَإِنْ رَأَى فِي قَتْلِهِ مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، قَتَلَهُ، وَإِنْ كَانَ اسْتِبْقَاؤُهُ أَصْلَحَ اسْتَبْقَاهُ. وَاللهُ أَعْلَمُ. اهـ

يقول الله ناهيًا المؤمنين عن موالاة الكافرين﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا معاشر المسلمين ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ﴾ أي: أعداء الله من الكفار، ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الذين يتربصون بكم الدوائر، ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ تحبونهم وتودونهم، ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تظهرون لهم المودة، والواجب إظهار البغض والمنافرة لهم، ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أعرضوا وجحدوا وكذبوا ما جاء من وحي الله الحق في القرآن والسنة، وازداد بغيهم أنهم: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة حيث أخرجوا المسلمين مرتين إلى الحبشة، وخرج الرسول ومن معه إلى المدينة فرارًا بالدين، فأُخذت أموالهم وشردوا من بلدانهم وكان هذا أمر ثقيل عليهم فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْحَزْوَرَةِ، فَقَالَ: " عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ " أخرجه أحمد.

وكان سبب إخراجُهم لكم ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي: أنكم تؤمنون بالله ربًا مع أنه يجب على جميع المكلفين القيام بطاعته وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًا وبالإسلام دينًا، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ إن كانت هجرتكم ومشيتكم مع النبي ﷺ لإعلاء كلمة الله والإخلاص لله، فلا يجوز لكم هذا الصنيع من مكاتبتهم والركون إليهم، وأيضاً إن خروجكم لابتغاء مرضات الله، فلا يجوز لكم هذه الموالاة، وينبغي للمسلم أن يسارع في مرضات الله بأنواع الحسنات: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧]، ويقول: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾[سبأ:١٣]، فالله سبحانه وتعالى يرضى عن عباده إن أخلصوا له العمل.

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أي وكيف تسرون المودة للكافرين، والله لا تخفى عليه خافية: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩]، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أي: الموادة لهم والركون إليهم، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ الطريق الحق، لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع والعقل، والموادة للكافرين منها ما هو كفر أكبر مخرج من الملة ومنها دون ذلك وكل بحسبه، وليس منها المكاتبات والمعاقدات التي بين المسلمين والكفار إن لم يكن على سبيل الرضى بدينهم والمناصرة لهم على المسلمين فإن النبي ﷺ قد عاقد اليهود وعاهد المشركين.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم للمؤمنين لتحضيض المؤمنين على كرههم ومقتهم﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ إن يتمكنوا منكم ويدركوكم، ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ تظهر عداوتهم، ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: بالقتل، ﴿

وَأَلْسِنَتَهُمْ ﴾ أي: بالذم والسب والشتم، ﴿ بِالسُّوءِ ﴾ بالأفعال القبيحة، ﴿ وَوَدُّوا ﴾ مع كل هذا ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ فتكونون مثلهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾[البقرة:١٠٩]، فهم يحبون أن يعود أهل الإسلام إلى الكفر كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[البقرة:١٢٠]، ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا دليل على أن صاحب الحق محسود من أهل الباطل، قال النبي ﷺ: «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ» **أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها.**

فإن كانت حجتكم في موالاة الكفار للقرابة فـ: ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ يا من تظنون بهم النصرة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ الذين تتكثرون بهم، ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يحكم بينكم فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مطلع ببصره على كل أعمالكم.

ثم قال الله عز وجل حاضاً للمؤمنين على التأسِّي بإبراهيم عليه السلام: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ قدوة في إبراهيم عليه السلام في تعامله مع الكفار، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الثاني ابن آزر، ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ الذين آمنوا بنبوته ورسالته، ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الذين هم منهم نسباً، ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ ﴾ إنا نبرأ منكم، ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ براءة تامة، لا مودة فيها ولا نصرة كما قال الله عز وجل مخبراً عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨]، فلا يتم الإيمان إلا بالبراءة من الكفر.

﴿ وَبَدَا ﴾ ظهر وبان ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ ﴾ ولا يكفي البراءة من عبادتهم أو البراءة منهم حتى تُظهر العداوة للكافرين بالأبدان والبغضاء بالقلوب وليس لها وقت أو حد بل ، ﴿ أَبَدًا ﴾ لا تنقطع ما دمتم على كفركم، ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا آمنتم بالله وتبتم إليه وأنبتم وصرتم من أهل الإسلام فعند ذلك تذهب العداوة والشحناء والبغضاء، ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثنى هذا الأمر لأن إبراهيم وعد أباه بالدعاء له كما قال: ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾[مريم:٤٨]، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة:١١٤]، والحال أن ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هو الذي يعفو عن من شاء ويعذب من شاء ممن يستحق العذاب فلا يستدل مستدل بهذه الواقعة على جواز الدعاء للكافرين والمودة لهم والقرب منهم بل قال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ حين دعوا الله وتوكلوا عليه ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ عودة إلى الله واعتماد عليه فيما يقع للإنسان، ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ رجعنا بطاعاتنا وعباداتنا، ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ نحشر إليك يوم القيامة ومن قول إبراهيم عليه السلام والمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيفتنوننا عن ديننا بالقتل أو الضرب أو السجن أو نحو ذلك، ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ تجاوز عنا، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إنك أنت العزيز الذي لا يغلب، والحكيم في أمره ونهية، فتوسل إلى الله بعزته وحكمته على نصرته على الكافرين.

ثم قال مكررًا لهم بالحث على هذه الأسوة والقدوة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أسوة طيبة وقدوة عظيمة، ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ يتأسى بهم رجاء ثواب الله وتقربًا إليه، ورجاء الكرامة في اليوم الآخر، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن البراءة من المشركين والموالاة للمؤمنين، ﴿ فَإِنَّ الله هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي صاحب الغنى المطلق وغني وغناه ذاتي: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»، ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ الذي يحمد على صفاته العلية بلسان الحال والمقال.

ثم قال الله عز وجل مبينًا أن هذه العداوة قد تنقطع: ﴿ عَسَى ﴾ في حق الله موجبة، ﴿ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أن تكون بينكم، ﴿ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ من كفار قريش، ﴿ مَوَدَّةً ﴾ بعد إسلامهم ورجوعهم إلى الله عز وجل، ﴿ وَالله قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿ غَفُورٌ ﴾ متجاوز عما ألمَّ به العبد ثم تاب، ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]، وفي هذه الآية دليل على أن الله عز وجل قد أطلع نبيه أن بعض كفار قريش سيسلم، وقد أسلم كثير منهم ولله الحمد وممن أسلم سهيل بن عمر، وأبو سفيان، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وجمع ممن استأنى بهم النبي ﷺ.

ثم قال الله عز وجل مبيناً من يجوز الإحسان إليهم من الكفار: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي: أن الله عز وجل لا ينهاكم عن الإحسان إلى أقاربكم الذين لم يقاتلوكم ولم يؤذوكم ولم يخرجوكم من دياركم، فهؤلاء يجوز أن تحسنوا إليهم بالعطية والهدية والهبة والكلمة الطيبة؛ فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ» متفق عليه .

﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ من البر، ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ تحسنوا إليهم، ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين، فيحب الله العدل وأهله، وفيه: إثبات صفة المحبة لله عز وجل بين هنا الصفات الفعلية.

ثم أخبر الله عمن لا تجوز الإحسان إليهم : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله ﴾ عن مودة والقرب، ﴿ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يعني: قاموا عليكم بالقوة بسببدينكم، ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ طردًا بسبب النكال والعذاب حتى هاجرتم إلى المدينة، ﴿ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ﴾ تعاونوا وتمالأوا على إخراج المسلمين، ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ فهؤلاء لا يجوز لكم أن تتولونهم ولا أن يحبونهم ولا أن يناصرونهم، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ على التفصيل الذي سبق منه ما يكون كفر أكبر إذا كان محبًا لهم مودًا لهم مناصرًا لهم على المسلمين ومنه دون ذلك.

فلما كان صلح الحديبية اشترط المشركون على النبي ﷺ أن من جاءه من المسلمين رده إليهم، وقد رد النبي ﷺ إليهم أبا جندل ابن سهيل بن عمر غيره، ففي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهمَّ، فَقَالَ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ»، قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ»، فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا».

ثم استثنى الله عز وجل المؤمنات؛ لأن النساء ضعيفات ربما تفتن أشد مما يتعرض له الرجل؛ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ﴾ يا أهل الإيمان، ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ المكيات، ﴿ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى المدينة، ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ اختبروهن، بالسبب الذي جعلها تهاجر هل رغبة في زوج؟ وحرص على مال ودنيا؟ فهذه ترد إلى الكفار، وأما إذا امتحنت ووجدوا أنها مسلمة مؤمنة والذي حملها على الهجرة هو الإيمان والإسلام فلا يجوز لها أن ترد، ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ مطلع على ما في قلوبهن وأنتم اختبروهن وعاملوهن بالظواهر، ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أي: علمتم منهن الإيمان، ﴿ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ لا يجوز لكم أن تسلموهن إلى الكفار فربما انتهكوا أعراضهن وربما فتنوهن في دينهن إلى غير ذلك، ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ حتى ولو كان زوجًا لا يجوز أن ترجع إليه؛ لأن نكاحه لها وهي مسلمة سفاح لا نكاح، ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ لأن الله حرم نكاح المشركات إلا أنه أباح نكاح الكتابيات المحصنات حيث قال: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} [المائدة: ٥]، ﴿ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ لا المرأة المسلمة حل للكافر ولا المسلم تحل له الكافرة، فلا يجوز إلا ما استثناه الدليل من الكتابية المحصنة، ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعني: إذا طالبوكم بنفقة زوجاتهم والمهور فآتوهم ذلك من بيت مال المسلمين حتى لا يتكلموا ويقولوا: أخذوا علينا زوجاتنا وما أعطونا مقابل ذلك، ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي: إذا انتهت عدتهن، وعدة المرأة إذا هاجرت وكان زوجها كافرًا أن تستبرئ بحيضة، أما إذا هاجر الزوج وأسلم وأدرك زوجته قبل أن تتزوج فهو أحق بها، وإن كانت قد تزوجت فلا سبيل له إليها، ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: مهورهن، ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ الكافرات في عصمة المسلمين، ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ من المهور ونحو ذلك، وهذا السؤال يسألونه من بيت مال المسلمين؛ لأن الكافر قد لا يعطي ذلك، وإن أعطى فحسن، ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ كل يأخذ ما له وما عليه، ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ بين المسلمين والكافرين، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يُصلح العباد، ﴿ حَكِيمٌ ﴾

بوضع الأمور في مواضعها، وهذه الآية كان فيها فرج بعد شدة إذ نفس الله عن المؤمنات والمسلمات فإن رجوعهن إلى الكفار شديد وقعه، والله المستعان.

ثم قال: ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ إن ذهبت بعض أزواجكم مرتدات، ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ يعني: أردتم المعاقبة للكفار، ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ أي: ردوا إليهم مهورهم ونفقاتهم، من بيت مال المسلمين ومن الغنائم ﴿ وَاتَّقُوا الله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ نداء للنبي ﷺ، ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ المسلمات، ﴿ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي: في البيعة، وبيعة النبي ﷺ للنساء إنما كان كلامًا، فعن عائشة رضي الله عنها: قالت: ما مَسَّ رسولُ الله – ﷺ – يدَ امرأةٍ قطُّ إلا أن يأخذَ عليها، فإذا أخذَ عليها فأعطتْه قال: "اذْهَبي فقد بايعتُكِ" أخرجه أبو داود، ﴿ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا ﴾ وهذه البيعة عامة للرجال والنساء، إلا أن النساء يستثنين من بعض الشيء وإلا فإن النبي ﷺ كان يبايع الرجال وعلى بيعة النساء، فعن عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا – قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ – فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ» متفق عليه .

﴿ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا ﴾ في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ وَلا يَسْرِقْنَ ﴾ أموال الغير المحرزة فإن هذا حرام فجيب عليهن أن يؤدين حق الله بالتوحيد وأن يؤدين حق الناس بالأمانة، ﴿ وَلا يَزْنِينَ ﴾ لا يقعن في الفاحشة المستقبحة، ﴿ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ بالوأد وقد كان فاشيًا في ذلك الزمن، ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ لا يكذبن على أنفسهن ولا على غيرهن، ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ والنبي ﷺ إنما يأمر بالمعروف، ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ تطيبًا لخاطرهن وإحسان إليهن، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله ﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر لمن تاب إليه وعاد ورجاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ لما افتتح السورة بالبراءة من المشركين والنهي عن موالاتهم أيضًا قال: ﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ بسبب كفرهم وعصيانهم، ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ لم يؤمنوا بالعبث والنشور واليوم الآخر، ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ كما أن الكفار يائسون من بعث من في القبور فهؤلاء كذلك يأسوا من الآخرة ولم يؤمنوا بها مع ظهور الحجج القويمة على إثبات اليوم الآخر وضرب الأمثال الدالة على النشأة الأخرى كما كانت النشأة الأولى.

وفيه: إثبات غضب الله عز وجل حيث يغضب على الكافرين ومن أراد من عصاة المسلمين .

وبهذا تعلم أن سبب كفر الكفار وبعدهم عن الإسلام هو كفرهم بالبعث والنشور، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصف

﴿ سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم الكلام على هذه الآية، وأن الله عز وجل نزه نفسه، وكذلك مخلوقاته تنزهه عن كل نقص وعيب، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ التي تكون أفعاله على مقتضى حكمته فيوضع كل شيء في موضعه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ وهذا كقوله: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:٤٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء:٧٧]، وفي مستدرك الحاكم عن عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَعَدْنَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَا: " لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله، عَمِلْنَا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ".

﴿ كَبُرَ ﴾ عظم ،﴿ مَقْتًا ﴾ المقت: البغض، ﴿ عِنْدَ الله ﴾ عز وجل، ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ أن تقول قولًا وتخالفه بالفعل فإن الله يبغض ذلك ومقت الله شديد، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} [غافر: ١٠] نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ خبر من الله؛ لأن أحب الأعمال إليه القتال في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته، وفيه: إثبات صفة المحبة لله عز وجل وهي من الصفات الفعلية، وكان القتال من أحب الأعمال إلى الله؛ لأن المقاتل في سبيل الله يبذل نفسه ومهجته وربما ماله، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ - قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، إِلا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» متفق عليه، ﴿ فِي سَبِيلِهِ ﴾ فيه الإخلاص، فمن قاتل حمية أو شجاعة أو رياءً لا أجر له، فعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً،

وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله» متفق عليه، ﴿ صَفًّا ﴾ فيه: استحباب صف المقاتلين فإن ذلك أهيب في قلوب أعدائهم وأجمع لكلمتهم، ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ كأنهم البناء، وهكذا يتعين في الصلاة أن يتراص الناس في الصف، وقد قال النبي ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ ، قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» أخرجه مسلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾، يقول الله عز وجل: واذكر يا محمد، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ من بني إسرائيل حيث آذوه واتهموه أنه آدر أي: كبير الخصيتين، وهذا معيب عندهم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ. وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَالله مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ. قَالَ: فَجَمَحَ مُوسَى بِإِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَةِ مُوسَى قَالُوا: وَالله، مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّى نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَالله إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرْبُ مُوسَى بِالْحَجَرِ» متفق عليه .

وقد أنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ الله وَجِيهًا ﴾[الأحزاب:٦٩]، وقد أُوذي موسى عليه السلام أيما أذى حتى قال النبي ﷺ: « يَرْحَمُ الله مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» **متفق عليه عن ابن مسعود** رضي الله عنه، ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ أي: بالتعيير والسب ونحو ذلك، بل قد أُذي الله ففي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ »، ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾ أرسله وأنزل معه التوراة وكلمه تكليمًا، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ مالوا عن الحق، ﴿ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ أمالها فانحرفت، ففي هذا دليل على الإيمان بالقدر، وأن الهدى والزيغ بيد الله يهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، ﴿ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الكافرين؛ لعلمله أنهم ليسوا أهلًا للهداية، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣].

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾، واذكر يا محمد: ﴿ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ الذي خلقه الله عز وجل من أم بدون أب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩]، ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق عليه السلام، فينادي ذريته: ﴿ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾ أرسلني الله عز وجل وأنزل معه الإنجيل، ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيَّ ﴾ أي: مما أنزل من الكتب، ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ وهي الكتاب العظيم لبني إسرائيل، ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وهذه بشارة عيسى بأحمد وهي موجودة عندهم في الإنجيل وإنما حرفوها وبدلوها وإلا فكثير من النصارى والقساوسة يعلمون أن وصف محمد ﷺ في الإنجيل، وربما سُمي بالفرقليط أو نحو ذلك من الأسماء؛ لكن أسماؤه وصفاته دالة على أنه محمد ﷺ؛ ولذلك آمن بالنبي ﷺ كثير من النصارى، وقال هنا: ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ لأنه لم يوجد بعد أي: أنه سيكون حامدًا لله عز وجل، وسماه بعد وجوده محمد أي: أنه حامد في الحال، فأسماء النبي ﷺ كلها أسماء مدح وكمال وصفات عظيمة جليلة، فهو كثير حمد لربه وهو محمود على كثرة أفعاله العظيمة الجليلة، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ جاءهم بالقرآن، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ كما ادعوا أن التوراة سحر: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾أي: لا أظلم، ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ ﴾ إلى الدخول في دين محمد ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» **أخرجه مسلم عن أبي هريرة** رضي الله عنه ، ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين.

﴿ يُرِيدُونَ ﴾ أي: الكفار، ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يكذبون ويتمالأون ويتحزبون لإطفاء نور الإسلام، و﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: أنهم يتكلمون فيه بالباطل ويزهدون ويحذرون منه، ﴿ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ سيتم نور الإسلام فعن المقداد بن الأسود ت قال قال رسول الله ﷺ: «لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الْإِسْلَامَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ» **أخرجه أحمد**، هكذا يقول النبي ﷺ، وعن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ» **أخرجه أحمد**، وعن ثوبان رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ لكن هذا إلى ما شاء الله ثم يرجع الناس إلى عبادة اللات والعزى فعن عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ» **أخرجه مسلم** .

﴿ هُوَ ﴾ أي: الله، ﴿ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ أي: محمد ﷺ، ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أي: بالعلم النافع، ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي: العمل الصالح، ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ليعليه على جميع الأديان والملل، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ولو تمالأوا وتحزبوا إلى غير ذلك، وفي هذا دليل على أن ظهور الدعوة يكون بالعلم والعمل، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» **متفق عليه عن معاوية والمغيرة** رضي الله عنهما، فمن علم ولم يعمل كان مشابهًا لليهود، ومن عمل ولم يعلم كان مشابهًا للنصارى، ومن علم وعمل كان من الطائفة المنصورة الفرقة الناجية.

ثم قال الله عز وجل حاثًا للمؤمنين على مكارم الأخلاق وفضائل الطاعات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أرشدكم وأخبركم، ﴿ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ تكون بينكم وبين الله، ﴿ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يسلمكم الله بسببها من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ ﴾ والإيمان بالله أفضل الأعمال فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِالله»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ» متفق عليه .

ويدخل فيه: الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾[النساء:١٣٦]، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ وهو محمد ﷺ، والإيمان به يتضمن الإيمان بجميع الرسل كما قال تعالى: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[البقرة:٢٨٥]، ويتضمن الإيمان بما أخبر أن يطاع فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع، كما قال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧]، ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ سواءً جهاد النفس أو جهاد الشيطان أو جهاد المنافقين أو جهاد الكافرين، لكن هي في حق جهاد الكافرين أظهر، ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ بالبذل والعطاء لتجهيز الجيوش، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ» **أخرجه مسلم**، ولما جهز عثمان بن عفان جيش العسرة بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي: ببذلها في ساحات الوغى وساحات القتال لإعلاء كلمة الله عز وجل، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والتمكين وإذلال الكافرين، وفي الآخرة بالرفع بالدرجات: ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة:١١١]، ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بجميع أعمالكم .

فإن فعلتم ذلك: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ السابقة وإن متم مغفرة جميع الذنوب؛ لأن القتل في سبيل الله كفارة لكل ذنب إلا الدين كما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ، ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ ﴾ يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار؛ لأن أنهار الجنة لا أخاديد لها، ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ من فضة وذهب، كما قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا» **أخرجه مسلم عن أبي موسى** ﷺ، ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ في جنات عظيمات، ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز بعده؛ لأنه فوز الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥] .

﴿ وَأُخْرَى ﴾ وهي ما تكون في الدنيا، ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ تودونها، ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ ﴾ فبشر الله عز وجل المؤمنين بأمرين: الأمر الأول: جزاء المجاهدين في سبيل الله في الآخرة، والأمر الثاني: جزاء المجاهدين في سبيل الله في الدنيا، وكله محبوب إلى نفوسهم، والنصر محبوب: ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ يفتح على المؤمنين بالنصر والتمكين، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشر المنقادين لشرع الله المجاهدين في سبيل الله بكل خير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيقع لكم النصر كما قال الله: ﴿ كُونوا أَنصَارَ اللهِ ﴾ وفي قراءة: (كونوا أنصارًا لله) تنصرون دينه وتجاهدون لإعلاء كلمته: ﴿ إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد:٧]، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾[آل عمران:١٢٦]، وأقول لكم: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ الذين نصروه؛ لأن الحواري الناصر، قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ» **متفق عليه**، ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ ﴾ من ينصرني في تبليغ دين الله، ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وكانوا اثنا عشر، ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ﴾ ننصرك ونبلغ دينك ونقوم معك، ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ حين بلغتهم الرسالة النبوية، ﴿ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ أعرضت وهم اليهود حيث أرادوا قتل عيسى عليه السلام وسلمه الله منهم، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ عالين عليهم وهذا في آخر الأمر بعد بعث النبي ﷺ، انتصر أهل الحق الذين يقولون: بأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأما بعد رفع عيسى عليه السلام فقد اختلفت النصارى إلى ثلاث طوائف: طائفة قالت: بأنه الله وارتفع، وطائفة قالت: بأنه ابن الله رفعه الله إليه، وطائفة قالت: بأنه عبد الله ورسوله، وهذه الطائفة قاتلوهم المشركون وأهانوهم فلما كان مبعث النبي ﷺ انتشر الإسلام ودخل من دخل منهم في هذا الدين وأصبح الذين هم على طريقة عيسى حقًا هم الذين هم على طريقة محمد ﷺ حقًا وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[آل عمران:٥٥]، فليس المعنى

الذين اتبعوا عيسى في قولهم بأن عيسى رب أو ابن؛ فهؤلاء لم يتبعوا عيسى حقاً وإنما المراد الذين اتبعوه أي: اتبعوا ما جاء به من الوحي الذي أقره النبي ﷺ ودعا إليه، والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة

﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾، ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ قد تقدم الكلام عليه، والتسبيح: التنزيه والتقديس، ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي: الذين في السموات من المخلوقات وهم الملائكة، ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: الذي في الأرض من جميع الكائنات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، ﴿ الْمَلِكِ ﴾ الذي له الملك المطلق وقال: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الفرقان:٢]، ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ المنزه من كل عيب ونقص، ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القوي الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يعجز، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ الذي يكون في ملكه ما هو على مقتضى حكمته وعلمه.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ من أنفسهم بل من خيرتهم قال النبي ﷺ: «فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ»، وهكذا يبعث الله عز وجل في كل أمة رسول منها من خيرتها نسبًا وهو محمد ﷺ، والأميون: العرب سموا بالأميين؛ لأنهم لم يكونوا يقرأون ويكتبون في الغالب، قال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَحْسُبُ وَلَا نَكْتُبُ، وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»، أي: بالإشارة، وهكذا كان العرب يتبايعون بالإشارة فالكتابة كانت قليلة فيهم، فبعث الله إليهم محمدًا ﷺ، ولهذا إذا قيل: الأمة الأمية يريدون بها الأمة التي بعث فيها محمد ﷺ نسبة إلى أن النبي ﷺ كان أميًا لا يقرأ المكتوب ولا يكتب، وأما من زعم أن الأمي نسبة إلى أم القرى فهذا تفسير باطل تفسير الرافضة ومن إليهم، أما تفسير المسلمين: أن النبي ﷺ لم يكن يكتب قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت:٤٨]، وما جاء أنه كتب يوم الحديبية إنما هي آية من آيات الله كتب اسمه وكتب بسمك اللهم؛ لأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفض أن يمحها قال: والله يا رسول الله إنك رسول الله، فرفض أن يمحها فرآها النبي ﷺ فمحاها ثم كتب بدلها، وهذه آية وليس معنى ذلك أنه كان يكتب فعَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا أُحْصِرَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْبَيْتِ، صَالَحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ، السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعَ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ: «اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله»، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله تَابَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا وَالله، لَا أَمْحَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرِنِي مَكَانَهَا»، فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِ الله، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ قَالُوا لِعَلِيٍّ: هَذَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ، فَأْمُرْهُ فَلْيَخْرُجْ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَخَرَجَ، وقَالَ ابْنُ جَنَابٍ فِي رِوَايَتِهِ مَكَانَ تَابَعْنَاكَ: بَايَعْنَاكَ» أخرجه مسلم.

﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يقرأ عليهم القرآن الذي أوحاه الله إليه، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يزكي نفوسهم بطاعة الله عز وجل، وعن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا » **أخرجه مسلم**، وفي قول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[النور:٢١]، فالنبي ﷺ سبب للزكاة، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعلمهم القرآن، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ السنة، فكله وحي الله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله ﴾[الأحزاب:٣٤]، القرآن، ﴿ وَالْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤]، السنة.

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أن يرسل إليهم محمداً ﷺ، ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث كانوا يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويقتل القوي الضعيف، وعن السائب بن يزيد أَنَّ أَهْلَهُ بَعَثُوا مَعَهُ بِقَدَحٍ فِيهِ زُبْدٌ وَلَبَنٌ إِلَى آلِهَتِهِمْ، قَالَ: فَمَنَعَنِي أَنْ آكُلَ الزُّبْدَ لِمَخَافَتِهَا، قَالَ: " فَجَاءَ كَلْبٌ فَأَكَلَ الزُّبْدَ وَشَرِبَ اللَّبَنَ، ثُمَّ بَالَ عَلَى الصَّنَمِ وَهُوَ: إِسَافٌ، وَنَائِلَةُ" أخرجه الدارمي.

وفي مسند أحمد في قصة جعفر قال: «أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ الله إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، " فَدَعَانَا إِلَى الله لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ "، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ» .

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ أخبره الله به، وقد نزلت هذه في سلمان الفارسي ومن إليه، فانتصر الإسلام بعد فتح فارس وما وراء النهر، وتجد أن كثيرًا من علماء المسلمين كانوا من تلك البلدان: البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو داود وغيرهم كثير من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ لَمَّا قَرَأَ: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[الجمعة:٣]، قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ الله؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، وَقَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» **متفق عليه**، ولكن ليس في الآية فضيلة لإيران الآن؛ لأنهم قد انقلبوا من المذهب السني والدين المستقيم الذي جاء به النبي ﷺ إلى مذهب الرافضة الإثنى عشرية، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ ذَلِكَ﴾ الهداية إلى الإسلام ﴿فَضْلُ الله ﴾ منة الله عز وجل على عباده ، ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من علم فيه الهدى والخير، ﴿ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع، فالجنة فضله، والدين فضله، والعلم فضله، وكل خير في

الدنيا والآخرة فهو فضل الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء:٣٢]، وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ، أَو عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ» ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا»، ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الواسع.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أي: اليهود، الذين أعطوا التوراة: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها بل وحرفوها، ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ وهو من أخس الحيوان عنده صبر على العمل وصبر على الأحمال؛ ولكنه لا يستفيد شيئًا منها، وضُرب به المثل في البلادة، فالله عز وجل مثل اليهود بالحمير؛ لبلادتهم وملازمتهم لدينهم المحرف، ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ يحمل الكتب الكثيرة على ظهره حساً لكن لا يستفيد منها، وهكذا من انحرف عن العمل بالكتاب من أجل الدنيا كالكلب، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، فضرب الله مثلين لحامل العلم الذي لم يعمل به أحدهما بالحمار والآخر بالكلب، ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ بئس هذا المثل المضروب لهذا الصنف، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ كفروا بها وردوها، ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يهدي الكافرين لعلمه أنهم ليسوا أهل الهداية وإلا فقد أنزل القرآن والوحي لهدايتهم لكن لم يستجيبوا كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠]، وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣].

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ يا معاشر اليهود، ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ ﴾ أخبرتم وقلتم، ﴿ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ كما قالوا: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[المائدة:١٨]، ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾[البقرة:١١١]، فزعموا أنهم أبناء الله وأحباء الله، فإن كنتم كما تقولون: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ وهذا كالمباهلة ولو تمنوه لناهم؛ لكنهم لن يتمنوه لعلمهم بصدق النبي ﷺ ولذلك قال الله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لأن ما عند الله خير لكم وأبقى، لكن الواقع أنهم ليسوا بأولياء لله فإذا ماتوا كانوا للنار وبئس القرار.

﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ أي يستحيل أن يتمنى اليهودي الموت لعلمه أنه كاذب في دعواه، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر وقتل الأنبياء واستحلال الحرام وتحريف التوراة، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ بالكافرين المتمردين على شرعه العظيم فلا تخفى عليه خافية ويجازون على أعمالهم .

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ أي: الموت الذي ترهبون منه وتخشونه، ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ يعترضكم وأنتم في حياتكم، كما قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء: ٧٨] وانظر كيف قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ ولم يقل يدرككم؛ وذلك أن الفار من الشيء إذا كان المتابع يأتيه من الخلف قد يفوته لكن عند أن تفر ثم يأتيك فجأة فإنه يقطعك، ولهذا رسم النبي ﷺ خطًا طويلًا بعد أن رسم الإنسان قال: «هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الْخَطُّ الْخَارِجُ: أَمَلُهُ»، بعيد، ثم خط خطًا عرضًا قال: «وَهَذَا أَجَلُهُ» **أخرجه البخاري**، يعني: بينما الإنسان يؤمل في البعيد يأتيه الأجل:

والموت يأتي بغتةً ❊❊❊ والقبر صندوق العمل

﴿ثُمَّ ﴾ ماذا بعد الموت ﴿ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ إلى الله الذي يعلم الغيب غاب عنكم، والمشهود فلا تخفى عليه خافية، ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ يخبركم يوم القيامة، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذه في حال تقرير الله عز وجل للعبد فعن عدي بن حاتم ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» **متفق عليه**، والحال ما قاله الله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى ﴾[الزخرف:٨٠]، نعلم سرهم ونجواهم، وزد على ذلك: ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف:٨٠]، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨]، فإذا كان المؤمن قرره الله بذنوبه سترًا له ثم يبدل السيئات حسنات، وإذا كان الكافر والمجرم قرره الله بذنوبه، فَيُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿ أَلا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا معاشر أهل الإيمان، ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ أي: لصلاة الجمعة التي هي في وقت صلاة الظهر، ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ الله ﴾ فامضوا إلى طاعة الله وسماع الذكر والعلم الذي يُلقى عليكم، ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي واتركوا البيع والشراء ويدخل فيه العتاقة والهبة وعقد النكاح وجميع العقود في وقت خطبة الجمعة، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي شهود الجمعة والخير خير لكم في الدنيا والآخرة، ﴿ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينفعكم.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ ﴾ أي انتهيتم من صلاة الجمعة، ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ وهذا أمر للإباحة فلا يلزم أن تخرج من المسجد ؛ لكن إذا أحببت أن تخرج خرجت، ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله ﴾ من رزقه، ﴿ وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا ﴾ في أدبار صلواتكم وصبحكم ومساءكم وفي جميع شأنكم، كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت:٤٥]، وقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة:١٥٢]. ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تحصلون على المطلوب وتأمنون من المرهوب، فمن

أعظم أسباب الفلاح ذكر الله، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ مَكِّيٌّ: وَأَزْكَاهَا، عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ " قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: " ذِكْرُ الله عَزَّ وَجَلَّ " أخرجه أبو داود .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ هذا خبر عما حصل من المسلمين في ذلك اليوم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَاءَتْ عِيرٌ مِنَ الشَّامِ، فَانْفَتَلَ النَّاسُ إِلَيْهَا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وفيهم أبو بكر وعمر فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْجُمُعَةِ: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [الجمعة: ١١]".

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ بيعاً وشراءً، ﴿ أَوْ لَهْوًا ﴾ من اللعب، ﴿ انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ أي: انفضوا من المجلس وخرجوا منه إلى هذا الأمر المذكور وتركوك قائمًا تخطب، ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[الضحى:٤-٥]، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[الأعلى:١٦-١٧]، وقال: ﴿ وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ خير المعطين، ومن أسباب رزق الله عز وجل: المحافظة على الصلاة، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى اشتراط حضور اثني عشر رجلاً للجمعة بسبب نزول هذه الآية، ولا دلالة لهم فيه، بل الجمعة تصح بما تصح به الجماعة على القول الصحيح من أقوال أهل العلم، وفيها أيضاً أن الخطيب يكون قائماً فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: " انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخَبِيثِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، وَقَالَ الله تَعَالَى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [الجمعة: ١١] " متفق عليه .

وفي فضل الجمعة:

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَضَلَّ الله عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ الله بِنَا فَهَدَانَا الله لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» متفق عليه .

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ الله شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» متفق عليه .

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» متفق عليه .

انتهينا من تفسير هذه السورة.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

مدنية، ويقال: المنافقون، والكافرون، والمؤمنون على الحكاية، وإلا لو جعلت على الإعراب لقال سورة المنافقين، وسميت بهذا الاسم لذكر المنافقين فيها، وقد كان فشوا النفاق بعد غزوة بدر حين أعلى الله عز وجل شوكة المسلمين وأذل الشرك والمشركين فاعتقد قوم من الأوس والخزرج النفاق وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، ولذلك قال الله عز وجل في شأنهم: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥]، لشدة بغضهم للإسلام ومناصرتهم لأعداء الإسلام.

وقد تمالأوا على النبي ﷺ وأرادوا قتله في غزوة تبوك، وتمالأوا على المسلمين وبنوا مسجد الضرار فأحرقه النبي ﷺ، ووقعوا في عرض عائشة رضي الله عنها واتهموها بما هي بريئة منه، وكانت لا تقع غزوة مع الكافرين إلا ولهم نصيب من التخذيل، ويزعمون أنهم أهل الصلاح وهم أهل الفساد .

وهم متوفرون في كل زمن وحين فمنهم: الباطنية ، والرافضة، وغلات الصوفية، والحداثيون والعلمانيون كثير منهم منافقون وهكذا الاشتراكيون والبعثيون والناصريون، فكل من أظهر الإسلام واعتقد عقيدة أهل الكفر والإجرام كان من المنافقين المتوعدين بهذا العذاب الأليم.

ومن أظهر علاماتهم فرحهم بضعف الإسلام، وحزنهم إذا فضح طريق أهل الإجرام والله المستعان، ولا يجدون فرصة إلا ووجد طعنهم يتسارع إلى المسلمين وإلى خذيلتهم، وضررهم على أهل الإسلام أكثر من ضرر اليهود والنصارى؛ لأن اليهودي والنصراني عداوته ظاهرة أما هذا في ظاهره مسلم وفي باطنه الكفر الصراح.

انظر إلى اليهود والنصارى ما استطاعوا أن يقولوا بأن القرآن محرف مكذوب وإن كانوا في واقعهم يكذبون القرآن، حتى جاء بعض الهلكى من الرافضة وألف كتابًا بعنوان: فصل الخطاب في بيان تحريف كتاب رب الأرباب، يزعم أن هذ القرآن الذي بين أيدينا ناقص، ويزعمون أن هناك قرآن لفاطمة لم يظهر، فبعد ذلك أخذ بعض اليهود والنصارى من هذا الكتاب ما يطعنون به على القرآن العظيم الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[فصلت:٤٢]، والحمد لله هم مهزومون كما قال تعالى: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾[الأحزاب:٦٠-٦١]، وإن ارتفعت رؤوسهم فمآلها إلى الهزيمة، وكم تملك العبيديون على بلاد المسلمين وأبى الله إلا أن يعلي دينه ويرفع كلمته.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ إذا جاءك يا محمد المنافقون الذين يظهرون الإسلام بأقوالهم وبعض أفعالهم ويبطنون الكفر، ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ قالوا بألسنتهم ولم يقروا بقلوبهم إنك لرسول الله حقًا، ﴿ وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ أي أن الله مطلع على أنك رسوله فهو الذي أرسلك، ﴿ وَالله يَشْهَدُ ﴾ يخبر ويُعلِم، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ في اعتقادهم وإن كان قولهم مطابق للواقع إلا أنهم يخالفونه بالاعتقاد فأخبر الله عز وجل بكذبهم، فلذلك لا بد من إصلاح الطوية؛ لأن النبي ﷺ يقول: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وقال الله عز وجل في بيان شرط قبول توبتهم : {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِالله وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤٦] .

﴿ اتَّخَذُوا ﴾ أي: من طريقتهم أنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يحلفون بالله كثيرًا: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[المجادلة:١٤]، ﴿جُنَّةً ﴾ يتقون بها التهمة التي تنزل عليهم، فالجُنة: الشيء الذي يستجن به ويُختفى خلفه، فقد كانوا إذا ثبتت عليهم تهمة يأتون إلى النبي ﷺ ويحلفون بالله ما قالوا وقد نزل القرآن بتكذيبهم: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾[التوبة:٧٤]، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله ﴾ أي: بهذا الأسلوب أنهم يصدون ويحذرون من المسلمين ويؤذونهم، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بئس الأفعال أفعالهم السيئة المخالفة للكتاب والسنة، وسبب نزول هذه السورة ما في الصحيحين عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ خرج في غزوة بني المصطلق فقال عبد الله بن أُبيّ بن سلول لعنه الله: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾[المنافقون:٨]، فسمعه زيد بن أرقم فقال: والله لأخبرن النبي ﷺ، فذهب وأخبر النبي ﷺ فجاء ابن أُبيّ وقال: والله ما قلت يا رسول الله، فبلغ الهم بزيد مبلغًا عظيمًا وقال له عمه: كذبت رسول الله ﷺ، قال: والله ما كذبت فأنزل الله عز وجل هذه السورة فضح بها ابن أُبيّ»؛ ولكن ليس للمنافق وجه فالرجل الصادق المؤمن والحيي إذا ظهرت منه كذبة أو غلطة يبقى ضعيفًا متحرجًا أما المنافق ما له وجه يكذب ويحلف على الكذب ويفضحه الله على الملأ وما زال في غيه، فانظر إلى هذا الرجل الفاجر مع أنه كان من كبار قومه كيف يتعاطى الكذب .

﴿ ذَلِكَ ﴾ السبب الذي جعلهم لا يبالون بالأيمان فيحلفون بالله على الكذب ولا يعظمونه: ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ ظاهرًا، ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ باطنًا، ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ طبع الله على قلوبهم بطابع الكفر والضلال، ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعقلون شيئًا من حكم الله.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يا محمد ومن معك، ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ جميلة أجسامهم، لذيذة أصواتهم كما قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَالله يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد:٢٩-٣٠]، ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يأتون

بكلام منمق مزين، ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ لا يستفاد منها مثل الخشبة التي تلقى في عرض بيت لا يستفاد منها؛ لعدم إخلاصهم وصدقهم، ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ كل ما نزل حكم من أحكام الله ظنوه عليهم، وكلما وقع أمر بالمسلمين ظنوه عليهم يرهبون من الموت، ويرهبون من الأحكام الشرعية، ويرهبون من الزكاة والصيام والحج وغير ذلك، لفساد قلوبهم، ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ حقاً ومن أشدهم ضرراً على المسلمين لأنهم من الداخل يعرفون المدخل والمخرج والضعف والقوة، ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ كن على حذر منهم، ﴿ قَاتَلَهُمُ الله ﴾ أي: لعنهم الله، ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الضلال .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي للمنافقين﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ هلموا، ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يسأل الله لكم المغفرة والرحمة، ﴿ رَسُولُ الله﴾ محمد ﷺ ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ كبرًا وعنادًا، ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يذهبون ويولون، ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: حال استكبارهم.

وفي مسلم (٢٧٨٠) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ، ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ، فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا، خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ» فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ، يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: وَالله لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، قَالَ وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ» .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حالهم واحد يا محمد، ﴿ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾[التوبة:٨٠]، لأنهم كفار في الباطن، ﴿ لَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ مهما استغفرت لهم، ﴿ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الكافرين.

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﴾ أي من صفاتهم التحذير من نصرة الإسلام بقولهم لا تعطوهم الأموال أتركوهم يفتقرون ما يعلمون أن الرزق من عند الله عز وجل، ويظنون أن أهل الإسلام يتنازلون عن دينهم لذلك؛ لا، المستقيم لا يتنازل عن دينه وإن قل ماله وكثر أعداؤه وأُذيَّ، وهذا دليل على أن طريق المنافقين الصد عن سبيل الله بأنواع الصدود، ﴿ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ أي: يذهبوا من حوله، ﴿ وَلله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: " يَدُ الله مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ» متفق عليه، ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء وأنه: ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨].

ومن قولهم: ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أي: إذا رجعنا إلى مدينة رسول الله ﷺ من هذه الغزوة، فعن زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ» فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لَا

تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨] قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، فَقَالَ: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ الله تَصْدِيقِي {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١] قَالَ: ثُمَّ «دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ»، قَالَ: فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وقَوْلُهُ {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} [المنافقون: ٤] وَقَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ» أخرجه مسلم .

﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ ﴾ يقصد نفسه وهو الذليل، ﴿ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ يقصد النبي ﷺ وأصحابه وهم الأعزة أعزهم الله بدينه ورفع شأنهم، ﴿ وَلله الْعِزَّةُ ﴾ الكاملة، ﴿ وَلِرَسُولِهِ ﴾ بما أعطاه الله عز وجل من العزة والرفعة، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المتابعين لرسول الله ﷺ، ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعلمون ذلك لجهلهم بالإسلام وعظمته ومنزلته وأن الرفعة بالتقوى كما قال تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[طه:١٣٢]، وقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات:١٣]، وقد قال الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠].

ولما ذكر الله حال المنافقين نادى المؤمنين بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ إياكم أن تنشغلوا عن طاعة الله عز وجل بالأموال من تجارات ونحوها، والأولاد ويدخل فيهم الأحفاد، ﴿ عَنْ ذِكْرِ الله ﴾ عن طاعة الله، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في الآخرة؛ لأنهم حرموا من الطاعة التي بها تُرفع الدرجات وتكفر السيئات نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذا دليل على أن الإنسان قد يُشغل عن طاعة الله بأقرب الناس إليه كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن:١٤]، وفي صحيح مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ» .

﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أمرهم بطاعة الله ومنها الإنفاق في سبيل الله؛ لأن المنافقين أهل البخل والإقتار، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ من قبل حلول الأجل فيتمنى لو يتأخر فيتصدق، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ

لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ هلا أخرتني: ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ حتى أتمكن من العمل الصالح، ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: " أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ " أخرجه مسلم .

وفيه عظيم أجر الصدقة لا سيما إذا كانت في الأمور الجاريات من بناء المساجد وشراء الكتب وحفر الآبار ونحو ذلك، فالإنسان عليه أن يكون باذلًا لماله في طاعة الله عز وجل، فانظر إلى هذا الميت يتمنى لو أُخر حتى يتصدق ما قال أصلي ولا أصوم ولا أحج وإن كانت هذه من الطاعات لكن ذكر الصدقة لفضلها، ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المبادرين إلى مرضات رب العالمين، كقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠].

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ أي: اعملوا قبل أن يأتي الأجل فتتمنون العودة؛ فإنه إذا جاء الأجل لا تؤخر النفس يوم ولا ساعة، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد:٣٨]، ﴿ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مطلع على أعمالكم خيرها وشرها فيجازي المؤمن والكافر كل منهما على عمله.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

مدنية وقيل مكية والصحيح الأول.

﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يخبر الله عز وجل عن تسبيح المخلوقات له منزهة له عن النقائص مثنية له على المحامد، فهو الموصوف سبحانه وتعالى بكل كمال، والمنزه عن النقص في كل حال كما قال ذو الجلال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٧٤]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:٤]، فهو المتصف بكل كمال في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ المطلق في السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ المطلق يحمد على كماله، ويحمد على جماله، ويحمد على إنعامه وإفضاله سبحانه وتعالى، والله عز وجل يحب الحمد ولهذا حمد نفسه وافتتح كتابه بالحمد: ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، وفرض على المسلمين أن يقرأوها في كل ركعة، فعن أبي هريرة ﷺ قال النبي ﷺ قال الله عز وجل: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي» **أخرجه مسلم**، والحمد: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله، وآلته اللسان والقلب ومتعلقة الصفات اللازمة والمتعدية ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أي: الله الذي أوجدكم من العدم، ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ على طريق أهل الكفر والإعراض، ﴿ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ موحد له فالله عز وجل يبتلي المؤمنين بالكافرين، وهذا كقوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك:٢]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣]، ﴿ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مطلع فيجازي المؤمن على إيمانه ويجازي الكافر على إجرامه وهو أعلم بأهل التقوى وأهل الهدى فيوفق من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي: أن من تمام قدرته أنه خلق السموات العالية والأرض الواسعة، ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: بغير عبث كما قال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، وقال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين:٤]، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[الإسراء:٧٠]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ صورك

في أحسن صورة: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار:٧-٨]، جعل لك سمعًا وبصرًا وقدرةً وإرادةً وقوةً وعلمًا وفضلك على كثير من الحيوان البهيم الذي لا يعقل ولا يعلم، ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ إليه الرجوع فيجازي المؤمن بإيمانه والمسيء بإساءته.

ومن تمام كماله أنه: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ في نفوسكم، ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ لغيركم، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ولو عاجلنا بما في نفوسنا لهلكنا، فإن الإنسان تأتيه من الخواطر ما يستحي عن إظهارها سواء في باب العبادات أو المعاملات أو الظنون والشهوات والشبهات، والله مطلع على كل ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ، وَقُلُوبِكُمْ» **أخرجه مسلم .**

ثم قال الله عز وجل للمشركين: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ يا معشر قريش يا من تعرضون عن دعوة محمد ﷺ، ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر، ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط وغيرهم، كما قال الله عز وجل: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود: ٨٩]، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي نزل بهم العذاب الأليم والخزي الجسيم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع في الدنيا والآخرة.

﴿ ذَلِكَ ﴾ سبب ما أصابهم من الذل والهوان والعقوبة، ﴿ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ كانت تأتيهم الرسل بالآيات والعظات يدعونهم إلى التوحيد فيأبون إلا الشرك والتنديد، ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الكتب المنزلة؛ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾[الحديد:٢٥]، ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي: أنهم لم يؤمنوا وكان قولهم في الاعتذار: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ كيف نهتدي بدعوة بشر مثلنا وهذا قول قبيح تتابعوا عليه، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:٣٣]، وقالوا: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[المؤمنون:٢٤]، وسألوا الله أن يأتيهم بملك: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام:٩ - ١٠].

﴿ يَهْدُونَنَا ﴾ أي: يدلوننا ويرشدوننا، ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أعرضوا عن الإيمان، ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ زادوا في الإعراض حتى نهوا عنه، ﴿ وَاسْتَغْنَى اللهُ ﴾ عنهم وهو الغني الحميد، ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ متصف بصفات الحمد والمجد، والله عز وجل متصف بالغنى المطلق فهو الغني في كل حال وغناه ذاتي لا ينفك

عنه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر:١٥]، سواء آمنوا أو أعرضوا، ففي الحديث القدسي، عن أبي ذر ﷺ قال قال النبي ﷺ: « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» أخرجه مسلم .

ومن أسباب كفرهم أيضا زعمهم عدم البعث ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ قالوا: ما هناك بعث ولا نشور وإنما هي موتة واحدة، كما قال تعالى: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٤]، ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أمره الله أن يقسم على البعث والنشور، وقد أمر الله محمدًا ﷺ بالقسم في القرآن في ثلاثة مواطن: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[يونس:٥٣]، وكلها أيمان على البعث: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[التغابن:٧]، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾[سبأ:٣]، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ لتُخبرنّ بجميع أعمالكم لا تخفى على الله خافية، ومنها أن الله يبلي السرائر، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩]، ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لا يعجزه ولا يكرثه ولا يتعبه، فهو عالم بكل شيء ومع ذلك يأتي الكرام الكاتبين بما سطروه على هذا العبد الضعيف، ويأمر الله عز وجل الجوارح أن تتكلم بما عمل، كما قال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠] .

﴿ فَآمِنُوا ﴾ يا معاشر السامعين، ﴿ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ نبيًا، والمراد به هنا محمد ﷺ، ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ وهو القرآن سماه الله نورًا لوضوح دلالته ولتمييزه بين الحق والباطل، ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ مطلع.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ أي: يوم القيامة حيث يحشر الناس من كل حدب وصوب فيكونون في أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ سُمي يوم التغابن لشدة الغبن الذي يحصل للناس فيه، فيغبن الكافر ويعذب في النار وتحيط به ذنوبه ويهلك، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ينقاد لأمره، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ كما قال النبي ﷺ: « الصلاةُ إلى الصلاةِ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائرُ»**متفق عليه عن أبي هريرة** ﷺ، ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود:١١٤]، فالحسنات من أعظم أسباب تكفير السيئات، وقد ذكر ابن أبي العز رحمه الله إحدى عشر مُكفِرًا منها: الإسلام، والتوبة، والدعاء، والاستغفار، والمبادرة إلى الطاعات ونحو ذلك، ﴿ وَيُدْخِلْهُ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: تجري فيها الأنهار كما تقدم؛ لأن أنهار الجنة ليس فيها أخاديد، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ دليل على أبدية الجنة وهو عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، إذ أن الله يأمر بذبح الموت ثم يقال: يا أهل الجنة لا موت ويا

أهل النار لا موت، ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز بعده إذ يجاورون رب العالمين وينظرون إليه ويتنعمون بما أعطاهم الله عز وجل من النعيم المقيم، ومن أعظمه النجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعرضوا عن دين الله، ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ ردوا آيات الله عز وجل حالهم على عكس حال المؤمنين، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعذبون فيها، كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يخرجون منها: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٧]، وقال: ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٦-٣٧]، وقال: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧]، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾[المؤمنون:١٠٦]. ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٧-١١١]، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس الرجوع رجوعهم حيث يرجعون إلى نار تلظى لا يتنعمون فيها بنوم ولا شرب ولا أكل وبشيء مما فيها.

ثم قال الله عز وجل آمرًا وحاثًا على الإيمان بالقدر: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي: في هذا العالم أو على هذا الإنسان، ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ الكوني القدري، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ومن يصبر على أقدار الله عز وجل الكونية ويلتزم أقداره الشرعية يهدي قلبه إلى سبيل الحق والصواب وإلى طريق الهدى والرضا، يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليم بأحوالكم أيها الناس كما أنه عليم بمآلكم، لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ ﴾ في أمره واجتناب نهيه، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ في أمره واجتناب نهيه، وطاعة الرسول ﷺ طاعة لله كما قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[النساء:٨٠]، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﷺ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[الزمر:٤١]، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾[الأعلى:٩-١١]، فليس على الرسول ﷺ غير النذارة، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[الأنعام:١١٧].

﴿ الله ﴾ أي: الله الذي: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك في ألوهيته كما لا شريك له في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ يعتمد، ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم فإن الله عز وجل بيده الخير، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦]، وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾[الفرقان:٥٨]، يرزقك ويعطيك ويعينك: وعن عمر ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، أخرجه الترمذي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا معشر من آمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا، ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ أي: إن أزواجكم، ﴿ وَأَوْلادِكُمْ ﴾ أبناؤكم من ذكورهم وإناثهم، ﴿ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ أي: بإشغالكم عن طاعة الله وإن لم تكن العداوة الظاهرة الموجبة للقتل والقتال؛ ولكن عداوتهم من حيث أنهم يشغلون عن طاعة الله، ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ كن على حذر أن تعصي الله عز وجل بسبب زوجتك أو ابنك، فكم من إنسان قطع رحمه، وحصلت له من البلايا بسبب زوجته، وولده ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا ﴾ فيما يقع منهم من الخطأ، ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ تتجاوزوا، ﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ تعفوا عما تقدم ومضى، ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ لكم ولهم ، ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يستر العيب ويوفق لما يأتي.

وعند أحمد عن بريدة ﷺ قال قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ وَحَمَلَهُمَا، فَقَالَ: " صَدَقَ الله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥] رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا " .

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ ﴾ أموالكم التي تجمعونها إن لم تكن في طاعة الله عز وجل وموصلة إلى مرضاته، ﴿ وَأَوْلادُكُمْ ﴾ إن لم يكونوا على طاعة الله عز وجل، ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ يفتنونكم عن دينكم، ويشغلونكم عن طاعة ربكم، ﴿ وَالله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آمن واتبع هداه وسلك سبل رضاه.

﴿ فَاتَّقُوا الله ﴾ يا معاشر المسلمين بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، أي جهدكم، كما قال تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، وقال: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾[الطلاق:٧]، عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» **متفق عليه**، وهذا من فضل الله؛ أن الإنسان لا يأتي إلا بما استطاع وقد عليه، ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ لربكم ولنبيكم، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ أمر الله وأمر رسوله ﷺ، ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ ابذلوا المال في سبيل الله، لأن ما أنفقه الإنسان يجده عند الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٧٣]، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٤٥]، وعن أبي هريرة

ﷺ قال النبي ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ» **أخرجه البخاري**، ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ من يُوقَ شدة البخل الذي يجعل الإنسان يمنع الواجب عليه من النفقات والزكوات، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فإن نفس المؤمن سمحه متجاوزة، والشح من أشد الذنوب قال النبي ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» **أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله** ﷺ.

﴿ إِنْ تُقْرِضُوا الله ﴾ بالصدقات في سبيل الله، وإلا فإن الله غني عن العالمين، ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بغير منة ورياء وسمعة؛ ففي الحديث: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي الله بِهِ» **متفق عليه عن جندب** ﷺ، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[المدثر:٦]، ﴿ يُضَاعِفْهُ ﴾ يكثره له أضعاف ما أعطى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦١]، ﴿ لَكُمْ ﴾ أي: للمؤمنين، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ تقصيركم وذنوبكم لا سيما إذا اقترن العمل الصالح بالتوبة، ﴿ وَالله شَكُورٌ ﴾ يجازي على القليل بالكثير، ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يتجاوز عن المؤمنين ويؤخر العقوبة حتى تقع منهم التوبة والإنابة.

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي: أن الله عز وجل عالم بما غاب عن الشهود، ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ عالم بما ظهر، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يظلم سبحانه وتعالى.

وختم الله عز وجل هذه السورة بهذه الأسماء؛ ليدلل أنه سبحانه كريم عظيم يتجاوز عن عباده ويُكرِم من علمه أهلاً للكرامة ويؤخر العقوبة عن من علمه أهل لها حتى يتوب أو يأوب، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطلاق

وهي مدنية.

﴿يا أيها النَّبِيُّ﴾ نداء للنبي ﷺ، قيل: لأنها نزلت في شأن طلاقه لحفصه، ولأنه السيد المقدم ثم خاطب أمته بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ لأنه تبع له أي: إذا طلقتم أزواجكم، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي لحين عدتهن، وهو الطهروالعدة التي أمر الله بالطلاق لها أن تكون حاملًا قد تبين حملها أو تكون في طهر لم يجامعها فيه، فعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ الله أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»

قال البغوي في تفسيره (٥/ ١٠٧):اعْلَمْ أَنَّ الطَّلَاقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ بِدْعَةٌ وَكَذَلِكَ فِي الطُّهْرِ الَّذِي جَامَعَهَا فِيهِ.

لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ» وَالطَّلَاقُ السُّنِّيُّ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ، وَهَذَا فِي حَقِّ امْرَأَةٍ تَلْزَمُهَا الْعِدَّةُ بِالْأَقْرَاءِ، فَأَمَّا إِذَا طَلَّقَ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ طَلَّقَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي لَمْ تَحِضْ قَطُّ أَوِ الْآيِسَةَ بَعْدَ مَا جَامَعَهَا، أَوْ طَلَّقَ الْحَامِلَ بَعْدَ مَا جَامَعَهَا، أَوْ فِي حَالِ رُؤْيَةِ الدَّمِ لَا يكون بِدْعِيًا وَلَا سُنَّةَ وَلَا بِدْعَةَ فِي طَلَاقِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثُمَّ لِيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا أَوْ حَامِلًا» وَالْخُلْعُ فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ فِي طُهْرٍ جَامَعَهَا فِيهِ لَا يَكُونُ بِدْعِيًّا لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فِي مُخَالَعَةِ زَوْجَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ حَالَهَا، وَلَوْلَا جَوَازُهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ لا شبه أَنْ يَتَعَرَّفَ الْحَالَ، وَلَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي حَالِ الْحَيْضِ أَوْ فِي طُهْرٍ جَامَعَهَا فِيهِ قَصْدًا يَعْصِي الله تَعَالَى.

وَلَكِنْ يَقَعُ الطَّلَاقُ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ ابْنَ عُمَرَ بالمراجعة ولولا وقوع الطلاق لكان لا يأمره بِالْمُرَاجَعَةِ، وَإِذَا رَاجَعَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي الطُّهْرِ الَّذِي يَعْقِبُ تِلْكَ الْحَيْضَةَ قَبْلَ الْمَسِيسِ.

كَمَا رَوَاهُ يُونُسُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَنَسُ بْنُ سِيرِينَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمَا رَوَاهُ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ» فَاسْتِحْبَابٌ اسْتَحَبَّ تَأْخِيرَ الطَّلَاقِ إِلَى الطُّهْرِ الثَّانِي حَتَّى لَا يَكُونَ مُرَاجَعَتُهُ إِيَّاهَا لِلطَّلَاقِ كَمَا يَكْرَهُ النِّكَاحُ لِلطَّلَاقِ، وَلَا بِدْعَةَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الطَّلَقَاتِ الثَّلَاثِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، حَتَّى لَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي حَالِ الطُّهْرِ ثَلَاثًا لَا يَكُونُ بِدْعِيًا وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ بِدْعَةٌ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ. اهـ

وهل يقع الطلاق البدعي؟:

الصحيح أنه يقع على ما بينت ذلك في شرحي على عمدة الأحكام، لأن النبي ﷺ يقول لعمر: «فليراجعها»، ويحمل اللفظ على معناه الشرعي .

قال الله عز وجل: ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ يعني: أحصوا عدة المطلقة من حيث عدد أقرائها من أجل أن تأخذ مالها من الحقوق فينفق عليها وتراجع إن أراد مراجعتها في العدة فإن الزوج أحق بزوجته إذا كانت في الطلقة الأولى أو الثانية، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي: في شأن النساء وفي طلاقهن، ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ حتى وإن طلقتها ما دامت في الطلاق الرجعي، ﴿ وَلا يَخْرُجْنَ ﴾ بأنفسهن، إلا لحالة ضرورة، والواقع أن كثير من النساء الآن يخالفن هذا الأمر، ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ قيل: الزنا، وقيل: السب والشتم والأذية فيجوز عند ذلك أن تخرج لكف شرها؛ لأن بعض النساء إذا طُلقت ربما أحرقت وكسرت وهشمت وغير ذلك، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي: ما ذكر في شأن الطلاق والرجعة، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ باللفظ أو الفعل فقد ظلم نفسه، ومن ذلك ما يفعله كثير من الناس بقوله: أنتِ طالق طالق طالق أو أنتِ طالق بالثلاث أو أنتِ كذا وكذا من هذه الألفاظ، وكان ابن عباس إذا جاءه أحدهم يقول: طلقت زوجتي ثلاث يقول: ما اتقيت الله فما لك مخرج؛ والصحيح في هذا أن طلاق الثلاث في مجلس واحد يعتبر واحدة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ " أخرجه مسلم.

﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ بهذه الآية احتجت فاطمة بنت قيس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن المطلقة ثلاثًا لا سكنى لها ولا نفقة، وكان عمر رضي الله عنه يرى لها السكنة والنفقة، والصحيح: أن المطلقة ثلاثًا وهي المسماة بالمبتوتة لا سكنى ولا نفقة؛ لأنه لا أمر يحدث بعد ذلك إلا أنها تتزوج غيره، أما الطلقة الأولى فقد يراجعها في العدة أو يخطبها بعد العدة وتعود إليه بعقد ومهر جديد، وهكذا الطلقة الثانية ، وأما الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره فيذوق من عسيلتها كما ذاق زوجها الأول من عسيلتها، كما قال الله عز وجل: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ} [البقرة: ٢٣٠]، وعن عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ، فَطَلَّقَنِي، فَبَتَّ طَلَاقِي، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ» متفق عليه ، ولا يجوز جواز التحليل: «لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ ، وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» **أخرجه أحمد**، وكان يسمى التيس المستعار.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: قربن انتهاء عدتهن، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي راجعوهن بمعروفإذا أردتم البقاء معهن، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ إذا أردتم الفراق، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

﴿[البقرة:٢٣٧] ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ على الرجعة والفراق وبهذه الآية أُستدل على وجوب الإشهاد في العقد والرجعة، وهذا لا يتأتى إلا على من قال: بأن الرجعة لا بد أن تكون باللفظ ، أما من ذهب إلى أن الرجعة تكون بالجماع ونحو ذلك فلا يشترط الإشهاد، وإنما هو زيادة تأكد وتوضيح، ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي: من المسلمين، ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله ﴾ على الوجه الذي سمعتموها ورأيتموها بدون زيادة ولا نقصان فإن شهادة الزور من أكبر الكبائر فعن أبي بكرة ﷺ قال النبي ﷺ: «الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» متفق عليه، ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي: ما تقدم، ﴿ يُوعَظُ ﴾ يذكر به ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ فيلتزم أمر الله ويرجوا ثوابه، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى الآية: من يتق الله في الطلاق ونحو ذلك يجعل له مخرجًا، والصحيح: أن الآية عامة في جميع الأمور، من يتق الله في ليله ونهاره وسره وجهاره يجعل له مخرجًا من كل هم وغم هذا وعد الله، فتقوى الله سبب لتفريج الكرب وقضاء الحاجات.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ أي يوسع له في رزقه ويأتيه الرزق الحلال من حيث لا يظن ولا يؤمل وهذا أبرك رزق، فلم يقع فيه استشراف ولم يؤخذ من الحرام ولا يلحقه شيء مما يشوب بركته، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ أي يعتمد على الله في جميع شأنه ويعتمد عليه ظاهرًا وباطنًا، ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافيه ما أهمه وما آذاه، ﴿ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي: أن ما قضاه الله وقدره سيكون، وما شرعه الله عز وجل لا بد أن يؤتى به على الوجه الذي شرعه الله، ﴿ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ سواءً في باب النكاح والطلاق أو البيع والشراء قد جعل الله شريعة يسير الناس عليها.

ولما ذكر الله الطلاق ناسب ذكر أحكام العدة فقال: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ أي: من زوجاتكم، واليائسة هي التي بلغت سن الخمسين أو أكثر من ذلك وانقطع عنها الحيض، ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ لها معنيان: الأول: إن رأيتم الدم فشككتم هل هو دم حيض أم لا .، الثاني: إن ارتبتم وجهلتم حكم عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ أي: أن اليائسة والصغيرة التي لم تحض عدتها ثلاثة أشهر، فالعدة تكون بالحيض، والوضع، والشهر، فاليائسة والصغيرة تعتد بثلاثة أشهر، والحامل تعتد بالوضع، والتي يأتيها الحيض تعتد بثلاثة قروء والقرء: الطهر على الصحيح وهو اختيار عائشة رضي الله عنها، ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي: عدتهن أيضًا ثلاثة أشهر، ﴿ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وهذا هو القول الصحيح سواءً في عدة الوفاة أو في عدة الطلاق، فالحامل متى وضعت انتهت عدتها ولو وضعت بعد طلاقها أو وفاة زوجها بساعة فعن أبي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَابْنَ عَبَّاسٍ، أنهما اجْتَمَعَا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُمَا يَذْكُرَانِ الْمَرْأَةَ تُنْفَسُ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عِدَّتُهَا آخِرُ الْأَجَلَيْنِ، وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَدْ حَلَّتْ، فَجَعَلَا يَتَنَازَعَانِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَبَعَثُوا كُرَيْبًا مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ، يَسْأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَهُمْ

فَأَخْبَرَهُمْ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: «إِنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ نُفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، وَإِنَّهَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ» أخرجه مسلم، وعليه جمهور العلماء، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ ييسر له الخير حيث كان.

﴿ ذَلِكَ أَمْرُ الله ﴾ أي: ما تقدم من أمر الطلاق والعدة، ﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أي: أنزله على محمد ﷺ لتلتزموا به به، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله ﴾ في شأنه بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ أي يكفر عنه ذنوبه، ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ قيل: من التزم أمر الله بتقواه كفر عنه سيئاته وأعظم أجره .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ أي: المطلقات من نسائكم، ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ﴾ أي لا يشترط أن تسكنها فِلة أو عمارة إذا كنت لا تملك لك أن تستأجر لها أو تسكن فيما يسير الله، ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ من جدتكم وقدرتكم ﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ﴾ تؤذوهن ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ مساكنهن فيخرجن، وفي هذا دليل على أن المرأة تسكن في بيت الرجل وما اعتاده أهل المهرة وغيرهم من البلدان بسكنى الرجل في بيت المرأة من الأمور المخالفة للشرع والمخالفة للواقع والفطرة، فينبغي للناس أن يحاربوا هذه العادة والمرأة تزف إلى بيت زوجها على ما كان وتسكن معه على أحسن حال، أما أن يسكن في بيت أبيها فهذا لم يكن في عهد النبي ﷺ ولا في عهد غيره، مع ما يسبب من الاختلاطات بين الأزواج والزوجات، ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ يعني: لا تضاروهن بالنفقة أو تضاروهن بالطلاق لتضيقوا عليهن، إن أحببت أن تمسكها أمسكتها وإلا فارقتها، ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ ﴾ إذا كانت المطلقة حاملاً فأنفقوا عليها، ﴿ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فإذا وضعن الحمل وما زالت مطلقة: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: بالمعروف، ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فلو طلبت المرأة المطلقة قيمة الحليب تعطى أجرة الحضانة وجميع شأنها؛ لأنها لم تعد في عصمة الزوج بحيث تتطوع له برعاية ولده وإنما هي امرأة قد صارت مطلقة فلها الحق في حق الحضانة، وفي حق الرضاع، وفيما هو من شأن الطفل، ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ طلبت فوق ما يستطيعه الزوج، ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ ييسر الله بمن يرضعه من نسائه القريبات ونحو ذلك.

قال البغوي في تفسيره (٥/ ١١١): اعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَدَّةَ الرَّجْعِيَّةَ تَسْتَحِقُّ عَلَى الزَّوْجِ النَّفَقَةَ وَالسُّكْنَى مَا دامت في العدة وتعني بِالسُّكْنَى مُؤْنَةَ السُّكْنَى فَإِنْ كَانَتِ الدَّارُ الَّتِي طَلَّقَهَا فِيهَا مِلْكًا لِلزَّوْجِ يَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يخرج منها وَيَتْرُكَ الدَّارَ لَهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا، وَإِنْ كَانَتْ بِإِجَارَةٍ فَعَلَى الزَّوْجِ الأجرة وإن كانت عارية ورجع الْمُعِيرُ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكْتَرِيَ لَهَا دَارًا تَسْكُنُهَا، فَأَمَّا الْمُعْتَدَّةُ الْبَائِنَةُ بالخلع أو بالطلقات الثَّلَاثِ أَوْ بِاللِّعَانِ فَلَهَا السُّكْنَى حَامِلًا كَانَتْ أَوْ حَائِلًا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا سُكْنَى لَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ والشعبي.

وَاخْتَلَفُوا فِي نَفَقَتِهَا فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ لَا نَفَقَةَ لَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا [رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ وَالشَّعْبِيِّ] ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَوْجَبَهَا بِكُلِّ حَالٍ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَهُوَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَبِهِ قَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ.

مَا أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ أَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ مَوْلَى الْأَسْوَدِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي سلمة بن عبد الرحمن فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ وَهُوَ غَائِبٌ بِالشَّامِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وكيله بشعير فسخطته، فقالت: والله مالك عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَجَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ» وَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي فَاعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي» قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» قَالَتْ فَكَرِهْتُهُ، ثم قال: «انكحي أسامة بن زيد» فَنَكَحْتُهُ فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا وَاغْتَبَطْتُ بِهِ.

وَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا السُّكْنَى بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تعتد في بيت عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَلَا حُجَّةَ فِيهِ.

لِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَتْ فَاطِمَةُ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ فَخِيفَ على ناحيتها.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّمَا نُقِلَتْ فَاطِمَةُ لِطُولِ لِسَانِهَا عَلَى أَحْمَائِهَا وَكَانَ لِلِسَانِهَا ذَرَابَةٌ أَمَّا الْمُعْتَدَّةُ عَنْ وَطْءِ الشُّبْهَةِ وَالْمَفْسُوخُ نِكَاحُهَا بِعَيْبٍ أَوْ خِيَارِ عِتْقٍ فَلَا سُكْنَى لَهَا وَلَا نَفَقَةَ وَإِنْ كَانَتْ حَامِلًا، وَالْمُعْتَدَّةُ عَنْ وَفَاةِ الزَّوْجِ لَا نَفَقَةَ لَهَا حَامِلًا كَانَتْ أَوْ حَائِلًا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَرُوِيَ عَنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أن لهذه النَّفَقَةَ إِنْ كَانَتْ حَامِلًا مِنَ التَّرِكَةِ حَتَّى تَضَعَ، وَهُوَ قَوْلُ شُرَيْحٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ، وَاخْتَلَفُوا فِي سُكْنَاهَا وَلِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا لَا سُكْنَى لَهَا بَلْ تَعْتَدُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَالثَّانِي: لَهَا السُّكْنَى وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ، وَاحْتَجَّ مَنْ أَوْجَبَ لَهَا السُّكْنَى بِمَا.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مصعب عن مالك عن سعد بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ عَنْ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ كَعْبٍ أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ

أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بِطَرَفِ الْقَدُومِ لِحِقَهُمْ، فَقَتَلُوهُ فَسَأَلَتْ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَنْزِلٍ يَمْلِكُهُ وَلَا نَفَقَةٍ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: نَعَمْ، فَانْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ دَعَانِي أَوْ أَمَرَ بِي رَسُولُ الله ﷺ فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«كَيْفَ قُلْتِ» ؟ قَالَتْ: فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي، فَقَالَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ.

فَمِنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ: إِذْنُهُ لِفُرَيْعَةَ أَوَّلًا بِالرُّجُوعِ إِلَى أَهْلِهَا صَارَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ آخِرًا: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» وَمَنْ لَمْ يُوجِبِ السُّكْنَى قَالَ أَمَرَهَا بِالْمُكْثِ فِي بَيْتِهَا آخِرًا اسْتِحْبَابًا لَا وُجُوبًا. اهـ

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ أي كل ينفق بقدر ما عنده ، ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ ضيق رزقه، ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله ﴾ على قدر رزقه كما يقول المثل اليمني: على قدر فراشك مط رجليك، فكذلك في باب الإنفاق، ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾، كقوله: ﴿ لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، فإن الإنسان لا يؤاخذ إلا بما يستطيع، كما قال: ﴿ فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن:١٦]، ﴿ سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وهذه الآية فيها فرج عظيم ووعد من رب كريم: أنه ما من عسر إلا ويأتي بعده اليسر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٥-٦]، وفي القول: لا يغلب عسر يسيرين فاستبشر يا مسلم بوعد الله عز وجل:

عَسى الكَربُ الَّذي أَمسَيتُ فيهِ ** يَكونُ وَراءَهُ فَرَجٌ قَريبُ

ما بين غَمضةِ عَين وانتباهتها ** يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ كأين من قبيلة أو قرية أو مدينة تكبرت وتجبرت وعصت، ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ سبحانه وتعالى،﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ وأمر رسوله ﷺ، ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ أي: يوم القيامة بالمناقشة والاستقصاء، ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ منكراً فضيعاً، قيل: في الدنيا، بالجوع والعطش والقتل والزلازل ونحو ذلك، والحساب الشديد في الآخرة، وقيل: بأن هذا كله في الآخرة.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ جزاء ذنبها، ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ نالها الخسارة بسبب كفرها في الدنيا والآخرة، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت:١٧]، فدمدم الله على كثير من الأمم بسبب معاصيهم، كما قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠]، وقال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ

ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ٦ - ١٤].

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ أي: للكافرين، ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في القبر والآخرة، ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ يا أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وبرسله، ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ القرآن والسنة التي أوحاها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل الذكرى هو هذا الرسول ﷺ.

﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بينات واضحات لا إشكال فيها ولا لبس، فهو يتكلم بلغتكم ومن أنفسكم، ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أصحاب الإيمان والمبادرة إلى طاعة الرحمن، ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والإجرام، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور التوحيد والسنة، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ ربًا، ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ متابعًا للنبي ﷺ، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فيها الأنهار، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي: لا مقطوعة ولا ممنوعة، ومن دخلها ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» **أخرجه مسلم**، ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أي: في الجنة كما قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤]، وفيها من كل ما لذ وطاب، كما قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[البقرة:٢٥].

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ أي: الذي وعدك بهذا الوعد وجازاك هذا الجزاء هو الله الذي من شأنه: أنه خلق سبع سموات شديدات عظام، ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ سبع أراضين، وليس معنى ذلك أنها سبع أراضين منفصلة كما يظن البعض أن كل أرض فيها سكان وفيها من المكلفين، وإنما هي أراضي طباقًا، ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي: بين السماء السابعة والأرض السفلى، كما قال الله عز وجل: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة:٥].

﴿ لِتَعْلَمُوا ﴾ أي: أن الله ضرب لكم هذا المثل، وأنه خلق السموات والاراضين ولا يعجزه شيء، ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء ولا يكرثه شيء لكمال علمه وقدرته: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤]، ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾[غافر:١٩-٢٠].

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم.

سورة التحريم

وهي مدنية بالإجماع.

سميت بالتحريم؛ لأن النبي ﷺ حرم على نفسه العسل، وقيل: حرم على نفسه جارية؛ وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وفي رواية (عند حفصة) فَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، قَالَتْ: فَتَوَاطَأْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ»، فَنَزَلَ: {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ} [التحريم: ١] إِلَى قَوْلِهِ: {إِنْ تَتُوبَا} [التحريم: ٤] لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} [التحريم: ٣]، لِقَوْلِهِ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، وقيل: حرم على نفسه جارية ألا يطأها فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾.

وقد اختلف العلماء في حرام هل هو يمين أم طلاق أم لا يمين ولا طلاق، فذهب بعض أهل العلم إلى أنه طلاق، وذهب بعض أهل العلم إلى أنها يمين تكفر، وذهب بعضهم إلى أنها ليست بشيء، والصحيح: التفصيل، أما الطلاق فلا تكون طلاقاً إلا مع النية، وإما إذا لم تقترن بذلك قال ابن عباس: ما باليت حرمت امرأتي أو قصعة من ثريد، فتقع طلقة رجعية إن كانت الأولى أو الثانية، وإن كانت الثالثة لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، وأما من جهة اليمين من حرم على نفسه عسلًا أو نوعاً من اللباس أو الطعام والشراب فليست بشيء؛ لأن اليمين لا بد أن تصدر باسم أو صفة من صفات الله عز وجل كقولهم: والله، وبالله، وتالله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ هذا عتاب من الله لرسوله ﷺ حين حرم على نفسه شرب العسل أو سريته، تكريم الله عز وجل لنبيه محمد حيث خاطبه بالنبوة والرسالة، فقد ناداه بها في مواطن: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[المائدة:٦٧]، يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: أن التحليل والتحريم ليس إليك، ولا يجوز للإنسان أن يحرم على نفسه ما أحل الله لا زوجةً ولا شرابًا ولا طعامًا، ولذلك لما ترك النبي ﷺ أكل الثوم قالت الصحابة: حرمت حرمت، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ الله لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا» **أخرجه مسلم عن أبي سعيد** رضي الله عنه، ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي: حرمت العسل على نفسك أو حرمت اتيان جاريتك ابتغاء رضا زوجاتك ﴿ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ متجاوز عما مضى وموفق لما يأتي، وهذا دليل على أن الله عز وجل قد تجاوز عن نبيه ﷺ .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وهذا على معنى حديث: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ» **متفق عليه عن أبي موسى** ﷺ، فيقول: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ ﴾ شرع الله لكم، ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ التحلل من اليمين بأداء كفارته: وهي عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فإن عجز عن ذلك صام ثلاثة أيام؛ كما قال الله عز وجل: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} [البقرة: ٢٢٥]وقد استدل جمهور أهل العلم بهذه الآية على أن الحرام يمين، والصحيح أن هذا في اليمين حيث قال النبي ﷺ: «وَاللهِ لَا أَشْرَبُهُ»، فهي يمين؛ متضمنة للتحريم، ﴿ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي متولي أموركم فهو ولي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[الأعراف:١٩٦]، يحفظهم ويكلأهم وينصرهم، مما فيه مصالح العباد ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالحكم، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وشرعه.

ثم قال: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ حفصة وعائشة رضي الله عنهما ﴿حَدِيثًا ﴾ وهو قوله: «وَاللهِ لَا أَشْرَبُهُ»، جعله بينه وبينها، فنبأت بهذا الأمر وأفشته إلى غيرها من نساء النبي ﷺ، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ خبرت به، ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ أطلعه الله على أنها أفشت السر، ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ خاطبها وعرفها بما فعلت، وأعرض عن بعضه صفحًا وعفوًا وتجاوزًا، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أخبرها بما حصل منها، ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ من أخبرك الخبر ، ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أخبرني الله العليم بظواهر الأمور الخبير ببواطنها، فإذا جُمع العلم والخبرة في موطن فالمراد بالعلم العلم بالظواهر والخبير بالبواطن، وإن افترقا دل كل منهما على معنى الآخر.

﴿ إِنْ تَتُوبَا ﴾ لعائشة وحفصة ففي الصحيحين عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّى فَرَغَ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ هَيْبَةً لَكَ، قَالَ: فَلاَ تَفْعَلْ مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ، وَلِمَا هَا هُنَا وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ، فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَاللهِ إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ، فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ، وَغَضَبَ رَسُولِهِ ﷺ، يَا بُنَيَّةُ لاَ يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا - يُرِيدُ

عَائِشَةَ - قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا، فَكَلَّمْتُهَا فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَبْتَغِيَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ وَأَزْوَاجِهِ، فَأَخَذَتْنِي وَالله أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ، فَقَالَ: افْتَحِ افْتَحْ فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ، فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْوَاجَهُ، فَقُلْتُ: رَغِمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ، فَأَخَذْتُ ثَوْبِي فَأَخْرُجُ حَتَّى جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يَرْقَى عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ، وَغُلاَمٌ لِرَسُولِ الله ﷺ أَسْوَدُ عَلَى رَأْسِ الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَأَذِنَ لِي، قَالَ عُمَرُ: فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ هَذَا الحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ».

والتوبة: الرجوع إلى الله مما بدر منهما، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ به استدل على أن أقل الجمع اثنان؛ لأنهما اثنتان ولهما قلبان ومع ذلك قال: ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي: لأمر الله وحكمه، وقيل قد مالت عما ينبغي مع رسول الله ﷺ ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ إن أبيتن إلا المظاهرة وهي التعاون على النبي ﷺ وقد وقع منهن رضوان الله عليهن المظاهرة عليه حتى هجرهن شهرًا كما تقدم، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ الله ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ، فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالحِزْبُ الآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا حُبَّ رَسُولِ الله ﷺ عَائِشَةَ، فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَحَدِهِمْ هَدِيَّةٌ يُرِيدُ أَنْ يُهْدِيَهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، أَخَّرَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، بَعَثَ صَاحِبُ الهَدِيَّةِ بِهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَكَلَّمَ حِزْبُ أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِي رَسُولَ الله ﷺ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ هَدِيَّةً، فَلْيُهْدِهِ إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ مِنْ بُيُوتِ نِسَائِهِ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ بِمَا قُلْنَ، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا، فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا، فَكَلِّمِيهِ قَالَتْ: فَكَلَّمَتْهُ حِينَ دَارَ إِلَيْهَا أَيْضًا، فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، فَسَأَلْنَهَا، فَقَالَتْ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، فَقُلْنَ لَهَا: كَلِّمِيهِ حَتَّى يُكَلِّمَكِ، فَدَارَ إِلَيْهَا فَكَلَّمَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: «لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ، إِلَّا عَائِشَةَ»، قَالَتْ: فَقَالَتْ: أَتُوبُ إِلَى الله مِنْ أَذَاكَ يَا رَسُولَ الله، ثُمَّ إِنَّهُنَّ دَعَوْنَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تَقُولُ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ الله العَدْلَ فِي بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ أَلاَ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟»، قَالَتْ: بَلَى، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِنَّ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ، فَقُلْنَ: ارْجِعِي إِلَيْهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَرْجِعَ، فَأَرْسَلْنَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، فَأَتَتْهُ، فَأَغْلَظَتْ، وَقَالَتْ: إِنَّ نِسَاءَكَ يَنْشُدْنَكَ الله العَدْلَ فِي بِنْتِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ، فَرَفَعَتْ صَوْتَهَا حَتَّى

تَنَاوَلَتْ عَائِشَةَ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فَسَبَّتْهَا، حَتَّى إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَيَنْظُرُ إِلَى عَائِشَةَ، هَلْ تَكَلَّمُ، قَالَ: فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ تَرُدُّ عَلَى زَيْنَبَ حَتَّى أَسْكَتَتْهَا، قَالَتْ: فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ، وَقَالَ: «إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ» متفق عليه .

﴿ فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ ﴾ ناصره ومعينه وحافظه ومؤيده، ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ مولاه ، ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر وعمر، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ كلهم أعوان لمحمد ﷺ.

﴿ عَسَى رَبُّهُ ﴾ هذا قول عمر لأنه قال له: يا رسول الله إن طلقتهن أبدلك الله أزواجًا خيرًا منهن، فأنزل الله: ﴿ عَسَى رَبُّهُ ﴾ وعسى في حق الله موجبة، لكن هذا الأمر لم يقع؛ لأنهن التزمن بما خيرهن به النبي ﷺ، ﴿ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ جميعًا، ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ كما قال الله عزو جل: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[محمد:٣٨]، ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ مستسلمات لله طائعات منقادات، ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات وموحدات، ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ كثيرات القيام بأمر الله عز وجل ومداومات على ذلك، من دعاء وصلاة وغير ذلك ولما طلق النبي ﷺ حفصة جاءه جبريل يأمره أن يراجعها فإنها صوامة قوامة، فكنَّ على خير في باب الطاعة والعبادة، وما اصطفاهن الله عز وجل لمحمد ﷺ إلا لعظيم شأنهن ولجميل فعلهن، ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ مما حصل منهن من اللمم أو نحو ذلك، ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ كثيرات العبادة، ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ قيل: صائمات وقيل مهاجرات، ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ يزوجك ثيبات وأبكارًا، وأما في الواقع لم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غير عائشة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب للمؤمنين المتقين المنيبين،﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: اسعوا في سلامة أنفسكم، ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ أزواجكم وأبنائكم مروهم بالخير، وحذروهم من الشر، ﴿ نَارًا ﴾ تكون يوم القيامة للمخالفين لشرع الله، ومن حالها: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ لعذابهم ﴿وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ ﴾ يحرسونها، ﴿ غِلاظٌ ﴾ في صفاتهم، حيث وفيهم فضاضة على أهل النار، كما قال الله عز وجل: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧] ﴿ شِدَادٌ ﴾ في قوتهم لا يفوتهم فائت ولا يرحمهم مُسْتَرْحِم، ﴿ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ﴾ لطاعتهم لله عز وجل، كما قال تعالى: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٧] ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فتجد أنهم يحشون النار ويقيدون فيها الكفار ويسقونهم الحميم إلى غير ذلك مما وكلوا به.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لم يأتِ في القرآن نداء الكافرين غير هذا الموطن، ﴿ لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ فقد أمهلتم في الدنيا وأُخرتم واختبرتم فأبيتم إلا الكفر، فيوم القيامة ليس بموطن عتاب وليس بموطن اعتذار: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٧-١٠٨]، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ يوم القيامة، ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فعذابكم بسبب ذنوبكم، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ هذا نداء من الله عز وجل للمؤمنين بالتوبة إليه والتوبة واجبة من كل ذنب، فيجب على الإنسان أن يتوب من ذنوبه في ليله ونهاره، فعن أبي موسى ﷺ قال قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» **أخرجه مسلم**، والتوبة: هي الرجوع، ﴿ نَصُوحًا ﴾ أي: مستوفاة الشروط بحيث يندم على الفعل ويترك الذنب ويعزم أن لا يعود ويتحلل من المظالم، وقيل: النصوح هي التي لا يرجع فيها إلى الذنب وهذا القول غير صحيح؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا – وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا – فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ – فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – أَوْ أَصَبْتُ – آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ – أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ – آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» **أخرجه مسلم عن أبي هريرة** ﷺ، وليس في الحديث إباحة المعصية ولكن لبيان فضل التوبة.

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ ﴾ إن تبتم توبةً نصوحًا، ﴿ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أن يذهب عنكم سيئاتكم بمغفرتها والتجاوز عنها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود:١١٤]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾[البقرة:١٦٠]، وقال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[الفرقان:٧٠].

﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي: جزاء توبتكم وتحللكم من معاصيكم وذنوبكم، ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وهذا يوم القيامة حين يخزي الله الكفار على رؤوس الأشهاد: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨]، ويُكرم محمداً ﷺ ومن إليه على رؤوس الأشهاد وتظهر فضائلهم ويشربون من الحوض المورود ويكون هو وأمته أول من يجيزون على الصراط وأول من يدخلون الجنة.

﴿ نُورُهُمْ ﴾ أي: على الصراط، ﴿ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ لما كانوا في الدنيا على نور أكرمهم الله في الآخرة بنور، وأما أهل النفاق فكانوا يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فأعطاهم الله نوراً فلما علوا على الصراط انطفأ النور الذي معهم فقالوا للذين أمنوا: ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾[الحديد:١٣-١٤]، الآية، فالمؤمن نوره تام لما كان على نور تام: ﴿

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[هود:١٧].

﴿ يَقُولُونَ﴾ من هجيرهم في ذلك اليوم حين يرون من يتساقط في النار ومن ينطفئ نوره، ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ حتى ندخل إلى الجنة، ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ تجاوز عن ذنوبنا ومعاصينا، ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزك شيء في السموات ولا في الأرض، وهذه الآية تدل على عظيم فضل التوبة التي قد يسوفها الكثير من الناس، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[طه:٨٢]، وفيها: إشارة إلى إثبات الصراط؛ لأن هذا النور يكون على الصراط يوم القيامة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ نداء للنبي ﷺ، ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بلسانك وسيفك ومالك، ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وقد جاهدهم بلسانه لا بسيفه، ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ في الكلام والإنكار؛ لأنهم لا يستحقون الرفق لشدة عداوتهم وكثرة خلافهم للمسلمين، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ في الآخرة، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مصيرهم، وأما قول الله عز وجل: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا } [الأحزاب: ٦٠] ، فهذا الإغراء لم يقع .

ثم قال: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، ﴿ امْرَأَةَ نُوحٍ ﴾ لو كان النسب أو القرب ينفع لنفع ابن نوح وامرأة نوح لكن لا ينفع، ﴿ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ﴾ ذكر الله عز وجل نبيين كريمين وذكر امرأتيهما وكانتا لئيمتين تمالأتا مع أقوامهن على الكفر، ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ رسل وأنبياء وفي غاية من العبادة والصلاح والعلم، ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ الخيانة في الدين وليست خيانة الزنا، قال ابن عباس: ما زنت امرأة نبي قط، وفي هذا رد على الرافضة الذين يتهمون عائشة بما برأها الله منه، فالله يصون نبيه وجنابه أن تكون تحته امرأة عاهر تكون مع غيره ثم تعود إليه، هذا أمر لو وقع لعوام الناس لرأوه نقيصة فكيف يظن بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام؛ ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا ﴾ لم يغنِ نوح عن زوجه ولا لوط عن زوجه، ﴿ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ لأن الكافر كما قال الله: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[المدثر:٤٨]، وقال: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، ﴿ وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ من الكفار والمنافقين.

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ حتى يقع منهم الاستبشار والثبات، ﴿ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسيا بنت مزاحم كانت على الإيمان وتحت أشد الناس كفرًا إذ ادعى الربوبية، حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾[النازعات:٢٤]، ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ دعت الله أن يخلصها من فرعون وأن يبني لها بيتًا في الجنة، وقولها عندك تشعر بالعلو؛ لأن العندية من أدلة العلو وأن الله على عرشه بائن من خلقه، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ

﴿ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ من كفره وبغيه، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ويذكرون في معنى قول الله عز وجل: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾[ص:١٢]، أنه غرس أربعة أوتاد فربط كل طرف من أطراف زوجته في تلك الأوتاد الأربعة ثم جاء بصخرة عظيمة فألقاها عليها فماتت وهي تضحك، هكذا يذكرون والشاهد: أنها دعت الله عز وجل أن يكرمها بكرامة الصالحين ومع ذلك لم يضرها أنها كانت زوجة لفرعون، ففرعون كافر وعمله له وهي على الإيمان وهي من كُمل المؤمنات قال النبي ﷺ: « كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» **أخرجه أحمد**، وما جاء: (وفاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد)، قد تكلم العلماء في هذه اللفظة على أنها من رواية قتادة وفيها كلام.

﴿ وَمَرْيَمَ ﴾ وأيضًا ضرب الله للذين أمنوا مثل بمريم ابنة عمران الصالحة القانتة التي تُكلم في عرضها واتهمت بالزنا وهي بريئة منه وما ضرها ذلك؛ لأن الله رفعها: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[مريم:٢٧-٣٢]، ومع ذلك أبوا إلا اتهامها بما برآها الله منه.

﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ عن الرجال وحافظت على نفسها وعفتها، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أرسل الله عز وجل إليها جبريل عليه السلام فنفخ من روحه أي: من الأرواح التي عنده فكان هذا الغلام، ولما جاءها جبريل قالت: ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[مريم:٢٠]؛ لأن الغلام يأتي إما بالزوج وإما بالزنا، فقال لها: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[مريم:٢١]، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، وعيسى مخلوق وليس برب ولا خالق كما تزعم النصارى عليهم لعائن الله تترًا، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ

رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ " متفق عليه .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ التي جاءها الوحي بها في هذا الأمر بعينه وهي ليست بنبية على الصحيح وإن ذهب ابن حزم والقرطبي وإنما هي صديقة فليس من النساء نبي، قال الله عز وجل: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ } [المائدة: ٧٥] ، فلو كانت نبيه لذكرت به، إذ أن هذا موطن مدح وثناء، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } [يوسف: ١٠٩] ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ الشرعية، ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ المنزلة على أنبيائه ورسله، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ من العابدين الطائعين لرب العالمين والملازمين لذلك، والحمد لله رب العالمين.[1]

[1] انتهينا في الثاني والعشرين من رمضان لعام ١٤٤١هـ من تفسير جزء المجادلة.

بسم الله الرحمن الرحيم[*]

سورة الملك.

مكية .

من أهم المهمات معرفة معاني كلام الله عز وجل، فإن الله سبحانه وتعالى تكلم بهذا القرآن وأوحاه إلى محمد عليه الصلاة والسلام ليعلم معناه ويعمل به، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧]، ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[الأعراف:٣]، ومعلوم أن الإنسان لا يمكنه الاتباع إلا إذا علم المعاني.

وأشرف ما بذلت الأوقات لفهمه وعلمه والعمل به لهو كتاب الله عز وجل الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢]، ولما كان شأن السور القصيرة أن يقرأُها الكبار والصغار وتُقرأ في الصلوات، ولها من الفضائل الكثيرات، رأينا أن نمر على ما يسره الله عز وجل منها.

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هذه آية افتتح الله بها سور القرآن إلا سورة التوبة، وعدد البسملة في القرآن الكريم مائة وأربعة عشر بعدد السور، والرابعة عشر بعد المائة في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠].

﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ الباء للاستعانة، وإذا أعانك الله عز وجل سهل لك العسير وقرب لك البعيد.

قال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وصف لله عز وجل معناه: تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، تعالى عن النقائص والمعايب فهو الكامل عز وجل في ذاته وصفاته وأسمائه، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، وقد افتتح الله هذه السورة وسورة الفرقان بهذا المعنى العظيم: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾[الفرقان:١]، وقال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤]، أي: أنه عز وجل

[*] كان الابتداء في يوم الجمعة الأول من رمضان لعام: ١٤٤١هـ في مسجد الصحابة

متعاظم ومتعالي عن صفات المحدثين والمخلوقين، لكماله المقدس من كل وجه في صفاته وأسمائه وذاته وأفعاله .

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ أي: هو الذي بيده الملك المطلق فالملك ملكه، السموات والاراضين وما فيها وما بينهما: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾[آل عمران:٢٦]، ولتمام ملكه فهو تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[هود:١٠٧].

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكل من ألفاظ العموم، فلا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض لكمال علمه وكمال قدرته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤] .

﴿ الَّذِي ﴾ أي: الله، ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ ﴾ خلق الموت مع أن الموت عدم إلا أن الله عز وجل أوجد الإنسان منه بعد أن لم يكن فصار شيئًا مذكورًا، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾[الإنسان:١-٢]، ﴿ وَالْحَيَاةَ ﴾ ما أنتم فيها من المآكل والمشارب وغير ذلك، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ يختبركم، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وحسن العمل يكون بأمرين: بالإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ﷺ، ولهذا قال فضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، أي: أن أحسن العمل ما كان خالصًا لله وكان صوابًا على سنة رسول الله ﷺ، وهذه هي الحكمة من خلقنا للاختبار والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت:١-٢]، وكما قال عز وجل في سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[الإنسان:٢] .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يعجزه شيء، ﴿ الْغَفُورُ ﴾ الذي يتجاوز عن أوليائه وأصفيائه، وجمع بين العزة والمغفرة لبيان عجيب تصرفه، فالعزيز هو العظيم: الذي لا يغلب، ومع ذلك غفور رحيم متجاوز عن أوليائه.

ثم قال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ هو أيضًا الذي خلق سبع سموات كل سماء فوق الثانية، وهل هي متصلة ببعضها أو متفارقة؟ الصحيح: أنها متفارقة كما جاء في الأثر عن عبد اللهَّ بن مسعود أنه قال : « " مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ

وَالْمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ ، وَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ " أخرجه الطبراني ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ أي إذا نظرت إلى السماء لا تجد فيها ما يدل على نقصان بنائها، أو ما يدل على عدم إتقانها، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ مرةً بعد أخرى، ﴿ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ هل ترى من نقص في السموات وفي تكوينها؟ وفي كواكبها ونجومها وغير ذلك؟ أبدًا.

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أعد النظرة بعد النظرة، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴾ يعود إليك بصرك، ﴿ خَاسِئًا﴾ ذليلاً صاغراً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ عليل، والمعنى: أنك لو كررت النظر لترى خللاً لن يكون ذلك .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ أي وبعضها ترمى بها الشياطين الشهب، وقيل: من هذه الكواكب تخرج هذه الشهب التي يرمي الله عز وجل بها الشياطين التي تسترق السمع من السماء، وقد سلطت عليهم الشهب قبل بعثة النبي ﷺ على ما يأتي في تفسير سورة الجن إن شاء الله، قال قتادة: خلقت النجوم لثلاثة: الأمرين الذي ذكرهما الله في هذا الموطن زينة للسماء، ورجوم للشياطين، وعلامات يهتدى بها، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ أي: للشياطين: ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم فأخزاهم الله في الدنيا وعذبهم في الآخرة، كما قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات: ٦ - ١٠] .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ كما أن للشياطين عذاب السعير كذلك للذين كفروا وأعرضوا عن دين الله عز وجل، ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ نار جهنم وهو عذاب موجع، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس المصير مصيرهم كما أن نعم المصير مصير المؤمنين إذ ينعمون في جنة النعيم.

وقال في وصف أحوالهم: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا ﴾ إذا أُلقوا في النار، وسبحان الله أهل الجنة يمشون إليها مشيًا وتفتح أبوابها، وأهل النار يساقون إليها سوقًا ويلقون فيها إلقاءً، ﴿ سَمِعُوا لَهَا ﴾ أي: النار، ﴿ شَهِيقًا ﴾ صوتًا عظيمًا كما بدأ صوت نهيق الحمير، ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ من شدة غليانها.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تنقطع ﴿مِنَ الْغَيْظِ ﴾ لشدة غيضها على الكفار وحنقها عليهم تتميز وينفصل بعضها عن بعض، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ من الكفار، ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ ملائكة الله الذين وكلوا بإعدادها والقيام على من فيها، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهذا سؤال للتكبيت وسؤال إنكار عليهم، ألم يرسل الله عز وجل إليكم رسلًا وينزل كتبًا يدعوكم إلى عبادته، وطاعته، وامتثال أمره، وهذا دليل على أن الله عز وجل لا يعذب أحدًا حتى يبعث إليه رسولًا، كما قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥]، وفي سورة الزمر: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[الزمر:٧١]، والنذارة تكون بالتخويف، والبشارة تكون بالترغيب .

﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي: نعم، ﴿ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ أي: رددنا دعوته وأعرضنا عن كلامه، ﴿ وَقُلْنَا﴾ للرسل ﴿مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهذا لكبرهم وعنادهم وإلا فإن الرسول ﷺ صاحب الصدق والأمانة وكانوا يلقبونه بهذا قبل مبعثه، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ يقولون للمؤمنين: أنتم في ضلال كبير ونعوذ بالله من الخذلان، من الذي في ضلال كبير؟ الذي يعبد الأصنام والشجر والحجر؟ أم الذي يعبد الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء؟

﴿ وَقَالُوا﴾ أي الكفار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ قالوا: لو كنا نسمع الحق ونعقل ما ينفعنا، إذ أنهم كانوا يسمعون الأصوات لكن لم تنفعهم، لما علم من حالهم: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩] ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ما كنا مع أصحاب الجحيم نعذب.

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ لكن في وقت لا ينفع الاعتراف؛ لأن الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل، فعند ذلك كل يعترف: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٠]، ﴿ فَسُحْقًا ﴾ بعدًا، ﴿ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾.

ولما ذكر الكافرين وما هم فيه من الخزي ذكر المؤمنين وما هم عليه من حسن الحال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي: يخافون الله مع تعظيمه، ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ يراقبونه في ليلهم ونهارهم

وسرهم وجهارهم، ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ تكفر ذنوبهم وستر عيوبهم، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يلقونه في الدنيا والآخرة، ويدل على هذا المعنى ما في الصحيحين: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ... وذكر منهم: وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ".

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ ﴾ أيها الناس أسروا قولكم فلا يسمع، ﴿ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ حتى يسمع ﴿إِنَّهُ﴾ فإن الله عز وجل: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ كما قال: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩]، ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩]، فهذا نذارة من الله:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي كيف لا يعلمكم يا معاشر الإنس والجن ما في صدوركم وهو الذي خلقكم وركب فيكم أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم وعقولكم وجميع شأنكم، ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ العليم بما لطف ودق وخفي، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ العليم بالظواهر والبواطن.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ﴾ أي: من صفاته عز وجل أنه خلق لكم الأرض: ﴿ ذَلُولًا ﴾ مذللة وهادها تمشون فيها وتتكسبون منها، ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ امشوا في جبالها وسهولها، ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ مما خلقه الله لكم، ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ في آخر حياتكم حيث تبعثون من قبوركم فيسألكم عن أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١].

ثم قال عز وجل: ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ هل أمنتم من بطش الله الذي هو تعالى ذكره في السماء سبحانه وتعالى، أي: على السماء استوى على عرشه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه:٥]، وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الله عز وجل في العلو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ أن يزلزل بكم هذه الأرض التي تمشون عليها، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ فإذا هي تتحرك بأهلها، وقيل تهوى بهم .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ كررها للتخويف والوعيد، هل أمنتم من في السماء وهو الله، ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ريحًا ومطرًا، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ يعني: عند أن يهلككم عند ذلك تستيقنون ما لحق بكم، وفعلًا أن الإنسان يعرف ضعيف نفسه ففي هذه الأيام لحق البشرية من

فيروس كورونا كيف أصبح أصبح الناس؟ أصبح الناس في وضع كما يقال: لا يحسدون عليه، في ضيق مال، وضيق عيش، وضيق أمنٍ: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[الحشر:٢].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل كفار العرب من اليهود والنصارى وغيرهم، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ كيف أنكر الله فعلهم إذ عذبهم وسلط عليهم، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠].

ثم قال الله عز وجل مبينًا الآية العظيمة التي يراها كل واحد منا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ﴾ ألم تتفكر يا عبد الله في الطير، ﴿ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾أي تخرج جماعات، ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ تقبض جناحها وما تسقط، انظر في شأنك لو أنك في سطح متقبض بحبل ثم أفلت الحبل تسقط، وهذا الطير يطير في السماء ويقبض جناحه ولا يسقط ويرسل جناحه ولا يسقط، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أي الله الذي يمسكهن، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ كل شيء مطلع ببصره الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿ أَمَّنْ هَذَا﴾ استفهام إنكار ﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ منعة لكم ﴿يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أخبروني من هم الجند الذين ينصرونكم من دون الرحمن حين إعراضكم وكفركم؟ لا راد لحكمه ولا غالب له، ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ في غرور من الشيطان وغرتهم الدنيا وفيها من الأماني.

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴾ أي من الذي يرزقكم المطر، ﴿ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ إن منع الله عز وجل رزقه عنكم، ﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ وقعوا في كبر وبعد وإلا فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولو منعك الله لقمة لو اجتمع عليك أطباء الدنيا على أن تأكلها لعجزت عنها، ولو كانت لك لقمة لو اجتمع أعداء الدنيا على أن يحولوا بينك وبينها ما استطاعوا، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» أخرجه ابن ماجه .

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى ﴾ أي: في الدنيا بالبدع والخرافات والكفريات، وفي الآخرة يمشي على وجهه حقيقةً كما في حديث أنس: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ» أخرجه مسلم، ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يمشي على الكتاب والسنة وفي الآخرة

يمشي على الصراط حتى يدخل الجنة.

ثم أخبر الله عن عظيم شأنه: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ ﴾ خلقكم وأوجدكم، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ أي: أوجد لكم السمع تسمعون به، ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ تبصرون به بها، ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ تتفكرون بها، ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ لكن الواقع أن قليلاً من عباد الله من يشكر هذه النعمة ويستعملها في طاعته، وكان الواجب عليهم أن يشكروا الله عليها ويذكروه بها .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ هو الذي أوجدكم في الأرض وجعلكم مستخلفين فيها، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ بعد موتكم ونشوركم.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ حين أخبرهم بالحشر قال الكفار: متى هذا الوعد؟ مستبعدين له، ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين في دعواكم متى الساعة؟ وقد سُئل به النبي ﷺ كثير، قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله ﴾[الأحزاب:٦٣]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[النازعات:٤٢]، ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾[المعارج:١-٢]، وقال: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ } [النبأ: ١ - ٥] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ الله ﴾ علم الساعة عند الله، كما قال تعالى: {إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: ٣٤]، وقال: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾[طه:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[الأنعام:٥٩]، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴾ لكم بين يدي عذاب شديد، ﴿ مُبِينٌ ﴾ مبين لكم ما ينفعكم الله به في دنياكم وأُخراكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي: العذاب، ﴿ زُلْفَةً ﴾ قد قرب منهم، ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تغيرت واسودت، ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ هذا الذي كنتم تدعون به وتتعجلونه، وتتغير وجوههم كما قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران:١٠٦]، وكما قال الله عز وجل:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[طه:١٢٤].

﴿ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ ﴾ ، أخبروني يا معشر قريش ، ﴿ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَنْ مَعِيَ ﴾ إن أهلكني الله وأهلك أصحابي، ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بسعة الأرزاق وحفظ الأرواح، ﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والمعنى: سواء أُهلكنا أو رحمنا من الذي يجيركم من عذاب أليم.

﴿ قُلْ﴾ قل لهم يا محمد ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ ﴾ الذي يجير من العذاب الأليم هو الرحمن الذي يرحم عباده المؤمنين، ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أقررنا وصدقنا وانقدنا، ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ اعتمدنا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق:٣]، وقال: ﴿ وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣]، **وعن عمر رضي الله عنه** «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» **أخرجه أبو داود،** ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ أي سوف تعلمون إذا جاء أمر الله، ﴿ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ في بعد بين نحن أم أنتم يا معاشر الكافرين.

﴿ قُلْ ﴾ قل لهم يا محمد، ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني، ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ إن صار ماؤكم الذي تشربون منه غائرًا في الدنيا لا تتوصلون إليه بحفر ولا بحبل ولا بشيء من ذلك، ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ظاهر تراه العيون يجري على الأرض فغير الله لا يمكن .

فقد تضمنت هذه السورة كثيراً من العبر والآيات التي حاجج بها رسول الله ﷺ الكافرين، وقد جاء في شأنها عن أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود : «سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَةً، خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ»، فهي من السور التي تحاج عن صاحبها وتشفع له، وأما ما جاء في فضل قراءتها قبل النوم وإن كان ظاهره الصحة إلا أن أهل العلم قد تكلموا عليه، وأما ما يفعله بعض الناس من تعلقيها كحروز وتمائم فهذا من المحدثات.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

مكية على القول الصحيح.

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾، ﴿ ن ﴾ قيل: اسم للحوت وقيل: اسم للدواه التي يكون فيها الحبر، وقيل: من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها كثيرًا من السور، واختلف العلماء في معاني هذه الحروف، فقيل: بأنها أسماء للسور التي تفتتح بها، وقيل: بأنها أسماء لله عز وجل، وقيل: بأنها إشارة لأكثر الحروف التي تتكون منها السورة، وقيل: بأنها بيان لعمر أمة محمد وهذا أبعد الأقوال إذ أن صاحبه يسير على طريقة اليهود في حساب الأعمار، ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ قيل: بأنه القلم العام الذي خلقه الله عز وجل، فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال : «لما خلق الله القلم قال اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى الْقَلَمُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » **أخرجه أبو داود وغيره**، وقيل: بأنه القلم الذي كتب الله عز وجل به الذكر، والشاهد: أن الله أقسم بالقلم: ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي وأقسم بما يسطرونه، وهو المكتوب بقلم الوحي، أو القلم العام، أو جميع الأقلام لشرفها؛ فإن تصريف أمور الناس تكون بها حتى اختلف العلماء في أيهما يقدم دم الشهداء أم مداد العلماء فكان المقدم مداد العلماء؛ لأن الشهيد لا يكون شهيدًا إلا إذا صدر فعله عن فتوى العلماء.

قال ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٠٧):

فصل

والأقلام متفاوتة في الرتب فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله يقول " إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يا رب وما أكتب قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة "

واختلف العلماء هل القلم أو المخلوقات أو العرش على قولين ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال قال رسول الله "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام عرشه على الماء"

فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا

ولا يخلو قوله إن أول ما خلق الله القلم إلى آخره إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كانمعناه أنه عند أول خلقه قال له أكتب كما في لفظ أول ما خلق الله القلم قال له أكتب بنصب أول والقلم فإن كانا جملتين وهو مروى برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به

فصل

القلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم خدم لهم وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي

فصل

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه فإليه التحاكمفي الدماء والأموال والفروج والحقوق وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام وأقلام العالم خدم لهذا القلم

فصل

القلم الرابع قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة وترد إليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة

فصل

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام والمشاركون للملوك في تدبير الدول فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت

أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

فصل

القلم السادس قلم الحساب وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقاديرها وهو قلم الأرزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير وما بينها منالتفاوت والتناسب ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذ القلم وظلم فسد أمر المملكة

فصل

القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص فهذا له الفنوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه

فصل

القلم الثامن قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو الأمين على الدماء والفروج والأموال والأنساب والحقوق ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان

فصل

القلم التاسع قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيرهوتعبيره وما أريد منه وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفاء باطن وحس مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام وأعمها جولانا وأوسعها تصرفاً وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه

فصل

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى

أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك

فصل

القلم الحادي عشر قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من أحوالهاووجوهها وأنواع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

فصل

القلم الثاني عشر القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا بواسطة القلم ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول في وصفه: لك القلم الأعلى الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

له ريقة طل ولكن وقعها ... بآثاره في الغرب والشرق وابل

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل

له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل

فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل

إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل

وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل

رايت جليلاً شأنه وهو مرهف ... ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل . اهـ

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي: ما أنت يا محمد بمجنون كما يزعمون ويدعون، وهذه تهمة يتتابعون عليها كما قال الله ﷻ: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[الذاريات:٥٢-٥٣]، وقد أشاع الكفار في مكة أن محمدًا ﷺ به جنون حتى جاء ضماد رضوان الله عليه إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح فهل لك، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»، قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ» أخرجه مسلم ، ثم إن الخير الذي أتى به النبي ﷺ يدل على عدم جنونه إذ أن المجنون يتصرف في أمور لا يحسنها والنبي ﷺ كان ذو عقل راجح ورأي صائب.

﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ أي: إن لك يا محمد عند الله عز وجل بسبب دعوتك إلى الخير، ﴿ لَأَجْرًا ﴾ جزاء دعوتك إلى الخير، ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير منقطع، كما قال تعالى في وصف الجنة: ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٣٣]، وذلك أن الدلالة على الخير أجرها عظيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» أخرجه مسلم .

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» أخرجه مسلم .

﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ على خلق عظيم ومنزلة رفيعة، وكان خلقه ﷺ القرآن

كما قالت عائشة رضي الله عنها، فكان خلقه عظيماً في العبادات، والمعاملات، والأخلاق وجميع الأبواب، فهذا لفظ عام يدخل تحته كل فعل حسن، و«كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً» متفق عليه عن أنس رضي الله عنه.

﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ ما يكون لهم وما يكون لك، ﴿ وَيُبْصِرُونَ ﴾ ما يكون لهم وما يكون لك، وعند ذلك يُعرف المحق من المبطل، والمصيب من المخطئ.

﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أنت أم هم، والصحيح الذي لا مناص ولا معدل عنه أن المفتون هم كفار قريش إذ كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، وكانوا يشركون بالله سبحانه وتعالى ويندون.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ من الكفار والمعرضين، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ السالكين لسبل الهداية والمستقيمين على أمر الله وشرعه والمبتعدين عن طريق الغواية.

﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ إياك أن تكون منك طاعة للمكذبين الكافرين، فإن من أطاعهم أردوه وحرفوه، وقد أمرنا الله أن نتخذهم أعداء فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[الممتحنة:١].

﴿ وَدُّوا ﴾ أي: الكفار، ﴿ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ تقرب منهم، ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ يقربون منك، أو قيل: ودوا لو تتنازل عن دينك فيتنازلون عن شيء من دينهم، المهم: أنهم يطلبون من النبي ﷺ كتنازل عن الحق، وربما تنازلوا عن شيء من باطلهم لكن هذا لا يستقيم، وفي هذا توجيه رباني للدعاة إلى الله عز وجل بعدم الميل إلى أهل البدع والركون إليهم كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[هود:١١٣]، حتى وإن قالوا لك: نتعاون ونتفق ونحو ذلك، قل لهم: ما أمرنا الله بهذا، أمرنا الله عز وجل بالصفاء والنقاء.

﴿ وَلا تُطِعْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي: كثير الحلف بالله عز وجل من أجل أن تصدقه، ﴿ مَهِينٍ ﴾ في نفسه وفي طريقته لمخالفته لأمر نبيه ﷺ.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ حاله أنه هماز مغتاب، وقد قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[الهمزة:١]، كثير الغيبة، ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يفرق بين الناس بالنميمة، وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»، وفي لفظ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» متفق عليه، وهذا درس بليغ: أن الإنسان يكون بعيدًا عن الهمازين واللمازين، وعن المغتابين والنمامين؛ لأنهم بهذا يريدون العنت للمسلمين.

ومن صفات هذا الرجل أيضًا أنه: ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ لا يبذل الخير الواجب عليه ولا يأمر به، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ معتد فيما يتعلق بتوحيد ربه بالشرك، ومعتد على محمد ﷺ بتكذيبه، ومعتدي على المستضعفين بتعذيبهم، ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي: أنه كثير الآثام؛ بسبب المعاصي والإجرام الذي يرتكبه.

﴿ عُتُلٍّ ﴾ متكبر جواض وقد قال النبي ﷺ لما سئل عن أهل النار: « كل عتل جواظ مستكبر » أخرجه مسلم ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قيل: بعيد ملتصق ليس من أصل قريش، وإنما هو دعي ملتصق بهم ومع ذلك يريد أن يظهر أنه صاحب شأن وأنه تربص بمحمد ﷺ الدوائر.

﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي: لا تغتر به أو يركن إلى نفسه أن كان ذا مال قد أعطاه الله وبنينًا فإن هذا لا يدل على رضوان الله عليه كما يزعم الكفار، فإنهم حين يرون ما هم فيه من النعيم يظنون أن هذا لكرامتهم ومنزلتهم، وحاشا وإنما هو كما قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥]، وقال الله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[مريم:٧٧-٨٠].

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ومن عجيب شأنه أن الله وهب له مالًا وبنيًا ومع ذلك إذا سمع القرآن: ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: أحاديث الأولين وقصصهم أخذها النبي ﷺ ممن سبقه، والأساطير الترهات والأباطيل، وهذا قول كثير من المشركين، كما قال: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾[الفرقان:٥]، مع أنه وحي الله سبحانه وتعالى، والنبي ﷺ كان بعيدًا عن مجالسة الأولين، في أوله صغيرًا كان سعد، ثم يتيمًا في حجر جده، ثم في حجر عمه، ثم كان راعيًا للغنم، فلم يكن من أصحاب سماع الأساطير حتى يقولها.

قال: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ أي: نجعل له علامة على خرطومه وهي أنفه، قيل: هذه العلامة كانت في غزوة بدر حيث ضُرب في أنفه وقيل: تكون يوم القيامة علامة في وجهه على أنه هو المعني بهذا الشأن.

ثم قال الله عز وجل مهددًا قريش الذين عصوا وتمردوا وأعرضوا: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي: معشر قريش اختبروا بما هم فيه من الخير والنعيم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أصحاب الجنة يذكرون

أنها في ضروان من بلاد صنعاء وسيأتي شأنهم، والمراد بالجنة المزرعة المليئة بالثمار والأشجار، ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا ﴾ تقاسموا فيما بينهم، ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ليقومون بجذاذها وقطفها في الصباح قبل وصول الفقراء والمساكين إليهم؛ وهذا لشدة بخلهم ولعظيم تحيلهم في منع حق الله عز وجل؛ لكن حل بهم ما لم يتوقع وهو أن الله أذهب هذه المزرعة، فعليك أيها المسلم أن تتقي الله عز وجل بأداء ما وجب عليك قبل أن يحال بينك وبينهم.

﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ حتى أنهم ما قالوا: إن شاء الله نأتي الصباح ونقطف ثمارنا بل عزموا على الشر وتيقنوا وقوعه، فكان خلاف ما أملوه.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ طاف عليها طائف من النار، أو طائف من الملائكة أحرقها وذهب بخيرها وبركتها، ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ راقدون لم يعلموا بما حل بها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠].

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أصبحت كالشيء البالي الذي لا تلوي فيه على شيء، كأنها مصرومة مقطوعة، وقيل: كالليل الأسود .

﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ ﴾ أي لما كان وقت الصبح، فقام بعضهم يوقظ بعضاً، هلموا إلى مزرعتكم وحديقتكم وعاجلوا بجني ثمارها قبل أن يأتي المساكين والفقراء.

﴿ أَنِ اغْدُوا ﴾ بكروا وعجلوا بالغدو، ﴿ عَلَى حَرْثِكُمْ ﴾ على مزرعتكم، ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ قد عزمتم على جذاذها وعلى أخذ ثمارها.

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ خرجوا من دارهم يتكلمون بصوت خافت حتى لا يتفطن لهم فقراء القرية فيتبعونهم.

﴿ أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾ يعني: كحال المسرور الذي يضحك مع بعضه، لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخل عليكم، وظنوا أنهم بمنعهم حق الله تزداد أموالهم وبركاتهم وكان خلاف ذلك.

﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ غدوا على شدة غضب وغيض وجد يعتقدون القدرة على الجذاذ والفوت للفقراء والمساكين.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ وقد لحقها ما لحقها، ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لقد

أخطأنا الطريق إلى جنتنا بسبب ظلمة الليل.

ثم استدركوا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي إن ما لحقنا هو الحرمان، حرمنا الله الرزق والخير بسبب مكرنا وبغينا، وهكذا من منع حق الله يوشك أن يمنعه الله عز وجل حقه.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي: خيرهم، وأعقلهم، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ قولوا: إن شاء الله، واستثنوا .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي: قالوا سبحان الله، واستثنوا في هذا الحال، ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي: بمقولتنا السابقة بمنع الفقراء والمساكين، ولكن متى قالوا هذا؟ حين لا ينفع الندم، بعد حصول العذاب، وعسى أن تقبل منهم هذه التوبة إلى الآخرة إن أحسنوا، وأما في شأن الدنيا فقد وقع العذاب.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ أقبل الإخوة كل يلوم الآخر أنت الذي وأنت الذي، أنت الذي أمرتني قال: وأنت الذي أقررتني، قال: وأنت الذي فعلت معي.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل والثبور، ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي: بمنع الفقراء والمساكين فإن هذا من الطغيان العظيم نسأل الله السلامة والعافية، فالطغيان: هو مجاوزة الحد، إذا منعت الفقير حقه فأنت طاغي، وإذا أخذت حق الناس فأنت طاغي.

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ أي: أنهم دعوا الله عز وجل ورجوه أن يبدلهم جنةً خيرًا من جنتهم، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي: راجعون وطامعون في بركات ما عند الله سبحانه وتعالى.

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ هذا هو العذاب: أن الله عز وجل يذهب ما بين يديك في لمحة عين وبصر، حيث كانوا أصحاب جنة، وغنى وخير، وإذا بهم لا يلون على شيء، وكانوا يؤملون أن تزداد أموالهم من هذه الجنة فصارت حطيمًا، والحال كما قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ لمن كفر وتمرد وتكبر، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ما أوحاه الله عز وجل إلى أنبياءهم ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ولما ذكر الله عز وجل شأن الكافرين والمخالفين ناسب أن يأتي بشأن المؤمنين ترغيبًا لهم في الإقبال على عبادة الله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: في الآخرة، ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: عند خالقهم ورازقهم ومالكهم، ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ جنات فيها الخير العظيم من دخلها ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا

يفنى شبابه، وهي جنة واحدة وإنما جمعها لكثرة من يكون فيها؛ ولأن لكل واحد موطن يحويه ويتنعم فيه.

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ أهذا يعقل أن يكون المسلم الموحد الطائع، المصلي والصائم والمزكي لله عز وجل كالمجرم الكافر قاطع الصلاة والمضيع للزكاة والمضيع لحق الله؛ أبدًا ولا يمكن أن يستوي المؤمن والكافر، ولا يمكن أن يستوي البر والفاجر، لا يمكن أن يستوي السني والبدعي، لا يمكن أن يستوي الطائع والعاصي.

في البخاري عن سهل بن سعد قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» أخرجه البخاري .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي كيف تظنون هذا الحكم الجائر المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ: فتظنوا أن محمداً ﷺ ومن إليه من الصحابة كأبي جهل ومن إليه من المجرمين وطواغيت الكفر لا يكون هذا أبد، كما قال الله عز وجل: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠] .

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أم عندكم كتاب فيه هذا الخبر أرونا كتابكم إن كنتم صادقين .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي: لكم في هذا الكتاب ما ترجونه وتتخيرونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أم لكم عهد من الله أنكم أفضل من محمد أو أنكم مثل محمد ﷺ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتأملون .

﴿ سَلْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ من هو ضمينكم في هذه المقولة التي قلتموها وزعمتموها أن المسلم كالمجرم وأن البر كالفاجر وأن المؤمن كالكافر، والواقع أنه ليس عندهم ضمين ولا زعيم وإنما هو التخرف والضلال .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ من أصنامهم وأربابهم المزعومة الله حيث يعبدونها ويدعونها ويتبركون بها من دون ، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ ليقرروا لهم هذه الحقيقة، ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ لكن هؤلاء

الشركاء صم بكم عميٌ أنىّ لهم ولها أن تقرر مثل هذا الأمر.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ أي يوم القيامة حين حصول الزلازل، والأمور العظيمة، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ} [الحج: ١، ٢]، ويأتي الجبار، كما قال عز وجل: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢] ويكشف الله عن ساقه على القول الصحيح في تفسير هذه الآية ففي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ» أخرجه مسلم، ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لا يستطيعون؛ لأنهم قد حرموا أنفسهم من الصلاة والصيام والحج والقيام وغير ذلك وهم في حال الدنيا وحال التزود، فيا تارك الصلاة انتبه لنفسك قبل أن يحال بينك وبين السجود في يوم: ﴿ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

وهم في هذا الحال: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ قد رفعت أبصارهم إلى السماء، كما قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٢] ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تعلوهم قترة وسواد وجه وخزي ومهانة، ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ يدعون في الدنيا إلى السجود والصلاة وهم سالمون فأبوا إلا الكفر، وهذا من أدلة القائلين بكفر تارك الصلاة، فإن تارك الصلاة لا علامة له يُعرف بها يوم القيامة، بينما المُصلي وإن دخل النار فحين يأذن الله لنبيه محمد ﷺ في الشفاعة يعرفهم بمواطن السجود.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مِنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ

مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ» أخرجه مسلم .

﴿ فَذَرْنِي ﴾ دعني، ﴿ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ من الكافرين بالقرآن وبالوحي المبين، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ بالنعم، ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم يظنون أنها دليل على الرضا وليست كذلك وإنما هي من أسباب البلوى، كما قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: ٤٤-٤٥] .

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي: أني أأخرهم لا أُعاجلهم بالعذاب، ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي عظيم، إذا كادهم الله أتى عليهم وأهلكهم ودمرهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٧]، وفيه إثبات صفة الكيد لله عز وجل، وهي من صفات المقابلة على ما هو معلوم في عقيدة أهل السنة والجماعة .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أي ما السبب الذي جعلهم يعرضون عن دخول الإسلام؟ ألأنك تسألهم أجرًا؟ ، والواقع خلاف ذلك فإن حال النبي ﷺ ما قال الله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص:٨٦]، ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أبوا الدخول في الإسلام؛ لأن الإسلام سيكلفهم بذل الأموال الكثيرة؛ والواقع أن الإسلام وعدهم بالغنى والخير العظيم، ودخل أناس في الإسلام لا يلون على شيء فأغناهم الله.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ عندهم علم الغيب أنك لست على حق وأنهم على هدى وأنهم موعودون بالنعيم يوم القيامة ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يكتبونه ويملونه، ما عندهم لا هذا ولا هذا، ما كان من النبي ﷺ أن سألهم أجرًا وما كان عندهم غيبًا وإنما منعهم الكبر والعناد والحسد من الإيمان.

ثم قال الله مصبرًا نبيه ﷺ على كثرة المعرضين والمخالفين: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ اصبر لقضاء ربك فإنه إن شاء نصرك وإن شاء أخر ذلك لحكمة أرادها، ثم شرع الله عز وجل بعد الهجرة الجهاد، ﴿ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ إياك أن تكون كيونس عليه السلام إذ خرج من

قومه مغاضبًا فاضطرب البحر فقالوا: لا بد أن ننقص من حمل السفينة فتم أنهم بعد المساهمة يلقون يونس عليه السلام فألقوه في ذلك البحر الخضم فالتقمه حوت عظيم وسار به في بحار عميقة حتى ذكروا أن يونس عليه السلام سمع تسبيح الكائنات البحرية وعند ذلك سبح الله، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[الصافات:١٣٩-١٤٤]، وكان تسبيحه هو قوله: ﴿ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨]، وأمر الله عز وجل نبيه بالصبر على قومه وأمره أن لا يكون كصاحب الحوت، ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ إذ نادى في الظلمات وهو مكروب مغموم لشدة ما لحقه ونزل به .

﴿ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ لولا أن الله عز وجل تداركه وأنقذه وسلمه وهذه نعمة منه، ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ يُنبذ وهو على حال سيء؛ لكن أكرمه الله عز وجل وأنبت عليه شجرة من يقطين تقيه وقع الذباب ووقع الآفات ثم رده إلى قومه فآمنوا، كما قال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨] ، ولا ينبغي لأحد أن يحتقر يونس عليه السلام فهو نبي كريم، فعن عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» متفق عليه .

﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي: يونس عليه السلام، ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المقربين والمتقربين إليه، فأنت يا محمد سيكون شأنك أعظم من هذا ما عليك إلا الصبر على أذى الكافرين وأبشر من الله بالرفعة والخير العظيم، وقد حقق الله ما وعده، كما قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } [الضحى: ٥] .

﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾، يعني: أن الكفار لشدة حسدهم للنبي ﷺ وبغضهم له كادوا يعونونه حيث يطلقون عليه الأعين والعين حق كما قال النبي ﷺ: «الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ»، وقال : «العين حق» لكن مع ذلك سلمه الله، وهذا

يدل على حسدهم، ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ أي: القرآن، ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ محمد ﷺ وقولهم باطل على ما تقدم.

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي: أن هذا القرآن ذكر من الله عز وجل، ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ لعالم الجن وعالم الإنس من المكلفين، فمن استقام على شرع الله ودخل في دين الله كان من المُكرمين، ومن أبى إلا الكفر والعناد كان من الملعونين .

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة.

مكية.

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ اسم من أسماء القيامة سميت بالحاقة؛ لأن الحقوق تؤدى فيها، أو لأنها واقعة لا محالة.

﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ عظمها وسأل عنها تعظيمًا لشأنها، كأنه يقول: شأنها عظيم، ومن أسماء القيامة: والقارعة، والزلزلة، والصاخة، والطامة وكل اسم مشتق من معناه.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ لتعظيم شأنها، كقول العرب: زيد وما أدراك ما زيد.

﴿ كَذَّبَتْ﴾ كفرت وأعرضت ﴿ ثَمُودُ ﴾ وهم قوم الحجر الذين أُرسل إليهم صالح عليه السلام، ﴿ وَعَادٌ ﴾ سكان حضرموت وما إليها التي أُرسل إليهم هود عليه السلام، وقد ذكر الله ﷻ الأمتين في عدة مواطن من كتابه لشدة إعراضهم وكفرهم وبغيهم ﴿ بِالْقَارِعَةِ ﴾ بالقيامة، وزعموا ألا بعث بعد الموت، وهذا هو ديدن كثير من المشركين في الغالب: أنهم لا يؤمنون ببعث ولا نشور، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية:٢٤].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا ﴾ أي: أن قوم ثمود كان من شأنهم: أنهم أُهلكوا وزلزلوا ودمروا ﴿ بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قيل: بالصيحة وقيل: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾[الشمس:١١]، وقيل: بسبب طغيان ذلك الرجل الذي عقر الناقة، قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت: ١٧]

﴿ وَأَمَّا عَادٌ ﴾ حين كفروا وأعرضوا، ، ﴿ فَأُهْلِكُوا ﴾ دُمروا، ﴿ بِرِيحٍ ﴾ عظيمة، ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ باردة، ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شديدة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾[الفجر:٦-١٢]، وهذا من أشد ما يكون ريح

صوتها وهبوبها عذاب، قيل في شأنها: أن الريح تكون بتصرف الملائكة الموكلين بها إلا هذه الريح فإنها كانت على خلاف ذلك فإنها أُرسلت عليهم، كما قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: جعلها الله عز وجل عليهم، ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ متتابعات متتاليات لم تتوقف، ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ أي قوم عاد : ﴿ فِيهَا صَرْعَى ﴾ موتى هلكى، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ قيل: أعجاز مؤخرات النخل حين تقطع كان هؤلاء الناس مثل هذه الأعجاز رؤوسهم قد شدخت إذ ذكر المفسرون أنها كانت ترفعهم ثم تكبهم على رؤوسِهم ثم تبقى أجسام هامده كأعجاز النخل البالية، وذُكر أن هذه الريح كانت في آخر الشتاء وهي التي تسمى عند العامة بليالي العجوز، وذكروا أن سبب تسميتها بليالي العجوز أن عجوزًا من عاد اختفت أو دخلت لتختبئ من هذه الريح في نقب في جبل ومع ذلك تبعتها حتى ماتت.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ سؤال تقرير، يقول: لا ترى لهم من باقية أُهلكوا ولم يبقَ لهم نسل ولم يبقَ منهم مخبر .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي: وممن أهلكهم الله ما كان من شأن فرعون وهو ملك مصر الذي أُرسل إليه موسى عليه السلام، ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ قُرئت بكسر القاف وبفتحه، فعلى الكسر أي: جاء فرعون ومن قِبله من كان في زمرته وطريقته، وعلى الفتح: جاء فرعون والذين كفروا من قبله، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ قرى قوم لوط عليه السلام الذين جمعوا بين الشرك بالله وفعل الفاحشة المستقبحة، ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي: بالخطيئة وهي الذنب من الشرك فما دونها بالمعاصي حيث والسيئات أُهلكت بسببها الأمم الخاليات.

﴿ فَعَصَوْا﴾ تمردوا وتكبروا ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي رُسل الله وإنما أُفرد وأُضيف ليفيد العموم وكانت معاصيهم متفاوتة منهم من يُشرك ويقع في اللواط، ومنهم من يشرك ويطفف المكيال والميزان، ومنهم من يشرك ويظلم ويقتل، ﴿ فَأَخَذَهُمْ﴾ الله ﷻ﴿أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أي: أخذة قوية، وبطش شديد، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢].

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ في زمن نوح حين دعا على قومه بالغرق والهلكة، ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ أي: حملنا أصلكم وآباؤكم الذين كنتم في أصلابهم، وهذه دلالة عظيمة أن الله أهلك من كان في الأرض إلا أصحاب السفينة.

﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي: هذه السفينة وما كان من شأنها: ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ مذكرة بنعيم الله عليكم وبما حل من العقاب الأليم على الكافرين، ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي: أن هذه التذكرة تسمعها الأُذن الواعية السامعة المستفيدة، ويعرض عنها أهل الكبر والعناد، كما قال الله ﷻ: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١].

فلما أخبر عن دمار وإهلاك الأمم السابقة بسبب ذنوبهم ومعاصيهم في الدنيا ذكر ما يكون من شأنهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ونفخات الصور اثنتان: الأولى للإماتة، والثانية للبعث والنشور: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨]، والصور قرن عظيم ينفخ فيه فإذا أراد الله بعث الناس من قبورهم نزل مطر كمني الرجال فينبتون من قبورهم ثم ينفخ في الصور فتذهب كل روح إلى جسدها التي كانت فيه بنفخة واحدة دليل على عظم قوة الله وما جعله في أملاكه الذين سخرهم لشأن العالم، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: « ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » أخرجه مسلم .

﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ ﴾ هذه الأرض الكبيرة المترامية الأطراف تُحمل وتبدل، ﴿ وَالْجِبَالُ ﴾ حُملت وصارت كالعهن المنفوش، وتسير كما قال الله: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾[التكوير:٣]، ثم تتبدد: ﴿ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٧]، ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ الأرض والجبال، ﴿ دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ زلزلتا ودكتا وهذا دليل على عظمه الله وقوته.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: في هذا اليوم، ﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ جاءت القيامة، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾[الواقعة:١]، وحصل ما كنتم تكذبون به يا معاشر المشركين.

﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ تشققن لنزول الله ﷻ وملائكته، كما قال: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٥]، وقال:﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾[الانفطار:١]، ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة البناء بعد تلك القوة التي كانت عليها .

قال: ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أي: ملائكة الله، ﴿ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ في حوافها تنتظر ما تؤمر به وحالهم كما قال الله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر:٣١]، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ العرش الذي استوى الله عليه وارتفع وعلى العرش العظيم الذي ما الكرسي فيه إلا كحلقة في فلاة يحمله ثمانية من الملائكة الشداد، ذكر النبي ﷺ من شأن بعضهم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ، قد مرقت رجلاه في الأرض السفلى ورأسه منعطف تحت العرش يقول: سبحانك» أخرجه أبو داود عن جابر رضي الله عنه ، ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ثمانية أملاك يحملون العرش العظيم، من الذي قواهم؟ خلقهم؟ وأعانهم؟ إنه الله الغني الحميد.

﴿ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿تُعْرَضُونَ ﴾ تعرضون مع أعمالكم، ﴿ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ قد ظهرت أجسامكم وبانت صفاتكم وظهرت أعمالكم لا صغيرة ولا كبيرة لا عظيمة ولا حقيرة، إلا والله ﷻ مطلع عليها، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩] .

ثم أخبر الله عز وجل عن تقسيم الناس في ذلك اليوم: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ أي: أهل الإسلام الذين يؤتى أحدهم كتابه الذي دونت فيه أعماله بيمينه، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي صاحب اليمين بصوت مرتفع: ﴿ هَاؤُمُ ﴾ هلموا، ﴿ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ لما فيه من الخير والرفعة والأعمال الصالحة المبشرة بالكرامة، وهذا حال الإنسان إذا بُشر بالخير يريد أن يطلع جميع الناس عليه، بينما إذا كان عنده الشر يخشى من اطلاعهم عليه.

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ أي: استيقنت فالظن تأتي بمعنى الاستيقان كقوله: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[الأنبياء:٨٧]، استيقن، ﴿ أَنِّي مُلاقٍ ﴾ أني سألقى، ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ يوم القيامة وأُجازى على

أعمالي؛ ولذلك عمل الصالحات، ومن نوقش الحساب عذب، ومن ستر الله ﷻ عليهم سلم، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَلَيْسَ الله يَقُولُ: حِسَابًا يَسِيرًا؟ قَالَ: «ذَاكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» متفق عليه .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ عيشته قد رضيها، كما في حديث أبي سعيد قال: « إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » **متفق عليه .**

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي: عيشته الراضية الهنية في جنة مرتفعة كما قال الله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾[الغاشية:٨-١٠]، مرتفعة، وفي حديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ» **أخرجاه .**

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ثمارها دانية قريبة، وأنت على سريرك أو متكئ ويأتيك ما تتمناه وتشتيه، لا يُمنعون من شيء منها، كما قال تعالى: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان: ١٤] .

﴿ كُلُوا ﴾ من ثمارها ولحومها وخيرها وبركاتها، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ من خمرها وعسلها ولبنها ومائها، ﴿ هَنِيئًا ﴾ لكم الهنا والشفا، ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بسبب ما سلف ومضى من أعمالكم ، ﴿ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ في الأيام الماضية، فهذا دليل على أن الجنة إنما تُنال بالعمل الصالح بعد رحمة الله عز وجل، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ الله قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ» .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ وهو القسيم الثاني الكافر الفاجر، يؤتى كتابه بشماله دليل على سخط الله عليه وعلى كثرة سيئاته، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ بصوت مرتفع، ﴿ يَا لَيْتَنِي ﴾ يتمنى، ﴿ لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ لم يكن لي كتاب فيه أعمالي، كما قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] .

﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ ولم أعلم بهذا الجزاء وما سيكون في شأني، أو أنه دعا على نفسه بالموت كقوله: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾[مريم:٢٣].

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ تمنى أن الموتة التي جاءته لم يكن بعدها بعث ولكن هيهات فإن الله عز وجل خلقنا لحكمة سامية وأمر عظيم.

﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ أي لم أنتفع بمال، وذلك لأنه لم يبذلها في أوجه الخير ولم يستخدمها في طاعة الله.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ الأبناء والأزواج والأتباع كلهم لا معين ولا نصير ولا مجير فما أشدها من خسارة، هذا إذا خرج من تبعاتهم ما بالك إذا كانت تبعاتهم عليه، كما قال تعالى: ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[الزخرف:٦٧-٦٨].

ثم يأتي الخطاب من الله عز وجل لملائكة العذاب، ﴿ خُذُوهُ ﴾ هذا المجرم، ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ ضموا رجليه إلى عنقه، ولو أُلقي في النار بغير هذا الحال لكان في أشد العذاب فما بالك حين تُغل رجلاه إلى عنقه.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي: أنهم يقلبونه فيها هكذا وهكذا لزيادة عذابه ونكاله.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ معروفة، ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل: تُدخل من دبره وتُخرج من فمه ويعذب بها عذابًا شديدًا، يتعذب من داخله ومن خارجه نعوذ بالله من النار.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ أي: سبب ما لحقه من الذل والهوان والعذاب كان لا يؤمن بالله ربًا ولم يوحده ولم يستقم على دينه، ﴿ الْعَظِيمِ ﴾ الكبير الواسع القوي العزيز.

﴿ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ وكان من حاله أنه لا يأمر بإطعام المساكين ولا يُنفق عليهم بل ربما منع من ذلك، فلم يرحم مخلوقًا ولم يوحد خالقًا، وأصل سعادة الإنسان في أداء حق الخالق والإحسان إلى المخلوقين .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ ليس له يوم القيامة حميم وصديق يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ *

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾[المدثر:٤٨-٤٩] .

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ ليس لهم طعام إلا ما يخرج من نتن الكفار وقيحهم .

﴿ لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أي: أنه يأكله الخاطئون المتلوثون بالشرك والمعاصي.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: أنه أقسم تعالى بمخلوقاته المبصرة.

﴿ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ أقسم بمخلوقاته التي لا تُبصر أو بما هو أعم، أقسم بما يُبصر وبما لا يُبصر حتى يدخل هو تعالى فيما يُقسم به؛ فإنه تعالى لا يرى يوم القيامة، وهذا لعظيم ما أقسم عليه.

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: القرآن، ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أُضيف إلى الرسول محمد ﷺ؛ لأنه المبلغ وإلا فهو كلام الله ووحيه وتنزيله، وقد أضيف في سورة التكوير إلى جبريل عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢٠]، ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي جميل الخصال، وعظيم الفعال، ونبيل الصفات فليس الكرم فقط على العطاء بل هو لفظ أوسع من ذلك.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ أي: أن هذا القرآن ليس بقول شاعر كما يزعم كفار قريش، ﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ لكن الواقع أنكم لا تؤمنون مع أنكم تعرفون أن القرآن ليس بقول شاعر؛ ففي الصحيح قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ وأيضًا القرآن ليس بقول كاهن عراف ساحر، فأقوال الكهنة والعرافين أقوال مكسرة، وأقوال الشعراء إلا من رحم الله أقوال غير منضبطة، ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ومع ذلك لم يقع لكم تذكر وتدبر والرجوع إلى الله عز وجل.

بل هو أي: القرآن: ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي: منزلة، ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من الله ومن للابتداء حيث تكلم به حقيقةً فسمعه منه جبريل، وبلغ جبريل محمدًا ﷺ.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ أي: محمد كما تزعمون أنه كاذب وقال أن الله أرسله متقولًا كاذبًا، ﴿ بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ فضلًا أن يأتي بهذا الكتاب العظيم.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أخذه الله بيمينه وبقوته وأهلكه كما أهلك كثيراً من أدعياء الرسالة والنبوة، وقد أهلك مسيلمة والأسود العنسي وقبلهم وبعدهم؛ لأن الكذب على الله عظيمة ولا

يمكن الله لمن يكذب عليه، ولو مكن لهم لأصبحوا يتجرؤون على الكذب على الله.

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وهو الوريد الذي يخرج من مناط القلب، فإذا قُطع مات الإنسان.

واُستدل بهذه الآية على أن الكاذب لا يُمكن ويتم أمره ولو طال .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ ﴾ أيها الكفار، ﴿ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أي: كلكم تحت القوة والقهر والقدرة لا تعجزوننا في الوصول إليكم وإهلاككم وتدميركم.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أو أن هذا الرسول تذكره للمتقين، أو أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به أهل التقوى، وأما الكفار، فحالهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١]، كلما جاءتهم آية من الله ازدادوا عتوًا ونفورًا، وإنما يتذكر أهل التقوى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾[الغاشية:٢١]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾[الأعلى:٩-١١]، ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظور.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أي: أن الله عز وجل يعلم أن من قريش ومن غيرهم من يكذب بهذا القرآن وهذا الوحي وهذا الرسول.

﴿ وَإِنَّهُ﴾ أي هذا التكذيب ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يوم القيامة .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي: ما أخبر الله به وقصه الله علينا .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ سبح الله باسمه العظيم، وما جاء أن الله عز وجل حين أنزل هذه الآية أمرهم أن يضعوها في ركعوهم، وحين أنزل: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[الأعلى:١]، أمرهم أن يجعلوها في سجودهم لا يثبت؛ لكن المعنى العام في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي: نزه عن النقائص والمثالب والعيوب.

وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج

مكية، وسيمت بهذا الاسم لما يأتي من قول الله عز وجل: ﴿ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج:٣]، وهي الدرجات، وقيل: ما يعرج به إليه.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي: أن رجلًا من الكفار استعجل العذاب، قيل: هو النظر بن الحارث، أي: متى سيأتي، ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أنه لا محاله سيكون ولا مدفع له.

﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هذا العذاب يكون للكافرين المعرضين عن دين رب العالمين، ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ لا يدفعه ولا يرفعه شيء، كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[الجن:٢٣]، ومن سوء صنيعهم أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا واستعجلوه في الآخرة: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللهمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:٣٢]، فلو قالوا: اهدنا لكان خيرًا لهم.

﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي: هذا العذاب سيكون من الله عز وجل، ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ أي: صاحب الدرجات معارج السماء، وقال قتادة: ذو الفضائل والنعم .

﴿ تَعْرُجُ ﴾ أي: تصعد؛ لأن العروج من أسفل إلى أعلى، ﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾ الذين كلفهم الله شأن المكلفين، فعن أبي هريرةرضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ " متفق عليه .

والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة، وهم خلق من خلق الله خلقهم الله من نور: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، ﴿ وَالرُّوحُ ﴾ جبريل عليه السلام، فكان هذا من عطف الخاص على العام، ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي: إلى الله وهذا دليل على أن الله في السماء على عرشه وليس في كل مكان كما يقول المبطلون، ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قيل: هذا العروج يكون على مقدار يوم مقداره خمسين ألف سنة وهي المائة ما بين الأرض السفلى وبين

العرش وقيل: بأن هذا يكون بين يوم القيامة وبين الدنيا وهذا غير صحيح، وقيل: بأن هذا طول يوم القيامة وهذا هو الصحيح: أن يوم القيامة طوله خمسين ألف سنة كما قال النبي ﷺ: «إِ مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ... قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ » **متفق عليه**، الحديث.

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أي: اصبر يا محمد على أذى الكفار صبرًا جميلًا فإن النصر آتي لا محالة.

﴿ إِنَّهُمْ﴾ أي: إن الكفار ﴿يَرَوْنَهُ﴾ يوم القيامة ﴿ بَعِيدًا ﴾ لتكذيبهم باليوم الآخر مع أن كل ما هو آتٍ قريب .

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ والنبي ﷺ حين بعثه الله قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» **متفق عليه**، ويُخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة ما هي في الأمم كمثل صلاة العصر إلى غروب الشمس، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ "، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» أخرجه البخاري .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣].

﴿ يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ هذه السماء العظيمة المترابطة الصماء كالمهل: الرصاص الذي قد ذاب من شدة الحر تتفطر وتسيل سيلانًا، كما قال تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧] .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ هذه الجبال العظيمة تكون كالريش والصوف الذي يتطاير في

الهواء، كما قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[القارعة:٥].

﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ أي: لا يسأل صديق أو قريب صديقه وقريبه، وهو يراه في أسوء الأحوال، فكلٌ مشغول بنفسه، الأب والأم والزوج والأخ والابن، لا يلوي أحد على أحد.

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: أن كل واحد يرى صاحبه في الآخرة، فيرى أباه، وأخاه، وأمه، وعدوه، وصاحبه؛ لأن الله عز وجل جعل الأرض: ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[طه:١٠٦-١٠٧]، ومع ذلك: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ يتمنى الكافر ، ﴿ لَوْ يَفْتَدِي ﴾ لو يشتري نفسه ويعتقها من سوء ما هي فيه، ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ من عذاب الله في ذلك اليوم، ﴿ بِبَنِيهِ ﴾ الذين هم أحب الناس إليه في الدنيا، قد يضحي بنفسه في الدنيا من أجلهم ويظلم ويجور ويفجر ويقتل ويُسجن إلى غير ذلك .

﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته يتمنى أن يفتدي بزوجته، ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ من صليبته ابن أبيه وأمه.

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ بعشيرته، ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ تناصره وتعاضده.

بل: ﴿ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ يفتدي هذا الكافر بمن في الأرض جميعًا على أن يسلم، ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ أي: ينجو من هذا العذاب.

والحال كما قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٧] وفي حديث عن أنس رضي الله عنه: «لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ» **أخرجه مسلم.**

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، وهو صرف ردع وزجر، وكلا إنما أتت في النصف الأخير من القرآن، ﴿ إِنَّهَا لَظَى ﴾ أي: إن هذه النار لظى لشدة حرارتها وغليانها تلتهب على أهلها.

﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ تنزع الجلد الذي على الرأس والوجه، لشدة حرارتها وعظيم شأنها.

﴿ تَدْعُوا ﴾ تتبع وقيل: تدعوهم بلسان ناطق أفصح ما يكون، ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ من أعرض عن دين الله، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ عن العمل بسنة رسول الله ﷺ .

وكان من شأنه: ﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال، ﴿ فَأَوْعَى ﴾ حَصَلْ منه الشيء الكثير؛ لكنه لم ينفقه في سبيل

الله ولم يستخدمه في مرضات الله فكان عليه وبالا كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ فَاتِحًا فَاهُ، وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا مَالُكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ، أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، قَالَ: فَوَالله لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّى يُطَوَّقُهُ فَيَتَقِيهِ بِيَدِهِ، فَيَلْقَمُهَا، فلا يَزَالُ يَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ، ثُمَّ يُتْبِعُهُ بِسَائِرِ جَسَدِهِ» **متفق عليه**، وعادة الإنسان أنه جماع مناع إلا ما رحم ربي.

ثم يقول تعالى مخبراً عن جنس الإنسان وما جبل عليه من الأخلاق: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾بخيلًا شديد الحرص على المال، ثم فسره بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ إذا نزل به الشر والفقر والحاجة المرض ﴿جَزُوعًا ﴾ أي أصيب بالجزع وتجد أنه يتسخط ويتشكى، وينخلع قلبه من الخوف ونحو ذلك .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ كما قال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ١٥ - ٢٠] المال والجاه والمنصب وغير ذلك ﴿مَنُوعًا﴾ يمنع استخدام الخير في أوجه الخير، فهذا عادة جميع الناس إلا من استثناهم الدليل الذي سيأتي.

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أي: الذين يحافظون على الصلاة ويبادرون إليها، وهذا دليل على أن الصلاة مفتاح كل خير، وأن أصحابها هم أحسن الناس وأزكاهم .

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ من شأنهم: أنهم على صلاتهم دائمون، والمراد بها الصلوات المفروضات يلازمونها ويصلونها في أوقاتها كما سيأتي في آخر الآيات، لا يصلي يوم ويترك أو يصلي الجمعة وترك غيرها .

﴿ وَالَّذِينَ﴾ أي: وممن يسلم من هذا الوصف: ﴿الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ من زكاة، وصدقة، وهبة، ووقف، وعمرى ونحو ذلك مما أباحه الله، والمال المعلوم في هذه إن كان من الصامت ربع العشر إذا حال عليه الحول، وإن كان من الزراعة ففيها العشر إذا كان سُقياها بالمطر، ونصف العشر إذا كان سُقياها بالسانية، في تفصيل لأهل العلم مذكورة في كتب الفقه .

﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ أي: الطالب الذي يأتي من مكان إلى مكان يسأل الناس أن يعطوه، ﴿ وَالْمَحْرُومِ

﴿ الممنوع من الرزق الذي لحقه الضرر.

قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ وأيضًا من أوصافهم العظيمة أنهم: ﴿ يُصَدِّقُونَ ﴾ يؤمنون، ﴿ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة، وهذا مما يجب الإيمان به وهو أحد أركان الإيمان الستة.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أيضًا من صفاتهم: أنهم يخافون عذاب الله ويخشونه ويرهبون منه، وهؤلاء الذين يُرجى لهم الخير، أما الآمن من مكر الله يُخشى عليه، واليائس من رحمة الله يُخشى عليه.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ وهذا توكيد من عذاب الله واق بالكافرين فلا يجوز أن تأمن مكر الله حتى يدخل المرء الجنة .

أما قبل ذلك فلا يدري أحد ما في كتاب الله المحفوظ وما في علم الله، فعن ابن مسعودﷺ: «يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا» **متفق عليه**، فكيف تأمن عذاب الله، بل عليك أن تدعُ الله ﷻ: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَجْمَعُ عِبَادَكَ».

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ومن أوصافهم: أنهم يحفظون فروجهم عن الزنا، واللواط، والعادة السرية، وغير ذلك من الأمور المنكرة التي يتعاطاها الناس إلا من رحم الله لا سيما في هذه الأيام بسبب النظر إلى التلافز والدشوش، والمقاطع الخليعة والله المستعان، فينبغي للمرء أن يحفظ فرجه فعن عليﷺ قال النبي ﷺ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، وعن عبادة بن الصامتﷺ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ " أخرجه أحمد .

ومن حفظ الفروج: عدم إظهار الفروج فقد صح عن رسول اللهﷺ: " يَا جَرْهَدُ، غَطِّ فَخِذَكَ فَإِنَّ يَا جَرْهَدُ، الْفَخِذَ عَوْرَةٌ ".

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي أن فروجهم محفوظة إلا على أزواجهم؛ لأن الله أباح لهم أن يستمتعوا بهن في مكان الحرث، قال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ

﴾[البقرة:٢٢٣]، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي: الإماء الجواري، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي: لا لوم يتبعهم في الاستمتاع بما أباحه الله لهم بالنظر واللمس والمعاشرة وغير ذلك.

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى ﴾ في فرجه، ﴿ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ من الأعمال المحرمة، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المعتدون لحدود الله، وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[الطلاق:١].

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ من أوصافهم أنهم يؤدون الأمانات ويوفون بالعهود ويرعونها، فلا ينقضونها بخلف ولا بغير ذلك، قال الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[الرعد:٢٠]، وقال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[المائدة:١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " متفق عليه .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ ومن أوصافهم أنهم إذا عندهم شهادة بادروا إلى أدائها ولم يكتموها قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾[البقرة:٢٨٣]، فلا يجوز كتم الشهادة كما أنه لا يجوز المبادرة بالشهادة إلا إذا خشي ضياع الحق، فعن زيد بن خالدرضي الله عنه قال النبي ﷺ: «خَيْرُ الشُّهَدَاءِ مَنْ أَدَّى شَهَادَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ في وصف المتسرعين للشهادة مع توافر الشهود وظهور الحق: «وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»، ويجب أن تقوم بالشهادة على الوجه الذي رأيت وسمعت وعلمت لا يجوز أن تشهد بالزور فإن النبي ﷺ أخبر أنه من الكبائر فعن أبي بكرة رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثَلَاثًا «الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ -» وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ» متفق عليه .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ومن أوصافهم أنهم يحافظون على صلواتهم ولعظيم شأن الصلاة ذكرها مرتين، الأولى: أنهم يداومون عليها، والثانية: أنهم يحافظون عليها، ومعنى ذلك: يحافظون على وضوئها، وركوعها، وسجودها، ووقتها كما قال النبي ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله عَلَى عِبَادِهِ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ

وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» **أخرجه أبو داود .**

﴿ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ أي: أن من تقدمت أوصافهم في جنات وزرع مكرمون بأنواع الملاذ من الملابس، والمآكل، والمشارب، وما يستمتع به من النساء، وفي سورة المؤمنون يقول: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠-١١].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾ مال هؤلاء الكفار ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ كما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ } [المدثر: ٤٩ - ٥١] .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ أي: يقعدون، ﴿ عِزِينَ ﴾ حال كونهم متفرقين لا يستفيدون من نصح ولا ينزجرون عن باطل.

﴿ أَيَطْمَعُ ﴾ أيظن ويتمنى، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ كل واحد منهم ﴿أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ يتنعم فيها ولا يمكن أن يدخل الجنة إلا بعمل يقدمه: وهو الإيمان بالله وما يكون منه.

ثم قال مقرراً حصول المعاد: ﴿ كَلَّا ﴾ حقا، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ من ماء دافق يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[الطارق:٧]، وأصلهم أنه خلق آدم من تراب.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾ أقسم بمخلوقات عظيمة، وله أن يقسم بما شاء، أما أنت فلا يجوز لك أن تُقسم إلا بالله سبحانه وتعالى أو بصفة من صفاته، قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ»، ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ ﴾ المشارق المراد بها: مطالع الشمس ومطالع القمر، والمغارب: المراد بها مغارب الشمس والقمر؛ لأن لكل يوم مطلع وغروب، فعدد المطالع ثلاثمائة وستين مطلعًا، وما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[الشعراء:٢٨]، فالمراد مشرق الشمس و مغربها، وأما قوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن:١٧]، فالمراد به الصيف والشتاء، ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ أي: على جمعهم وإعادتهم.

بل: ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ على الإيمان والاستقامة، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمعجزين فلا يعجز الله شيئاً؛ لكمال قدرته وعلمه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[فاطر:٤٤]، قال تعالى: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الواقعة: ٦٠، ٦١].

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اتركهم يا محمد، ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم، ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في نواديهم، ﴿ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة فيجازون على أعمالهم، هم الآن لا يقبلون المواعظ ولا يقبلون الذكرى والحال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، سيكون شأنهم ما قاله الله ﷻ: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٧].

﴿ يَوْمَ﴾ أي: أنهم يلاقون يومهم الذي يوعدونه في: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ يخرجون من القبور مسرعين، ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ ﴾ إلى صنم، ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يُسرعون كحال الكفار في الدنيا في إسراعهم إلى الشرك، وذكر الله ﷻ حالهم حين يذهبون إلى عبادة الأصنام كل منهم يريد يسبق ويصل إلى الصنم قبل صاحبه من أجل أن يتبرك به ويتمسح به، فهم سيخرجون من الأجداث سراعًا كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[يس:٥١]، أي: يسرعون في مشيهم.

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ مرفوعة من شدة الخوف والهلع كمن ينتظر أن يأتيه العدو من مكان فيبقى ينظر بعينه لا يجاوزها، ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تعلوهم قترة وسواد وخوف، ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ الذي كنت يخبرهم به الأنبياء والمرسلون ولكنهم أبوا إلا الكفر والعناد، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

مكية.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يخبر الله عز وجل أنه أرسل نوحًا إلى قومه، وقوله: ﴿ إِنَّا ﴾ على التعظيم وإلا فالمُرسل، ونوح هو أول رسول إلى أهل الأرض كما في حديث أبي هريرة في قصة الشفاعة، ﴿ إِلَى قَوْمِهِ ﴾ الذين هو منهم، وأما قول الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥]، أي: أنهم بتكذيبهم لنوح كذبوا جميع المرسلين، ولهذا من كفر برسول ونبي واحد كان كافرًا بجميعهم، ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي: أمره الله عز وجل بإنذار قومه وهو دعوتهم إلى التوحيد وتحذيرهم من الشرك والتنديد، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عذاب موجع بسبب كفرهم وبغيهم، وفعلًا جاءهم عذاب في الدنيا وهو الغرق، وعذاب الآخرة أشد وأنكى.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أي: أنه التزم أمر الله وخرج يدعوهم إلى الله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أُنذركم وأبين لكم ما أدعوكم إليه، وكان لهم من الناصحين إذ قد قال: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٦٢]، وهكذا كل رسول بعثه الله كان مبينًا لما أُرسل به.

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحدوه، ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ إذ أن طاعة الرسول طاعة لله، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[النساء:٨٠]، ويقول الله عز وجل في شأنه: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[الشعراء:١٠٨].

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم، قيل: ﴿ مِنْ ﴾ صلة وتوكيد وقيل: للتبعيض وقيل: بمعنى عن: يغفر لكم عن ذنوبكم، ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي: يطيل في أعماركم على طاعته، إلى أجل معلوم مكتوب، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ

أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا " أخرجه مسلم .

ويستدل بهذه الآية مع حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، على أن الأعمال الصالحة من أسباب طول العمر، والصحيح أن العمر في علم الله ﷻ واحد، ولكن يبارك اصاحب العمل الصالح في عمره وعمله، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ﴾ أي: الموت الذي قدره على العباد، وكما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨]، ﴿لا يُؤَخَّرُ﴾ عنكم مهما فعلتم، ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك وتدركونه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، هذه شكاة من نوح عليه السلام إلى ربه؛ بسبب إعراض قومه قال: يا رب: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى عبادتك وتوحيدك، ﴿لَيْلًا﴾ أي: في ليلهم، ﴿وَنَهَارًا﴾ أي: في نهارهم.

ومع ذلك: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ لم يزدادوا بكثرة دعوتي لهم إلا فرارًا وبعدًا وإعراضًا وهذا غاية الإعراض أن الإنسان يستمر معه الناصح وكلما سمع النصيحة ردها والله المستعان، وفي هذا إرشاد إلى الدعاة إلى الله عز وجل بالصبر والتأني وعدم العجلة والتأسي بهؤلاء.

بل بلغ بهم الإعراض: ﴿إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى عبادة الله عز وجل ودعوتهم: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم إذا استجابوا للدعوة: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ حتى لا يسمعوا ما يلقى عليهم، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ غطوا أنفسهم حتى لا يُعرفوا، ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على ما هم فيه من الباطل، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ وكان السبب في إعراضهم هو الكبر، وهكذا أغلب الكفار على هذا الحال، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:٣٥]، وهذا الصنيع منهم كصنيع كفار قريش إذ أنهم تمالأوا على عدم سماع القرآن وعلى اللغو فيه حتى لا تقع لهم الاستجابة، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦] والمصر على باطله قد دعا عليه النبي ﷺ بقوله: «وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، بينما المؤمن تجد منه التوبة والرجوع وعدم الإصرار، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى

مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٥].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ جهر لهم بالدعوة في نواديهم وطرقهم وجميع حالاتهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ الدعوة، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ دعوتهم سرًا وجهرًا ومع ذلك أبوا إلا الكفر والعناد، وكان من دعوته أنه دعاهم إلى الاستغفار .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي: أنه أمرهم بالاستغفار وهو طلب المغفرة، وأمرهم بالتوبة من الشرك فما دونه، والاستغفار شأنه عظيم بعثت به الرسل كما قال الله عز وجل: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[هود:١-٣]، فالاستغفار سبب لسعة الأرزاق وصلاح الأحوال، وهود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[هود:٥٢]، ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ صيغة مبالغة من مغفرة الذنوب وسترها، فإن الغفر هو الستر: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾[آل عمران:١٣٥].

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ ﴾ ينزل المطر منها السحاب، ﴿ مِدْرَارًا ﴾ دفاقًا فيسقي به الأرض فتعود خضرة نضرة بعد أن كانت مواتًا.

وإن حصلت منكم التوبة والإنابة: ﴿ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾ كثيرات مباركات، ﴿ وَبَنِينَ ﴾ أبناء وبنات فيهم الصلاح والخير، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ مزارع وافرات فيها من كل ما لذ وطاب، ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ تتدفق بين مزارعكم وبيوتكم فتشربون وتغتسلون وتروون أنعامكم منها؛ ولكنهم أبوا إلا الكفر والعناد.

ثم قال منكراً عليهم شدة إعراضهم:﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ﴾ يا معاشر الكفار لا تعظمون الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧]، فلوا قدروا الله حق قدره ما عصوا ولا كفروا به ولا تمردوا على شرعه، ولكنهم لا يعظمون الله عز وجل فأنكر عليهم هذا الصنيع .

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ خلقكم طور بعد طور، يكون نطفة أمشاج، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم تكسى العظام لحم، ثم يخرج طفلًا وهكذا يتدرج في الحياة إلى أن يكون شيخًا كبيرًا ويموت، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٢ - ١٦]، وقال: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج: ٥] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ ألا تنظرون إلى هذا العالم من حولكم، ﴿ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ ﴾ عز وجل، ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ عظيمات مرتفعات، ﴿ طِبَاقًا ﴾ كل واحدة فوق الأخرى.

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ جعل القمر في السماء منيرًا لا حرارة فيه، ويبدأ بالهلال وينتهي بالمحاق: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[يونس:٥]، ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ منيرة محرقة، ولله الحكمة لو كانت الشمس نورًا بدون حرارة لربما فسدت كثير من حياة الناس بسبب الرطوبة؛ ولكن تأتي هذه الشمس الحارة فتبدد الرطوبة وتنضج الثمار وتحصل بها كثير من المصالح.

﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أي: أن الله خلق أباكم آدم من الأرض كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ والخبيث والطيب» **أخرجه أبو داود (٤٦٩٣)** .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بعد الموت، كما قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}

[المرسلات: ٢٥، ٢٦] ، ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي يوم القيامة تخرجون من قبوركم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[المعارج:٤٣-٤٤].

ثم بين لهم امتنان الله عليهم: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ هذه الأرض العظيمة الواسعة جعلها لكم بساطًا تستفيدون منها.

﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿ فِجَاجًا ﴾ واسعة، وجعلها جبالاً وهاد ولكل فائدة عظيمة، فلو كانت كلها مسطحة مستوية لربما إذا جاءت السيول لأغرقتها وفسدت المزارع والبيوت والحال، ولو جعلها كلها جبال لشق ذلك على الناس، ولكن بعضها وهاد وبعضها جبال.

ثم قال شاكيًا مرة أخرى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي: إن قومي عصوني وتمردوا على دعوتي لهم، وقد كان عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عام يدعوهم إلى الله ومع ذلك أبوا إلا الإعراض، ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ أي: تابعوا، ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ تابع بعضهم بعضًا على ما رُزقوا من الأموال والأولاد ولكنهم لم يشكروا نعمة الله عز وجل فلم يدخلوا في دينه، وما ازدادوا بأموالهم وأولادهم إلا خسارة كما قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن:١٤]، هذا إذا كانا مسلمين، فكيف إذا كانا كافرين .

﴿ وَمَكَرُوا﴾ أي قوم نوح بنوح ومن آمن معه ﴿مكرا كبارا﴾ أي عظيمًا ومع ذلك مكر الله بهم، كما قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠]، ومن مكرهم: أنهم تمالأوا على عدم الإيمان به، وأنهم كانوا يمرون به وهو يصنع السفينة فيضحكون عليه ويسخرون منه، كما قال تعالى: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [هود: ٣٨، ٣٩] .

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي: من مكرهم أنهم قالوا: لا تتركوا آلهتكم، ﴿ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ هذه أصنام كانوا يتعبدون لها قيل: بأنها صور لقوم صالحين

كانوا يجلسون عندها لتذكرهم العمل ثم طال عليهم العهد فعبدوها من دون الله عز وجل، فعن ابن عباسﷺ في البخاري: فِي قَوْلِهِ: {اللَّاتَ وَالعُزَّى} [النجم: ١٩] «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ» ، فانظر كيف يتمالأون عبادة الأصنام ويشجع بعضهم بعضًا، بل إنهم كما قال الله عز وجل يقولون: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٤٢] .

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي: بهذه الدعوة وهذا المكر أضلوا كثيرًا إلى عبادة الأصنام وعبادة الأوثان بينما كان قبل ذلك ما بين نوح وآدم عشرة قرون كلها على التوحيد حتى دخل بعد ذلك الشرك والتنديد، ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا ﴾ أي: أن الظالمين لا يزدادون بظلمهم إلا ظلالًا وإعراضًا عن دين ربهم؛ لأن الله عز وجل يهدي من علمه أهلًا للهداية، ويضل من علمه أهلًا للضلال.

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ بسبب خطيئتهم، وذنوبهم ومعاصيهم، ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أي: في الدنيا بسبب دعوة نوح إذا أنه دعا الله عز وجل أن يغرقهم وما سلم إلا أصحاب السفينة، ﴿ فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ نارًا تلظى، وهذا دليل على عذاب القبر أُدخلوا نارًا بعد موتهم، وكذلك يعذبون في النار في أُخراهم، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[هود:٤٣]، وقال: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران:١٦٠].

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ ﴾ داعيا ربه تعالى بتلك الدعوة التي أعطاه الله فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» متفق عليه، وهذا دليل على فضله وعلو منزلته وعظيم شفقته بأمته، ورحمة الله لهذه الأمة إذ أنه قبض نبيها قبلها، وأما الأمم السابقة فكان يعذبها ونبيها حي حتى يقر عينه بهلاكهم، وفي هذا جواز الدعاء على الكافرين بالهلاك والعذاب ونحو ذلك،﴿ لا تَذَرْ﴾ لا تترك ﴿عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي: صاحب دار بل أهلكهم ودمدم عليهم.

والسبب: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ إنك يا رب إن تتركهم على ما هم عليه يضلوا عبادك إلى الشرك والكفر، ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ يعني: قد راقب أحوالهم وجد أن الأول يلد الثاني والثاني أفجر من الأول كلهم على فجور وكلهم على إعراض، بينما النبي ﷺ قال في شأن أهل مكة: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، وفعلًا أخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا، فانظر من أبي جهل عكرمة، ومن الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد وغيرهم .

بعد أن أغرق الله عز وجل قوم نوح وأكرمه باستجابة دعوته وسلامة أتباعه في السفينة شكر الله على ذلك وقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي: ذنبي وتجاوز عني، ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ فيه فضيلة الدعاء للوالدين، ودليل على أن والدي نوح كانا على الإسلام أما إبراهيم كان أبوه على الكفر ولذلك لما دعا لأبيه نهاه الله عز وجل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]. ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة:١١٣-١١٤]، ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ فيه الدعاء للمؤمنين وللمؤمنات، فالمسلم يُشرك في دعوته أهل الإسلام، ولهذا كان في التشهد: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ فإنه إن قال ذلك أصابت كل عبد صالح في السموات والأرض»، **متفق عليه عن ابن مسعود**رضي الله عنه، ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ لا تزد الظالمين إلا هلاكًا وبعدًا ودمارًا، وفعلًا استجاب الله عز وجل دعوته وإلى الآن يمكر الماكرون ويتربص المتربصون، والعاقبة للتقوى كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[طه:١٣٢]، وكما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١].

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن.

مكية.

وكان من شأن ذلك؛ أن الجن كانوا يسترقون خبر السماء، فلما كان مبعث النبي ﷺ حيل بينهم وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فتراجعوا بينهم فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا أمر فضربوا مشارق الأرض ومغاربها يبحثون عن السبب الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فمروا والنبي ﷺ يصلي الفجر بنخلة بين مكة والطائف فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١]، وأنزل الله عز وجل في شأنهم هذه السورة التي بين فيها أمراً عظيماً .

وقد جاءهم النبي ﷺ في ليلة أخرى واعدهم ليلةً يعلمهم دين الله فعلمهم ما شاء الله أن يُعلم وجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابهم.

قوله: ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي: أنزل الله وحيًا يتلى وأخبره بذلك، ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ مجموعة من الجن سمعوا لقراءة النبي ﷺ، ﴿ فَقَالُوا ﴾ لقومهم، ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ سمعنا مقروءً عجيبًا في نظمه وخبره وسياقته وحججه فهو كلام الله الذي: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[فصلت:٤٢]، وإنما حين قلت علوم الناس وقل تدبرهم وتفكرهم صار أحدهم يقرأ القرآن يهذه هذًا لا يدري ما فيه وإلا فلو تؤملت معاني القرآن لوجدت الشيء التي تحار فيه عقول وقلوب أُلي الألباب.

ومن عجبه: ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ يرشد إلى سبيل الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة، فكلمة الرشد كلمة عامة، تدل على كل فلاح، قال الله ﷻ عن إبراهيم: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } [الأنبياء: ٥١]، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ﴾ صدقناه واتبعناه، ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾

وسنكون في بعد عن الشرك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، وهذا من حسن خطاب هؤلاء النفر من الجن؛ أنهم آمنوا بالله وجاءوا بالمأمور وتركوا المحظور وهذا تمام التقوى.

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي: وأخبروا أن الله تعالى تقدس وتعاظم عن صفات المخلوقين، ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ عظمة ربنا فالجد بالفتح: العظمة كما قال رسول الله ﷺ: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ، مِنْكَ الْجَدّ»، أي: لا ينفع صاحب العظمة عظمته أمام عظمة الله عز وجل، ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ﴾ كما يقول الجن وغيرهم، ومن زعم أنه بالكسر فقد أخطأ، فإن معناه الغنى، وهو من أفراد العظمة، ﴿وَلا وَلَدًا ﴾ كما يقول النصارى وغيرهم، فلا يكون عظيمًا غنيًا كاملًا في جميع صفاته ويتخذ زوجة أو يتخذ طفل، هذا إنما يحتاجه المخلوق الضعيف الذي يموت، ويعجز، ويضعف، ويحتاج وأما الله عز وجل فهو العظيم المنزه عن هذا كله.

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا ﴾ أي: أن هذا القول كان يقوله السفهاء، والسفهاء شؤم وبلاء لا يرعوون عن باطل ولا يسكتون عن سفه، كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾[البقرة:١٤٢]، فلا أسوأ من سفه الكافرين، والمنافقين، وثم سفه المبتدعين الضالين، ثم سفه العصاة المخالفين لدين رب العالمين، فإن لم يكن الإنسان مستقيمًا على دين الله ففيه من السفه بقدر إعراضه، ﴿ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي: سفهاء الجن، ﴿ عَلَى اللهِ شَطَطًا ﴾ قولًا باطلًا ودعوى سيئة من أن له صاحبة وولداً .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أي: لتعظيمهم لله، ﴿ أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ ﴾ أي: المتمردين على الله، ﴿ وَالْجِنُّ ﴾ أي: جنسهم، ﴿ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ ولكنهم قد قالوا عليه الكذب زعموا أنه اتخذ صاحبه، له ولد، وزعموا أن له شريكاً في ملكه وعبادته إلى غير ذلك.

وكان يسافر المسافر من الإنس فإذا مر بوادي من الوديان يقول: يا صاحب هذا الوادي أو يا سيد هذا الوادي أنا في جوارك فعند ذلك يرسل عليه هذا السيد سفهاء الجن فيزدادون به لعبة ويزداد شركًا وتعلقًا بهؤلاء، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ ﴾ أي: من المسافرين ونحوهم، ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أي: يلوذون بهم في دفع الضرر عليهم، ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي طغيانا وغياً لأنهم كانوا يقولون سدنا الجن والإنس .

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ أي: هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من الجن ومن الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ يا معشر

قريش ﴿ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا ﴾ وبسبب عدم الإيمان باليوم الآخر فوقع منهم ما وقع؛ لأن الإنسان إذا ضعف أيمانه باليوم الآخر ولم يجعل نصب عينيه ما يأتيه من الأهوال والحساب والعقاب والنعيم والجزاء لربما تمادى في شره وبعده.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي: صعدنا إلى السماء لاستراق السمع كما كنا نصنع، والمراد باللمس القرب، ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ من الملائكة يحرسونها من سراق الجن، ﴿ وَشُهُبًا ﴾ من النجوم يُرمون، ففي الصحيحين: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ » **متفق عليه** .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ نجلس ﴿ مِنْهَا ﴾ السماء ﴿ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ مجالس لاستراق السمع ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ شهابًا يرصده ويتبعه ويقضي عليه.

﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي ﴾ أي لا نعلم السبب الذي حال بيننا وبين خبر السماء، ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ لم يقولوا: أراد بهم ربهم شرًا وإنما قالوا: ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ على البناء للمجهول وهذ من حسن خطابهم، ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وهذا هو الواقع، فإن الله أنزل محمدًا ﷺ بالرشد وقد جاء في خطبة الصحابي: «من يطع الله ورسوله فقد رشد» أخرجه مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

قال: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ يخبر الجن عن أصنافهم، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ المستقيمون على دين الله، ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ المفرطون في طاعة الله، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أي: أنهم فرق متنوعة كما هو حال الناس من بني آدم تجد أنهم في كل بلد ينقسمون إلى فرق وأحزاب وطوائف وغير ذلك.

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي لن نفوته إذا أراد بنا أمراً فهو صاحب القدرة

النافذة، ﴿ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ لو هربنا والواقع أنهم عاجزون عن الفرار من الله ولا فرار من الله إلا إليه كما قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[الذاريات:٥٠].

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ﴾ أي: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ اتبعناه وأيقنا به، ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ ﴾ يوحد ربه عز وجل، ﴿ فَلا يَخَافُ بَخْسًا ﴾ نقصًا، ﴿ وَلا رَهَقًا ﴾ ولا زيادة، بل يجد من الله عز وجل الجزاء الأوفى كما أخبر الله عز وجل: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾[النجم:٣٧]، فأعطاه الله الجزاء الأوفى، كما قال: {ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى} [النجم: ٤١].

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ ﴾ أي: منا من دخل في دين الله واستقام عليه، ﴿ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي: المتمردون على شرع الله، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله عز وجل بجوارحه وقلبه وقوله، ﴿ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ فأولئك سلكوا سبيل الرشد وأخذوا به.

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي: المائلون عن الحق الذين كفروا بالله ورسله، ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي: يوم القيامة يكونون حطب جهنم، وجعله الله بصيغة الماضي مع أنه من الآتي لتحقق وقوعه كما قال الله عز وجل: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦].

ثم قال: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا ﴾ أي: الناس، ﴿ عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ الحقة التي أنزلها الله، ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ وسعنا لهم فيما يرزقون من المياه والنبات وغير ذلك فتشرب الأنعام وتكثر الثمار ويبارك فيها؛ ولكنهم أعرضوا فجازاهم الله بالقحط والسنين.

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنخبرهم كيف شكرهم، فمن التزم شرع الله في الشدة والرخاء فهو المؤمن المثاب، ومن التزم شرع الله في الشدة دون الرخاء أو في الرخاء دون الشدة فهذا والعياذ بالله ضعيف إيمان، ومن لم يلتزم شرع الله لا في الشدة ولا في الرخاء فهؤلاء كفرة معرضون إذا كان إعراضهم كليًا، ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة ربة فإن ذكر الله تأتي بمعنى طاعة الله، ﴿ يَسْلُكْهُ﴾ ندخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا ﴾ شاقاً وهذا إنما يكون في حق الكافر، وأما المؤمن فقد يعفو الله عز وجل عنه ويتجاوز إن شاء.

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله﴾ أي المواضع التي بنيت للصلاة لله ﷻ، فقد جعل الله لهذه الأمة الأرض مسجداً وطهوراً، كما في حديث جابر رضي الله عنه وغيره، وقال سعيد بن جبير رحمه الله المراد بالمساجد الأعضاء التي يقع عليها السجود، والأول أصح، ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾ أي لا تشركوا مع

الله غيره في الدعاء وغيره، والمعنى: أن العبادة لله، فلا يجوز أن يبنى عليها قبر ولا قبة ولا أن يدعى من دون الله: لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا مهما على شأنه وعظمت منزلته فقد قال النبي ﷺ لما قالت تلك المرأة: وفينا رسول الله يعلم ما في الغد قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» **أخرجه البخاري .**

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ أي: لما قام محمد ﷺ يعبد الله ويقرأ القرآن، ﴿ كَادُوا﴾ يعني الجن ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ أي: اجتمعوا عليه حتى كادوا أن يطأوه، وهذا من حرصهم على سماع الحق، وفي هذا دليل على أن طالب العلم ينبغي أن يكون قريبًا من شيخه لا متنافرًا هاهنا وهاهنا فإن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ» **أخرجه أبي داود،** فلا يكون الجن أحسن حالًا من كثير من الإنس يقربون لسماع الهدى والخير.

﴿ قُلْ ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الجن الذين جاءوا يسترشدون ويسمعون، ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أدعو إلى إفراد الله ﷻ بالتوحيد والعبادة، ﴿ وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ إِنِّي لا أَمْلِكُ﴾ يا معاشر الجن والإنس ﴿لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ أي لا أقدر على دفع ضر عنكم ولا جلب رشد لكم، إنما هو رسول الله لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن غيره، كما قال الله عز وجل مخبرًا عنه: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾[الأعراف:١٨٨]، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]، فلم يستطع أن يهدي عمه وقال لابنته: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» **متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.**

﴿ قُلْ ﴾ قل لهؤلاء الجن ولغيرهم ممن يسمع دعوتك، ﴿ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ يمنعني ﴿مِنَ اللهِ ﴾ إن تمردت على شرعه ودينه: ﴿ أَحَدٌ ﴾ مهما كان، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي: من دون الله، ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ مهربًا وملجأ، فالأمر إلى الله عز وجل أولًا وآخر، وإنما جعل الله ما يجر رسوله ﷺ ما أكرم به من النبوة والرسالة: ﴿ إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ يقول: ليس لي من الأمر شيء إلا أن الله اختصني ببلاغ رسالته كما قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[المائدة:٦٧]، «أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ» **أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد،** ﴿ وَمَنْ

يَعْصِ الله ﴾ أي: بالشرك، ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ محمد ﷺ، ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا في حق المشرك شرك أكبر مخرج من الملة وكذلك على الوعيد في كثير من الذنوب وإلا فإن المؤمن مآله إلى الجنة كما قال النبي ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » **أخرجه الترمذي عن أنس**رضي الله عنه، وكما قال: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ، الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» **أخرجه أحمد عن أبي موسى**رضي الله عنه، وفي الآية دليل على أن النار أبدية لا كما يقول المعتزلة بفنائها.

﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي: يوم القيامة حين يرى الناس ما وعدهم الله، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند نزول العذاب ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا ﴾ من لا ناصر له، ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أهم أم المؤمنون حيث يفر منه أبوه وأمه وزوجه وأخوه وابنه، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ قبل العذاب، وقبل القيامة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾؛ لأن الله لم يطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا فالأمر أمره والحكمة حكمته: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣].

ثم قال واصفًا لربه الذي أرسله إذ أنه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ﴾ يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ لا سيما مفاتح الغيب ويعلم ما يكون في الغد إلا الله، ولا يعلم متى الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في بطون الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى تموت نفس إلا الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[لقمان:٣٤]، وفي هذا رد على السحرة والمشعوذين والكهان العرافين الذين يدعون علم الغيب المطلق فإنهم كفروا بذلك ويكفر من يصدقهم، فعن أبي هريرة وجابررضي الله عنهما: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ-»، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ فالغيب عنده علانية، ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ لا يطلع أحدًا من البشرية.

﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ إكرامًا له وتنويهًا لشأنه، حيث يعلمه ببعض ما يكون من شأن الغيب، فقد أخبر النبي ﷺ بكثير من شأن الغيب ويظهر ذلك فيما يُسمى بدلائل النبوة ومع ذلك

لم يكن يعلم رسول الله ﷺ من الغيب إلا ما أعلمه الله، ولهذا لما قالت الجارية: وفينا رسول الله يعلم في الغد أنكر عليها النبي ﷺ وقال: «مَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا الله»﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أي يجعل له حراساً من الملائكة يحفظونه من الجن أن يسترقوا السمع .

﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ علم وقوع وإلا فإن الله بكل شيء عليم، وقيل ليعم الملائكة ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا ﴾ أي: الرسل، ﴿ رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ التي أوحاها إليهم، ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أحاط بعلمهم وبما عملوه من البلاغ وغيره، ﴿ وَأَحْصَى ﴾ حفظ، أحصاه وعده عدًا، فالإحصاء تأتي بمعنى الحفظ وتأتي بمعنى العد ﴿ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾، معناها: أن الله عز وجل أحصى أعمال البشرية وعدها وسطرت عليهم يجدونها في كتاب: ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩]، وكما قال الله ﷻ : {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]

والحمد لله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل.

مكية.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ هذا نداء من الله عز وجل لمحمد ﷺ، وقيل في ذلك: أنه لما رجع من غار حراء بعد أن رأى الملك جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح رجع يقول: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، «دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي»، وجاء في هذا حديث ضعيف أن كفار قريش تمالأوا عليه فتزمل بثيابه، وذهب جمع من المفسرين إلى أن المزمل هو المتغطي بالليل، فهذه دعوة إلى القيام لقوله: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا في مبدأ الإسلام كان قيام الليل فريضة فصلى النبي ﷺ وأصحابه سنةً حتى تفطرت أقدامهم ثم نسخها الله عز وجل بما يأتي في آخر السورة: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[المزمل:٢٠]، وبفريضة الصلاة، فعن عائشة رضي الله عنها: «أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ» أخرجه مسلم (٧٤٦) .

﴿ نِصْفَهُ ﴾ أي: نصف الليل، ﴿ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ لأنها لم تكن لديهم ساعات وإنما كانوا يقدرون تقديرًا.

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ على نصف الليل، ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: اقرأ القرآن مرتلًا، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: أنه سئل كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَرَأَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا» .

وأيضًا من الترتيل أنه ربما قرأ الآية أو السورة وكانت أطول من التي هي أطول منها كما في حديث عائشة.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: العمل به وكان الوحي ثقيل في نزوله حين يأتي النبي ﷺ فيشتد عليه، ذكر زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن الوحي نزل على النبي ﷺ ورجل النبي ﷺ على

رجله فكادت أن ترض فخذه، وكان النبي ﷺ إذا كان على راحلته فجاءه الوحي اشتد ذلك عليها وعن الحارث بن هشام رضي الله عنه قال ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ» **أخرجه البخاري**، وقيل: بأنه ثقيل في أجره كما هو في أحكامه مع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧].

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قيام الليل بالحبشية ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ يقول: إن الليل فيه الفراغ والهدوء والسكينة فقراءتك فيه أحرى على التدبر والاستفادة، لأنه أجمع للنفس والفكر، فالليل كله ناشئة والقراءة فيه مؤثرة على القلوب والأنفس، ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي: في قراءتها؛ لأن الإنسان قد تفرغ للطاعة.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قيل: فراغًا وشغلًا، ومعنى ذلك: أن قيام الليل كان واجبًا عليه وفي النهار يذهب لحوائجه وشأنه، ثم نسخت هذه بما تقدم، وقيل تطوعاً كثيراً .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ اذكر الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ﴿ وَتَبَتَّلْ ﴾ أي: انقطع للعبادة، ﴿ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾، وقد نهى رسول الله ﷺ عثمان بن مضعون عن التبتل، وهو التفرغ التام والانقطاع عن الزواج ونحوه مما أباحه الشرع .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ على الابتداء وجاءت: (رَبِ المشرِقِ)، ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: أن الرب الذي تعبده وتتبتل إليه هو رب المشرق ورب المغرب، ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا شريك له في أُلوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ كما قال: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فيحفظك مما ينوبك ويرعاك ويحوطك

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي الكفار ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ هذا كان في أول الإسلام حيث أمر النبي ﷺ بالصبر على الأذى ثم بعد ذلك أذن الله له في قتال الكفار وفي دفع أذاهم، ولهذا قال بعض أهل العلم بأن هذه الآية منسوخة بقول الله عز وجل: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[التوبة:٢٩]، ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ يا محمد، ﴿ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ من السب والشتم والثلب وغير ذلك، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ ﴾ أي: اهجر مجالسهم وأماكنهم، ﴿ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ لا سخب فيه ولا شيء من ذلك.

﴿ وَذَرْنِي ﴾ وهذا وعيد عظيم من الله عز وجل للكافرين يقول: دعني، ﴿ وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي:

الكفار، ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ الذين أنعم الله عليهم بالنعم الكثيرة، ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ إلى أن يأتي وعد الله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا ﴾ يقول: إن لنا: ﴿ أَنكَالًا ﴾ سلاسل يربط بها الكفار ويعذبون فيها، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ نارًا موقدة.

﴿ وَطَعَامًا ﴾ ولهم أيضًا في هذه النار طعامًا، ﴿ ذَا غُصَّةٍ ﴾ لا يستصيغون أكله ولا يستصيغون بلعه زد على ذلك: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

ويكون هذا الأمر: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ تزلزل الأرض الواسعة وتتهاوى الجبال العظيمة، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ تكون كالرمل يتساقط وهذا يوم القيامة، فتحول الجبال الشاهقة إلى رمال تتناثر وتتطاير في هذه البسيطة ثم لا يرى لها أثر وللجبال حالات، الأول: أنها تسير، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ } [التكوير: ٣]، الثانية: أنها تتهاوى فتكون كالرمال المتطاير، كما في هذه الآية الثالثة أنها تكون : ﴿كالعهن المنفوش﴾ الرابعة: أنها ترى كالسراب. كما قال تعال: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ٢٠]، الخامسة أنك ترى في الأرض عوجا ولا أمتاً، كما قال تعالى: ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا﴾ .

ثم قال الله عز وجل لأهل مكة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وهو موسى عليه السلام.

﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ أعرض وكفر، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أخذه الله وأغرقه في اليم، وجعل حين جاءه الموت يقول: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:٩٠-٩١] .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ فزع يوم القيامة، وما فيها من الأهوال ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ إذا بقيتم على كفركم يا معاشر قريش ويا كفار العرب كيف تسلمون من تبعات يوم القيامة، ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ وهو يوم القيامة لشدة أهواله كما قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:١-٢]، فالولد الصغير يشيب رأسه

بسبب أهوال ذلك اليوم نسأل الله السلامة، إن تكلمت عن عطشه فماذا تقول؟ وإن تكلمت عن حر شمسه فماذا تقول؟ وإن تكلمت عن حال أهله فماذا تقول؟ يموج بعضهم في بعض، والأعمال ظاهره، والأقوال محفوظة، والأفعال مكتوبة، والرب سبحانه وتعالى غضبان، والملائكة صفوف حول بني آدم، والنار قد قربت، والجنة قد أزلفت للمتقين، وما أحد عنده براءة أنه للجنة ولكنه الأمل للمؤمنين والله المستعان، فيكون الحال شديدًا حتى على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم لا يتكلمون إلا بقولهم: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ »، مع أنهم موعودون بالجنة ولخير العظيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ الله ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ الله تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟ " قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قَالَ: " فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا الله، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مِنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ

قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو الله مَا شَاءَ الله أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ الله، فَيَصْرِفُ الله وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ الله لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، يَدْعُو الله حَتَّى يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ الله مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو الله حَتَّى يَضْحَكَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ الله مِنْهُ قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ الله لَهُ: تَمَنَّهْ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى حَتَّى إِنَّ الله لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ الله تَعَالَى: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ "، قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا، حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ الله قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: «وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ»، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ» متفق عليه، فالأمر خطير والخطب جلل فمن الآن علينا أن نستعد ونتأهب لذلك اليوم.

﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ السماء مشققة ومطوية، كما قال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾[الأنبياء:١٠٤]، ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ كان هذا الأمر واقعًا لا محالة.

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي: ما تقدم من المواعظ، ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ للمؤمنين، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقًا، وأما الكفار فما تنفعهم هذه التذكرة بل يزدادون بعدًا وعتوًا والله المستعان.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ إعادة إلى ما كان قد فرض على النبي ﷺ

وأصحابه من القيام فطبقوه وامتثلوا شرع الله، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ يا محمد، ﴿ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ يعني: دون الثلثين، ﴿ وَنِصْفَهُ ﴾ ونصف الليل، ﴿ وَثُلُثَهُ ﴾ وثلث الليل يعني: على حسب النشاط والقوة، ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أيضًا يقومون أدنى من ثلثي الليل، وربما قاموا نصف الليل، وربما قاموا ثلث الليل، ﴿ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يقدر ساعاته ويقدر طوله وقصره، ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ علم سبحانه وتعالى أنكم لن تطيقوا القيام لو فرض عليكم أبدًا، ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ خفف عنكم ونسخ فرضيته فصار مستحباً وقد قال الله عز وجل لنبيه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾[الإسراء:٧٩].

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ما يسره الله لكم من غير تطويل يتعبكم أو تقصير لا تستفيدون منه شيئًا كثيرًا ولكن بين ذلك، واستدل بهذه الآية الحنفية على أنه يجزئ في القراءة في الصلاة ما تيسر ولو بغير الفاتحة، والصحيح: أن ما تيسر من القرآن هو الفاتحة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ» **متفق عليه عن عبادة رضي الله عنه.**

﴿ عَلِمَ ﴾ أي: أن هذا التخفيف لعلم الله عز وجل: ﴿ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ يعجزون عن القيام، ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ يسافرون، ﴿ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ إما للتجارة أو نحو ذلك فيشق عليهم قيام الليل مع سفر النهار، ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ يجاهدون فربما عجزوا عن قيام الليل لكثرة أتعابهم بالنهار، ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي: من القرآن في ركعات ليلكم ولو أن تصلي بركعة، ولو أن تصلي بثلاث، ولو أن تصلي بخمس، ولو أن تصلي بسبع، ولو أن تصلي بتسع، ولو أن تصلي بإحدى عشرة كما جاء عن النبي ﷺ، فإن كنت مسافرًا صلي على راحلتك كما ثبت عن النبي ﷺ، فإن عجزت عن القيام صلي قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهي المفروضة وهي خمس صلوات في اليوم والليلة، وهذا يُشعر أن هذا التخفيف كان بعد فرض الصلوات، ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي: المفروضة، وهذا دليل على أن الزكاة فرضت في مكة وحددت أنصبتها بالمدينة وفي العام التاسع أرسل النبي ﷺ من يجمعها من الناس، ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي: بالصدقات والله غني عن عباده ولكن جعل الصدقة على الفقير والمسكين كالقرض الحسن يُضاعف لصاحبها في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَا

نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا» أخرجه مسلم، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٦١].

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ في هذه الدنيا، ﴿ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله ﴾ يوم القيامة، ﴿ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ يُضاعف أكثر مما قدمتموه وتلقون بركته وثمرته في: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، وهذا دليل على أنك ما من عمل تقدمه بين يديك إلا وستجده يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا الله ﴾ من تقصيركم وذنوبكم فإن الله غفار الذنوب ويستر العيوب قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[طه:٨٢]، ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ متجاوز عن السيئات فيما مضى ويوفق العبد المؤمن فيما يأتي، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المدثر

مكية .

واختلفوا في وقت نزولها فذهب جمع من أهل العلم إلى أنها أول سورة أُنزلت لما جاء عن أَبِي سَلَمَةَ أنه سئل أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فَقُلْتُ: أَوِ اقْرَأْ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ؟ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٢] " متفق عليه، والصحيح أن أول خمس آيات أُنزلت على النبي ﷺ كانت من أول اقرأ ثم فتر الوحي ثم نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾[المدثر:١]، فكان نزول ما تقدم من آيات العلق تنبيئ للنبي ﷺ وكان نزول الخمس الآيات من المدثر إرسال للنبي ﷺ، ولذلك يقول بعض أهل العلم نُبِئ باقرأ وأُرسل بالمدثر.

قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ تقدم أنه قيل: بأن المدثر الذي تدثر بالثياب وذلك لما لحقه من الفزع حين جاءه الوحي في غار حراء، وقيل غير ذلك.

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي: قم بالنذارة للناس لدعوتهم إلى التوحيد وتحذيرهم من الشرك والتنديد.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي: عظم ربك.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قيل: طهر نفسك من الذنوب والمعاصي والشركيات؛ لأن الإنسان قد يُطلق على عمله ثوب قال عنلان بن سلمة الثقفي:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقيل: طهر ثيابك وهي دالة على وجوب طهارة الظاهر والباطن.

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أي: اهجر الأصنام وعبادها فلا تحضر مجالسهم ولا تُكثر سوادهم، وهو

بمعنى قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾[الأنعام:٦٨].

﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي: لا تمنن بعطائك استكثارًا أو لا تمن على الله عز وجل بعملك من أجل الاستكثار من الدنيا وقيل غير ذلك، والشاهد: أن الآية فيها تحريم المنّ، والنبي ﷺ يقول: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ الله إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قُلْنَا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله، فَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا؟ فَقَالَ: «المَنَّانُ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ» **متفق عليه.**

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي: اصبر على قضائه وقدره فهو أعلم وأحكم سبحانه وتعالى بما يصلح به الحال والمآل.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ إذا نفخ في الصور يوم القيامة؛ لأن الناقور هو القرن الذي يُنفخ فيه.

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ذلك اليوم يوم شديد؛ لأن الناس يبعثون من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا ويجازون على أعمالهم، وتدنو الشمس من الخلائق بمقدار ميل فيشتد الحر ويكثر العرق ويقع العطش ويزدحم الناس ويجازى كل واحد بعمله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ

نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى ".

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي أن المؤمن قد يُظل بظل عرش الله، وقد يُسقى أكثرهم من حوض النبي ﷺ وتشملهم الشفاعة فيلحقهم الأمل، بينما الكافر كلما ازدادت شدته ازداد همه وغمه؛ لأنه يقرب من النار وبئس القرار.

﴿ ذَرْنِي ﴾ اتركني ودعني، ﴿ وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ والذي خلقت: ﴿ وَحِيدًا ﴾ أي: في بطن أمه ليس له معين ولا نصير ولا ظهير وإنما هو الله الذي يربيه ويرزقه ويعطيه، قيل هو الوليد بن المغيرة.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ بعد أن خرج إلى هذه الدنيا أنعم الله عليه بالأموال حتى كثر ماله وكثر عبيده وإماؤه.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ وأعطيته أبناء يشهدون مجلسه ويحضرون معه، وكانوا يرسلون عبيدهم للتجارة ونحوها وهم في خير حال.

﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ بأنواع النعم سواء كانت في لبسه أو أكله وشربه وأثاثه وغير ذلك.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ يطمع الزيادة مع كفره وبغيه وإعراضه وأذيته للنبي ﷺ.

﴿ كَلَّا ﴾ يعني: لا يكون هذا بل سيأتي الله عليه وعيد الله الكافرين والمعرضين: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» **متفق عليه**، أو المعنى حقًا لن تكون له الزيادة، ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ كان معارضًا مُكابرًا لم يستجب لدعوة رسول الله ﷺ ولم تنفعه آيات الله لشدة كبره وإعراضه.

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ هذا في الآخرة أنه يعذب في النار بشدة العذاب وزيادته ونكاله، وقيل: بأنه يصعد في جبل في النار وقيل غير ذلك لكن المعنى: أن الله عز وجل يغطيهم العذاب وتأتيهم النار من كل جهة.

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: هذا الرجل، ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ كيف يطعن في النبي ﷺ؛ لأنهم اجتمعوا وكل يريد أن يذم النبي ﷺ فهذا فكر في عقله.

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ لُعن بسبب فكره وتقديره.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ زيادة في اللعن والطرد من رحمة الله.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي: إلى الحاضرين.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ يعني: انقبض ما بين عينيه، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ تغير وجهه.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ جعل يقدم ويتأخر من أجل أن يأتي بمقولة شنعاء يحذر فيها من القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ فَقَالَ ﴾ قولةً مشؤمة، ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي: القرآن، ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي: تعلمه محمد ﷺ من الأمم السابقة كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾[الفرقان:٥]، فهم كانوا

يزعمون أن القرآن جاء من قبل المتقدمين، ثم أتى بمقولة أخرى.

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ يعني: هذا القرآن قول البشر، وكذب في هذه الدعوى فإن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله أنزله إلى محمد ﷺ تكلم به ربنا حقيقةً وسمعه منه جبريل وجاء به جبريل إلى النبي ﷺ، كما قال الله ﷻ: {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة: ٦] فمن زعم أن القرآن قول البشر فقد كفر، وشأنه كما قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ سيعذبه الله عز وجل في النار وتحيط به من جميع جوانبها.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تعظيم لشأنها.

﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ لا تبقي له لحمًا ولا عصبًا ولا عظمًا ولا شحمًا ولا شيء، بل يؤكل جميع جسمه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[النساء:٥٦]، نعوذ بالله من النار.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أي للجلد حيث تلفح الوجه لفحة فتدعه أسود من الليل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تحرق جلد الإنسان .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي: المقدمين من زبانية النار وخزان النار تسعة عشر، وإنما ذكر الله هذا العدد مع أنه لا يعلم جنود الله إلا الله فتنة للكافرين فإنه لما قال: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قالوا: إذًا هؤلاء سنُكفاهم عدد يسير وعدد قليل.

قال الله ردًا على هذا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً ﴾ أي: أن الله جعل خزان النار ملائكة: ﴿ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، قال النبي ﷺ: «فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهٍ الْمَرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ .... وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ الْمَرْآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ» **أخرجه البخاري عن سمرة** رضي الله عنه، خلقه الله عز وجل ولا رحمة فيه ولا شفقة، ولذلك يقول أهل النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ أي: بهذا العدد تسعة عشر، ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يُفتنون فيزدادون كفرًا إلى كفرهم وبغيًا إلى بغيهم، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي: الذين يؤمنون بما أخبر الله

عز وجل وبالنبي ﷺ ، ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ لعلمهم أن الله على كل شيء قدير، وفي هذه الآية إثبات زيادة الإيمان ونقصانه وهذا هو مذهب أهل الحق أهل السنة وإنما خالف المبتدعة فزعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص زيادته ونقصانه كفر، ورأس هؤلاء المبتدعة الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والرافضة، والجهمية ومن إليهم، فالإيمان يزيد وينقص تزيده الطاعات وتنقصه المعاصي والسيئات، والأدلة على ذلك متوافرة متكاثرة من الكتاب والسنة والإجماع، ﴿ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يلحقهم الريب والشك؛ لأنهم يعلمون أنما جاء من عند الله هو الحق الذي لا باطل فيه، والنور الذي لا ظلام فيه، ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أصحاب الشكوك من الكافرين وغيرهم وأهل النفاق، ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ أي لماذا ذكر تسعة عشر دون غيرهم، ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بهذه الأمثال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣]، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ يضل من يشاء عدلًا لعلمه أنه ليس أهلًا للهداية ويهدي من يشاء فضلًا لعلمه أنه أهل للهداية، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ما يعلم كثرة ملائكة الله وما اتخذهم جنودًا إلا الله عز وجل، ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي: ما تقدم من الآيات ذكرى يتعظ بها من أراد الله به الخير، ويعرض عنها من أراد الله به الشر والضير، وقد ذكر النبي ﷺ أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك آخر ما عليهم، متفق عليه عن أنس رضي الله عنه، انظر منذ خلق الله الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك عدد لا يعلمه إلا الله، وعن أبي ذر رضي الله عنه : «إِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ» **أخرجه أحمد**، وذكر أهل العلم أنما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك ووكل الله عز وجل بكل إنسان ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، زد على ذلك الحافظين الذين يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله، وهكذا الملائكة السيارة التي تتبع حلق الذكر، وهكذا الملائكة التي تتعاقب بالليل والنهار، والملائكة التي تكون على أبواب المساجد فتكتب الأول فالأول، فجنود الله عدد كثير، وفي ليلة القدر يقع الخير العظيم: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾[القدر:٤]، لكثرتهم، وهم مخلوقات عظيمة خلقهم الله عز وجل من نور كما أنه سبحانه وتعالى خلق الشياطين من نار وخلق الإنسان من تراب كما في حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم .

والشاهد: أن الكفار حين أُخبروا بما أُخبروا عن خزنة النار استقللوا هذا العدد وقالوا: هذا سنكفاهم، وحين ذكر الله لهم شجرة الزقوم قالوا: سنتزقم عليه يعني: نشرب بعض الذي يذهب حرارتها فكان ما أخبر الله: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٣-٤٩]، فلا يجوز أن يواجه وعيد الله بالاستهزاء والسخرية والاعراض بل على العبد أن يكون رجاعًا إلى ربه مستغفرًا من ذنبه.

﴿ كَلَّا﴾ أي حقاً ﴿وَالْقَمَرِ ﴾ أقسم الله عز وجل بالقمر.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ الليل إذا ولى.

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ ظهر، وكثيرًا ما يُقسم الله عز وجل بالليل والصبح؛ وذلك أن الله يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وأما أنت أيها المسلم فلا يجوز لك أن تقسم إلا بالله فعن عمر رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ» **متفق عليه .**

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى﴾ أي هذه النذارة التي جاء بها محمد ﷺ ﴿الْكُبَرِ ﴾ أي العظائم .

﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ أي: أن الله أرسل محمدًا ﷺ وجاء بهذه الآيات نذارة للبشر يخوفون من النار ويبشرون بالجنة، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾ يا معاشر المكلفين، ﴿ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ بفعل الطاعات وسلوك سبيل المكرمات، ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ بفعل المعاصي والسيئات.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من المكلفين سواء من الجن أو الإنس، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرتهنة في النار ومحاسبة وتجازى عليه يوم القيامة.

﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم بل هم مرحومون ومغفور لهم، وأصحاب اليمين هم أهل الإيمان.

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وهذا بعد أن يُكرمهم الله عز وجل بدخول الجنة ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[المعارج:١٠]، ونحوها فهي مواطن تقع مواطن شدة لا يلتفت أحد لأحد، ويقع للمؤمنين بعد دخولهم الجنة والاطمئنان الذي حصل لهم أنهم يتساءلون عمن كانوا يعرفونه من أهل الدنيا.

﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ممن كان يعارضهم ويؤذيهم ويتنكر لهم.

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ما السبب الذي جعلكم تدخلون النار وبئس القرار.

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ وذكر الصلاة قبل غيرها؛ لعظيم شأنها وعلو مرتبتها، وبهذا استدل أهل العلم على أن تارك الصلاة كافر كفر أكبر مخرج من الملة وقد قال الله عز وجل: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[الماعون:٤-٧]، وقال الله عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩].

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ وذلك بمنع الزكاة والحقوق الواجبة فجمع هذا الكافر بين تضييع حق الله وحق عباده، فإطعام المسكين من المتعينات إن كانت الزكاة المفروضة فتجب، وإن كانت الصدقات المندوبة فقد رغب الله عز وجل فيها.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ بالباطل ورد الحق ومنه نشر البدع والشركيات والخرافات وغير ذلك فهذا من أسباب دخول النار كما قال الله عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥].

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي: ومن أعمالهم الشنيعة: أنهم كانوا يكذبون بيوم القيامة يوم الجزاء، فالدين بمعنى: الجزاء، فكانوا يقولون: بأنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور بل حالهم كما قال الله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩].

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ الموت فعلموا أنما أخبر به النبي ﷺ من البعث والنشور واقع لا محالة.

﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ كما قال الله عز وجل: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٨]، فلا تنفعهم شفاعة بتخفيف العذاب عنهم ولا يخرجون من النار: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[الحج:٢٢]، وإنما ينتفع بالشفاعة المؤمن إذ أن الله عز وجل لا يقبل الشفاعة إلا بثلاثة شروط: الأول: إذن الله للشافع، الثاني: رضا الله عن الشافع، الثالث: رضا الله عن المشفوع، وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » **أخرجه الترمذي**، وقال الله عز وجل: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾[الأنبياء:٢٨]، إلا أن أبا طالب شفع له

النبي ﷺ في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار، فعن العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» أخرجه البخاري .

﴿ فَمَا لَهُمْ ﴾ أي: كفار قريش ومن إليهم، ﴿ عَنِ التَّذْكِرَةِ ﴾ التي جاء بها النبي ﷺ من القرآن والسنة ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ مدبرين غير مقبلين.

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع حمار ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ نافرة ومنفرة .

﴿ فَرَّتْ﴾ هربت ﴿مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ فرت من الأسد إذا رأته فإن القسورة أحد أسمائه، وهذا تشبيه بليغ مثل ومثل الله عز وجل الكفار المعرضين عن الحق بالحمر الشاردة الهاربة من عدوها وهو الأسد إذ يتبعها ومثل النبي ﷺ «المنافق بالشاة العائر بين الغنمين» .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ أي أن كفار قريش يطلبون أن يكون لكل واحد منهم كتابا يؤتاه، كما قال تعالى: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، أي: هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله ﴾[الأنعام:١٢٤]، وكفروا بما أوتي رسل الله، وكل يريد أن ينزل عليه الكتاب ما هكذا الحكمة الإلهية بل إن الله يصطفي من عباده من شاء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران:٣٣]، فهم يقولون: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾ يتمنى ويحب، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ﴾ أي: من الكفار، ﴿ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا ﴾ كتابًا من عند الله، ﴿ مُنَشَّرَةً ﴾ منشور وفيه أخبار من مضى وأخبار من أتى كما هو حال النبي ﷺ.

﴿ كَلَّا ﴾ هذا لا يكون ولا يجوز شرعًا ولا عقلًا، وأيضًا معناها حقًا، ﴿ بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ الحامل لهم على هذا الصنيع أنهم لا يخافون الآخرة؛ لزعمهم أنها لا تكون ولتكذيبهم وكفرهم ولعدم علمهم بحق الله إلى غير ذلك، وهذا هو السبب الذي أودى بهم إلى النار وبئس القرار، فخوف الآخرة ينبغي أن يلازم المسلم حتى يحمله على فعل الطاعات والقربات.

﴿ كَلَّا﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ إن هذا القرآن تذكرة للمؤمنين يستفيدونها ويستجيبون لها.

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ من شاء أن يتذكر تذكر، كقوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف: ٢٩] .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ لن يستقيم ويدخل في الإيمان إلا من شاء الله له ذلك وعلمه أهلًا لذلك كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾[الإنسان:٣٠]، ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ هو أهل أن يُتقى فيطاع بالتوحيد وينزه عن الشرك والتنديد، ويطاع بالطاعات ويبتعد عن المعاصي والسيئات، فهو سبحانه وتعالى يراك حين تقوم، ﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أهل أن يغفر للمؤمنين والمسلمين والموحدين قال الله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[طه:٨٢]، وأخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَرَأَ - أَوْ تَلَا - هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر: ٥٦] فَقَالَ: "قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلْ مَعِي إِلَهٌ آخَرُ، فَمَنْ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا آخَرَ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ".

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القيامة.

مكية، وسيمت بالقيامة؛ لأن الله ذكر فيها يوم القيامة.

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: أقسم بيوم القيامة، وأقسم الله به لعظمة ما يكون فيه من الأهوال ومجيء الرب عز وجل للفصل بين العباد .

﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ قيل: لا أقسم بالنفس اللوامة، أي: لم يقسم الله عز وجل بها، والصحيح: أنه أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة؛ لأن النفس تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: المطمئنة: وهي نفس المؤمن المسارع إلى الخيرات والمبرات، الثاني: وأمارة بالسوء: وهي النفس التي ترغب في السوء وتزينه، والثالثة: اللوامة: وهي النفس التي إن فعل الخير لامته وإن فعل الشر لامته، وقيل: بأنها الفاجرة والأول أصح يعرفه كل واحد من نفسه، تتكلم بالكلمة ثم تقول لك نفسك لمَ تكلمت بهذا، وربما تأكل الأكلة قالت لك: لما أكلت كذا فإن فعلت الخير لامتك وإن فعلت الشر لامتك؛ لترددها، وأحسنها حالًا المطمئنة، قال الله ﷻ: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} [الفجر: ٢٧].

﴿ أَيَحْسَبُ﴾ أيظن الكافر ﴿الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أن الله عاجز عن جمع عظامه بعد أن صارت مفتتة وصارت ضلالًا في الأرض؛ والله لا يعجزه شيء، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[المؤمنون:١١٥-١١٦]، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩].

﴿ بَلَى ﴾ جواب لهذا الاستفهام، ﴿ قَادِرِينَ ﴾ على التعظيم أي لا يعجزه شيء، ﴿ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ يقول الله عز وجل: بلى إن في قدرتنا إحيائه بعد إماتته وزيادة على ذلك لا يعجزنا أن نسوي بنانه فتصير كيد الحافر من الدواب .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ جنس الإنسان يريد بالكفر والعصيان أن يفجر ويخالف أمر الله في أيامه المقبلات ويبارز الله بالمعاصي والسيئات، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله وعصمه،

وطبيعة الإنسان أنه كفور فجور وأنه ظلوم جهول: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[يوسف:٥٣]، ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾[ص:٢٤].

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ لشدة كفره وبغيه يقول: متى يوم القيامة؟ وأين يوم القيامة؟ وهذه الأسئلة قد تكررت من الكفار، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يونس: ٤٨] وقال: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣]، وقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾[النازعات:٤٢-٤٤]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾[الأعراف:١٨٧].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ﴾ حار، كقوله: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ ﴿الْبَصَرُ ﴾ يوم القيامة يوم تبعث من قبرك أيها الإنسان فيشخص بصرك، كما قال تعالى: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[القلم:٤٣]، يخرج لا يستطيع أن يغمض عينة من شدة الخوف والفزع، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٣].

﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوءه .

﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ يجمعان ويكوران في النار كما قال عز وجل: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[التكوير:١]، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وجمع بين الشمس والقمر﴾ ولا يظن ظان أن إلقاؤهما في النار عذاب لهما وإنما هو تبكيت لمن كان يعبدهما من دون الله، فالشمس المحرقة العظيمة والقمر المضيء تتبدد أنوارهما وتنخسف أضواؤهما ويصبحان في النار.

﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ ﴾ عند مشاهدة هذه الأهوال، ﴿ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أين المهرب والفرار إلا إلى الله، كما قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى الله ﴾[الذاريات:٥٠]، لا مهرب منه إلا إليه، لا عشيرة، ولا معين، ولا ظهير، ولا نصير في قاع صفصف يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، والأعمال قد أُحضرت، والنار قد سجرت، والخصوم كل يطالب بما له، ربما كان خصمك أمك أو أبوك أو أخوك أو زوجك أو أبنك أو جارك أو صاحبك، وفوق ذلك الله عز وجل مطلع على السرائر: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩] .

﴿ كَلَّا ﴾ حقًا، ﴿ لا وَزَرَ ﴾ لا مفر ولا مهرب.

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ ليس إلا الله يجازي العباد على أعمالهم فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إلا أن يتجاوز الله عمن شاء من عصاة المسلمين، كما قال تعالى: {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} [الشورى: ٤٧]: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٨١]، وقال: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩].

﴿ يُنَبَّأُ ﴾ يُخبر ﴿الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ في ذلك اليوم بما قدم من الأعمال الكبير والصغير، والجليل والحقير، وما كان من أمثال النقير والقطمير فيُخبر بأعماله الصالحة التي قدمها وبأعماله السيئة التي ارتكبها.

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يُسأل عن نفسه ويشهد عليها، فالمؤمن قد يُسأل كما في حديث ابن عمر: «فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ»، فيظهر الله له صغار ذنوبه ويخفي عنه كبار ذنوبه، فيقول: «سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»، «فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا» **أخرجه مسلم**، يطمع في مغفرة الله، وأما الآخر فيقول الله له: «أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا»، والثالث يقول له: أكنت تظن أنك ملاقي قال: نعم يا رب، «فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ» **أخرجه مسلم، والحال كما قال الله ﷻ:** ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[النور:٢٤-٢٥]، فهنا يقول: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ ﴾ الواقع أن الإنسان: ﴿ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ عالم بأعمال نفسه وقد عرضت عليه وسُطرت.

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ولو ألقى حجته وأنكر الفعل وأراد أن يكذب يقول: أردت كذا وقصدت كذا، لكن الواقع أنه عالم بنفسه وقيل: المعذر: هو الثياب في لغة أهل اليمن التي يُغطى بها الإنسان، وقيل الاعتذار وهذا مردود فإنهم يكذبون كما قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة: ٦]

ثم قال الله عز وجل لمحمد ﷺ حيث كان يقرأ القرآن ويلاقي شدة عند إنزاله من أجل تحفظه فوعدّه الله بحفظه: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي: حين يأتيك جبريل بالقرآن ولكن اسمع وانصت.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ تقرأه بعد ذلك، فكان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بعد ذلك أنصت ثم يقرأه كما وعده الله، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ} [القيامة: ١٦] قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ»، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦] أَخْذَهُ {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ} [القيامة: ١٧] وَقُرْآنَهُ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٨] قَالَ: أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ {إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩] أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ الله» .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي: قرأه جبريل، ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ اقرأه كما قرأه.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ علينا أن تقرأهُ للناس، كما قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾[الأعلى:٦-٧]، أي: أن ينسخه وإلا فإن الله قد حفظ القرآن.

ثم قال الله عز وجل مبينًا سبب كفر الكافرين وإعراض المعرضين: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ السبب الذي جعلكم تكفرون بمحمد ﷺ وتنكرون اليوم الآخر وما فيه: أنكم تحبون الدنيا العاجلة وتطمعون في ملذاتها وترغبون فيها.

﴿ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ تزهدون في الآخرة التي هي خير وأبقى أعدها الله عز وجل للبقاء لا للفناء.

ثم قال مخبراً عن حال المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ تعلوها النضارة والبهاء والجمال.

﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بعينيها فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» **متفق عليه**، وهذه مسألة عليها أهل السنة أجمعون من

زمن الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أن الله عز وجل يُرى يوم القيامة في موطنين الأول: في عرصات القيامة، ودليله هذه الآية، الثاني: في الجنة كما قال تعالى: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾[المطففين:٢٣]، أي: إلى وجه الله العظيم، وقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، النظر إلى وجه الله عز وجل، فعن صهيب رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ الله مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الحِجَابُ قَالَ: فَوَالله مَا أَعْطَاهُمُ الله شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»، وعدي النظر هنا بإلى الذي يفيد نظر العين حقيقةً، فنضرت وجوههم بنظرها إلى وجه ربهم سبحانه وتعالى.

﴿ وَوُجُوهٌ﴾ وهذه وجوه الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ كالحة مغبرة مرهقة عليها قترة مسودة: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران:١٠٦]، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[عبس:٣٨-٤٢]، فجمال الجسم لذلك اليوم يكون بحسب جمال الدين فمن كان من أصحاب الدين كان من أصحاب الوجوه المضيئة المشرقة الجميلة، ومن كان من المفرطين ناله من قترة الوجه بقدر تفريطه.

﴿ تَظُنُّ﴾ استيقنت ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أن تقع بها الفاقرة وهو الأمر العظيم الذي لا تتحمله، فالظن في القرآن يأتي كثيرًا بمعنى الاستيقان .

﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقًا، ﴿ إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿التَّرَاقِيَ ﴾ الحلقوم وذلك إذا كان الإنسان في النزع وبلغت نفسه التراق وهو العظم الذي بين الرقبة والعاتق، فيحشر عند الموت .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ سأل أهله أين الأطباء والرقاة ، وهذا كقوله: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٣ - ٨٧] .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ استيقن أنه مفارق إذ قد عاين الملائكة؛ لأن الإنسان قبل موته إن كان من أهل الإيمان رأى ملائكة الرحمة بيض الوجوه معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة، وإن كان من أهل الإشراك والفجور جاءته ملائكة سود الوجوه معهم كفن من النار وحنوط من النار، كما في

حديث البراء رضي الله عنه.

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قيل: أحواله، وقيل: ساقه حين تربط في الكفن .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ مآله إلى ربه فيجازيه بعمله.

ومع هذا وذاك فإن الإنسان معرض للوعيد والعذاب الشديد والسبب أنه ﴿ فَلا صَدَّقَ ﴾ بوحي الله، ﴿ وَلا صَلَّى ﴾ لله، انظروا يا سبحان الله كم يذكر الله الصلاة دليل على عظم شأنها، وما أكثر المفرطين فيها في هذا الزمان بين تارك لها بالكلية وبين مضيع لأركانها وشروطها وأوقاتها، فربما اتخذ الصلاة لوقت الفراغ، اختبر نفسك أيها المسلم هل تقوم للصلاة من نومك؟ هل تترك العمل لصلاتك، هذا هو المسلم، أما من كان حاله كما قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾[النساء:١٤٢]، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون:٤-٥]، وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩]، ﴿ فَلا صَدَّقَ ﴾ برسالة الله، ﴿ وَلا صَلَّى ﴾ لله.

﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ ﴾ بالرسالة والنبوة، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ﴾ رجع ﴿إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ متبخترًا متكبرًا مسروراً، وهذا حال كثير من الناس ، يقول أحدهم: دعونا من المطاوعة ويضحك عليهم، يخشى عليه والله من مقت الله وغضبه إن لم تبادر إلى مرضات الله عز وجل فلا أقل من عدم السخرية من المؤمنين فإن النبي ﷺ قد أخبر بأن المستهزئ بدين الله عز وجل من الكافرين: ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، وقال: ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾[المطففين:٣١-٣٣] .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ تهديد من الله عز وجل لهذا الصنف، وقيل بأنه تهديد لأبي جهل لعنه الله .

﴿ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ إعادة التهديد والوعيد وأن هذا الصنف مآله إلى الانحسار والخزي والبوار إن لم يبادر بتوبة قبل الموت وعودة قبل الفوت .

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ﴾ أيظن هذا الإنسان ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ هملا لا يؤمر ولا ينهى، وأنه خلق عبثًا؟ لا، لا يكون ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[المزمل:١٥-١٦]، فالله عز وجل

أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى لا يأتي آتي يقول يوم القيامة: يا رب ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة:١٩].

﴿ أَلَمْ يَكُ﴾ هذا المتكبر المتغطرس المتجبر الذي يرى نفسه في يوم ﴿نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ وهو عبارة عن حيوان منوي من ملايين الحيوانات المنوية يجتمع مع ماء المرأة فيصير نطفةً ومشيجًا كما قال الله ﷻ: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢] « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه، عن ابن مسعود، ﴿ مِنْ مَنِيٍّ ﴾ المني الذي يخرج من الرجل والمرأة، ﴿ يُمْنَى ﴾ أي: حال الجماع.

﴿ ثُمَّ كَانَ﴾ بعد النطفة ﴿عَلَقَةً﴾ معروفة شيء صغير يعلق في رحم المرأة مثاله ما يكون في المياه من العلق الأسود، ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ خلقه الله وسواه وجعل له سمعًا وبصرًا وقلبًا وشحمًا وعظمًا وسواه مخلوقًا، فلو خرج قبل الأربعة الأشهر لربما رأيته عبارة عن مضغة، وإذا خرج بعدها رأيته خلقًا سويًا .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ ﴾ خلق منه الزوجين، ﴿ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ من أجل التزاوج، والحفاظ على النسل، والتعاون وقضاء الوطر وغير ذلك.

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي الذي خلقك وأنت لا شيء من نطفة بل من العدم، أليس بقادر ﴿ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ وهذا دليل على أن الله لا يعجزه شيء، وكما أسلفت أن الله عز وجل يقرر الكفار الذين ينكرون البعث والمعاد، فيقررهم بأن البدأة من الله وربما إذا سلمنا أن الإعادة صعبة ستكون البدأة أصعب، فمن استطاع على البدأة لا يعجزه الإعادة، ولهذا قال بعض أهل العلم استدل بالبدأة على الإعادة وقال بعضهم: أيضًا استدل بالإعادة على قدرته على البدأة، المهم أنه استدل بخلقه لهم قبل أن يكونوا شيئًا على قدرته على إعادتهم، ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ أي: ﴿ الَّذِي

خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار:٧-٨]، ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ يوم القيامة، ﴿ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ويخرجهم من قبورهم، وقد جاء في سنن أبي داود عن موسى بن أبي عائشة كان رجلٌ يُصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)} [القيامة: ٤٠] قال: سُبحانك فبلى، وأما ما جاء عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ قال: «بَلَى»، وكذلك: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[التين:٨]، عند أبي داود (٨٨٧) قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: "مَن قرأ منكم بـ {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: ١] فانتهى إلى آخرها {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين فهو من طريق رجل أعرابي عن أبي هريرة رضي الله عنه، والمبهم من قسم الضعيف.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم.

سورة الإنسان

مكية وقيل مدنية.

في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ: الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»، قال ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٦٣) : وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي فَجْرِهِ سُورَتَيِ (السَّجْدَةِ) وَ (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ) لِاشْتِمَالِهِمَا عَلَى مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فِي هَذَا الْيَوْمِ، مِنْ خَلْقِ آدَمَ، وَذِكْرِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَكَانَ يُذَكِّرُ الْأُمَّةَ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِمَا كَانَ فِيهِ وَمَا يَكُونُ، فَهَكَذَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ بِأَعْظَمِ مَوَاقِفِ الدُّنْيَا - وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ - الْمَوْقِفَ الْأَعْظَمَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ، وَلَا يَتَنَصَّفُ حَتَّى يَسْتَقِرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ. اهـ

﴿ هَلْ أَتَى ﴾ قد أتى، ﴿ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ أي: قبل أن يوجد في صلب أبيه وبطن أمه كان في العدم.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ حيث خلق الله آدم من تراب، ثم جعله طينًا، ثم جعله حمًا مسنونًا، ثم نفخ فيه فكان إنسانًا سويًا قائمًا، ثم تتابعت الخلقة أن خلقهم متناسلين ، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ من مني الرجال والنساء، كما قال تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ } [الطارق: ٧] ، ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ مختلط مستقذر في المنظر ومع ذلك مبدأ الإنسان من هذه النطفة حتى قال بعضهم: لماذا تتكبر وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ أي: المقصد من خلق الإنسان الابتلاء والاختبار هل يشكر أم يكفر؟ هل يؤمن أو يعرض، كما قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢] ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي: خلق الله له سمعًا وبصرًا، سمع يدرك به المسموعات، وبصرًا يدرك به المبصرات، وأكثر معارف الإنسان تكون من هاتين الجارحتين مع جارحة القلب، كما قال تعالى: ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨].

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي: جنس الإنسان بيني الله له سبيل الخير وسبيل الشر وهذه هداية

عامة كقوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[البلد:١٠]، أي: نجد الخير والشر، وأما هداية التوفيق فهي خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾[يونس:٩]، ﴿ إِمَّا شَاكِرًا ﴾ أي: جنس هذا الإنسان أما أن يكون شاكرًا لله على نعمه، ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ كافرًا لنعم الله أو جاحدًا وكافرًا بالله، والمعنى إنه في هذا الحال إما أن يكون مؤمناً سعيداً، وإما أن يكون كافراً شقياً، وقد قال عبد الله بن مسعودﷺ: «السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه » أخرجه مسلم .

فلما بين حال الإنسان من حيث القسمة أخبر عن مآلهم: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني في جهنم فيه دليل على أن النار موجودة الآن إذ أن الله قد أعدها وجهزها وجعل الملائكة يحشونها، ﴿ سَلاسِلا ﴾ يقيدون بها، ﴿ وَأَغْلالًا ﴾ تغل أيديهم وأرجلهم إلى حناجرهم، ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ نار تحيط بهم فتحرقهم أعاذنا الله من ذلك.

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ ﴾ أصحاب الأعمال الصالحة تسمى مبرات؛ لأنها تقرب من الله عز وجل، والبر كل أعمال الصلاح، كما قال الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[البقرة:١٧٧]، هذا من البر: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[البقرة:١٧٧]، الآية، وفي حديث النواس بن سمعان: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»، أي: مع الله ومع الناس، ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ يوم القيامة، ﴿ مِنْ كَأْسٍ ﴾ معروف، الكأس ما تكون له عروة يمسك فيها، والكوب ما يكون بدون عروة، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ مليئة بالخمر المختلط بالكافور فيزداد برودةً ولذةً وليس فيه من خصائص الدنيا شيء؛ لأن خمر الدنيا يسبب السكر شبه الجنون ورائحته كريهة ويلحق شاربه كثير من الضرر الديني والدنيوي، أما خمر الآخرة، فحاله كما قال الله ﷻ: ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[الصافات:٤٧]، ممزوجة بالكافور وهو نوع من الطيب.

﴿ عَيْنًا ﴾ أي: هذه الأكواب تملأ من عين، ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ أي: يشرب منها عباد الله المؤمنين الذين دخلوا الجنة، ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يستمتعون بما فيها من الشراب وغير ذلك كما شاؤوا وأنى شاؤوا كما قال الله عز وجل في وصف الجنة: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾[الرحمن:٥٠]، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[الرحمن:٦٦].

وسبب حصولهم على هذا الخير العظيم ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾؛ يوفون في الدنيا بالنذور التي أوجبها الله عليهم وما جعلوها على أنفسهم، ألزموها بطاعة الله، ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يخافون من الله ويخافون من اليوم الذي سيحشرون إليه، ﴿ كَانَ شَرُّهُ ﴾ كان على المضي لكنه خبر عن الآتي لتحقق وقوعه، ﴿ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: ظاهرًا منتشرًا، في يوم القيامة في عرصاتها وجميع أحوالها إلا ما رحم الله .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ﴾ ومن طريقتهم؛ أنهم يطعمون الطعام للفقراء والمساكين والمحتاجين، ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ قيل حب الله ﷻ وقيل مع حبهم للطعام واستظهره ابن كثير، ﴿ مِسْكِينًا ﴾ محتاجًا فقيرًا، ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ لا أب له ينفق عليه، ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ قد أُودع السجون وليس ثمة من ينفق عليه.

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ سبب الاطعام ابتغاء مرضات الله كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾[الروم:٣٩]، وفيها: إثبات صفة الوجه لله، وجه يليق بجلال الله عز وجل وهو من الصفات الذاتية الخبرية، وأدلتها كثيرة في الكتاب والسنة وعليها الإجماع، وفيها: فضيلة الاخلاص،: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، ﴿ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ ﴾ على هذا الاطعام، ﴿ جَزَاءً ﴾ أي: نوالًا وعطاءً، ﴿ وَلا شُكُورًا ﴾ أي: مدح وثناءَ، وبهذا تعلم أن من أعظم أسباب الجنة الإحسان إلى الغير، فالوفاء بالنذور، والاستعداد ليوم القيامة، والاطعام للمحتاجين من أفضل ما يقرب إلى الله عز وجل، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ قَالَ يَا رَبِّ: وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» **أخرجه مسلم .**

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا ﴾ هذا خبر عن المؤمنين، أيضًا من حسن فعلهم: أنهم يخافون الله، وخوف الله عبادة عظيمة تحول بين العبد وبين المعاصي والسيئات، قال في وصف الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠]، وقال: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[المائدة:٤٤]، ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا ﴾ شديدًا مهولًا، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ أي: عظيمًا يلحق الناس بسببه الأهوال العظيمة فتتغير فيه الوجوه، وتضيق الصدور .

﴿ فَوَقَاهُمُ الله ﴾ أي: المؤمنين، ﴿ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ مهالك ومخازي ومساوئ ذلك اليوم، ﴿

﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أعطاهم، ﴿ نَضْرَةً ﴾ جمال وجه وهذا لا يكون إلا بجمال باطن، فإن الإنسان إذا تغير باطنه تغير وجه ولا بد، وكم من إنسان يخرج من بيته وتقول له: ما لك يا أخي وجهك متغير وهو لم يفصح بما في قلبه؛ لكن المؤمنين حين يجازون بهذا الجزاء وتنشرح صدورهم تحسن ظواهرهم، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢]، من الضارة، ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٣]، ﴿ وَسُرُورًا ﴾ فرحت بما هم فيه من الحال .

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي: أن الله جازاهم في الآخرة بسبب صبرهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر:١٠]، ﴿ جَنَّةً ﴾ أفردها؛ لأنها تفيد العموم، والجنة منقسمة إلى جنان كثيرة، ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ألبسهم الحرير الذي كان ممنوعًا عليهم في الدنيا وإنما أُبيح لنسائهم، ولذلك قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ» متفق عليه عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه.

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ ومن نعيمهم في الجنة: أنهم يتكئون ويجلسون جلسة المستريح، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ على السرر المرفوعة المفروشة، ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ لا يرون فيها شمسًا تحرق وجوههم ﴿ وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ ولا برودةً تتعبهم .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أيضًا من جميل شأنها أن الظلال دانية على أصحابها تظلهم بواكها وخضرتها ونعيمها، مع أن الجنة لا شمس فيها ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ شخرت وقربت ﴿ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ ما فيها من الفواكه والخير يأتي إلى المؤمن وهو على فراشه ويأكل ويشرب ولا ينقص منها شيئًا.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ أيضًا من نعيمهم أنه يطوف عليهم الولدان المخلدون ومن سخرهم الله لخدمة المؤمنين في الجنة، ﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ جمع إناء وهو ما يؤكل ويُشرب فيه، ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ حُرمت الفضة على المسلمين في الدنيا وأعطوها في الجنة: **فعن حذيفة** رضي الله عنه «لا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهِمَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ» **أخرجه مسلم**، ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴾ أكواب فيها الخمر والعسل واللبن والماء المصفى وغير ذلك من قوارير لكن ليست من قوارير الدنيا فهو زجاج أو ربما صنعوه من غير ذلك من المصنوعات.

لكنها: ﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذا شيء عجيب يدل على عظمة الخالق حيث خلق قوارير من فضة، فجمع لهم بين جمال الظاهر والباطن، ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ يشربون ما يكفيهم ولا يفضل

شيء مقدرة لهم من عليم قدير.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي: أن المؤمنون يُسقون أيضًا في الجنة كأسًا، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ خمر مخلوط بالزنجبيل أو خمر مخلوط بالكافور أو ماء مخلوط بالزنجبيل أو ماء مخلوط بالكافور؛ لأن ذلك يحسنه ويجمله ويرده .

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ أي: في الجنة عين توصف بأنها سلسبيلًا، ووصفت بذلك؛ لأن المؤمن يشرب منها ولا يغص، وقيل: المعنى (سلسبيلًا يا محمد)؛ لكن الحديث ضعيف .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: من عظيم نعمهم أيضًا أنه يطوف على المؤمنين وهم في قصورهم وخيامهم وأرائكهم مع نسائهم، ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ خلقهم الله لخدمة أهل الجنة وكتب لهم الخلد، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ لكثرتهم، ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ ظننتهم، ﴿ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا ﴾ لجمال وجوههم وبهاء صفاتهم وكثرة عددهم .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أيها المسلم في الجنة، ﴿ ثَمَّ ﴾ هناك، أي في الجنة ونعيمها ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ واسعًا: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» **متفق عليه**، خيمة يعني: الستين الميل تقارب تسعين كيلو متر أو أكثر قل: مائة وعشرة كيلو متر، وهذا دليل على عظمة الله عز وجل وعظيم جزاءه .

وفي صحيح مسلم عن المغيرة قَالَ: " سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ "، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: " {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ.

﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ أي: عليهم من لباسهم، ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ ثياب من سندس من الحرير الخالص،

﴿ خُضْرٌ ﴾ أخضر اللون، ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ نوع أيضًا من الحرير، فيلبسون ألبسة عظيمة ويفرش لهم أحسن الفرش كما ذكر الله عز وجل في سورة الرحمن {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤] ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ زادهم أيضًا أن حلاهم أساور من فضة في أيديهم وأماكن الحلية إكرامًا لهم وتنعيمًا وتزيينًا، ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ مع ذلك كله، ﴿ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ شراباً طاهراً في نفسه مطهراً للظاهر والباطن، وانظر إلى هذا النعيم العظيم الذي ذكره الله لأهل الجنة دعوة إلى هذا السبيل العظيم وإشادة بهذا الخير العميم حتى لا يركن الإنسان إلى دنيا فانية أو نعيم زائل.

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ كل الذي تقدم ذكره في هذه السورة من حال المؤمنين، ﴿ كَانَ لَكُمْ ﴾ يا أهل الإيمان والإسلام، ﴿ جَزَاءً ﴾ مكرمةً، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ عملكم، ﴿ مَشْكُورًا ﴾ عند ربكم سبحانه وتعالى فيجازي على القليل بالكثير، وعلى الصغير بالكبير، وعلى النقير بالقناطير، فالله عز وجل اسمه الشكور فتعبد لله بمعنى هذا الاسم، فلو أعطيت واحد شيئًا يسيرًا وأعطاك ضعفيه أو عملت لأحدهم على أجر معلوم فأعطاك أضعافه تقول: ما شاء الله هذا كريم، هذا رجل شكور؛ لكن ربنا له المثل الأعلى: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر:١٠]، **وعن أبي هريرة رضي الله عنه : «**إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» متفق عليه**، وقد قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[الأنعام:١٦٠].

ثم قال مُخبرًا عن حال محمد ﷺ وما امتن الله عليه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ الجمع لتعظيم نفسه المقدسة، ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وفيه دليل: أن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله وأنه ليس بمخلوق، ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ أي: نزله مفرقًا لم ينزله مرة واحدة.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد ومن آمن معك، ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ الكوني والشرعي، ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ أي: من الكفار والمخالفين لدين رب العالمين، ﴿ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ صاحب إثم أو كفر كن بعيدًا عنهم؛ لأنك إذا أطعتهم تسلطوا عليك وإذا واتيتهم زادوا في شروطهم لكن لا تلتفت إليهم.

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ اذكر الله وسبحه وحمده وهلله فإن ذلك من أسباب نصرك

وعزك ورفعتك فلا أكرم على المؤمن من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت:٤٥]، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢]، وفي حديث أبي هريرةرضي الله عنه يقول: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» **متفق عليه**، ﴿ وَاذْكُرِ ﴾ يا محمد ومن يتابع محمد ﷺ، ﴿ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي: الله بأسمائه الحسنى، ﴿ بُكْرَةً ﴾ في الصباح وهذا إشارة إلى أذكار الصباح، وقد قال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم:١٧]، ﴿ وَأَصِيلًا ﴾ الأصيل من بعد الزوال ويدخل فيه المساء، فالإنسان يتقرب إلى الله بذكره وشكره وحسن عبادته، وهذا إشارة إلى تعين إحياء الأوقات بطاعة الله عز وجل، أما من يقول: ساعة لربي وساعة لقلبي فهذا لا يستقيم ولا يجوز أن تشرك قلبك مع الله إنما في حديث حنضلة: «سَاعَةً وَسَاعَةً»، ساعة تكون في نشاط وساعة تكون في فتور، ولا يحملك هذا الفتور على معصية الله.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ يا محمد، ﴿ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ أي: صلي وذكر السجود؛ لأنه أشرف أركان الصلاة، فالإنسان يضع وجه الذي هو أكرم شيء إليه في الأرض طاعةً لله وتقربًا إلى الله، ﴿ وَسَبِّحْهُ ﴾ يعني التطوع بعد المكتوبة، ﴿ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ لا سيما في الشتاء فليله طويل يستطيع الإنسان أن يصلي فيه وينام ويذكر الله لكن الواقع أن كثير من الناس يصنع نصف الليل الأول مع الواتس أب والفيس بوك والتويتر والتلجرام والتلفزيون والدش وفي ثلث الليل الأخير كالجلد البالي؛ والله المستعان .

ثم قال مخبرًا عن المشركين الذين ضيعوا هذه العبادات والطاعات والقربات: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ أي: أهل الإشراك كما قال الله ﷻ: ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ الدنيا، ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون، ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أمامهم وراء تأتي بمعنى أمام: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[الكهف:٧٩]، ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ ثقيلة أهواله وثقيلة أحماله، فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» متفق عليه فعن أبي هريرةرضي الله عنه أن النبي ﷺ يقول: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ

أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»، فهذا يوم ثقيل يحمل الإنسان ذنوبه قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:٢٥]، مصيبة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي هؤلاء الذين يتمردون على الله خلقهم، ﴿ وَشَدَدْنَا﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم في أحسن تركيب وأحسن تقويم، ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أهلكناهم وأتينا بغيرهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[محمد:٣٨]، فالله لا يعجزه شيء، كانت الفضيلة في بني إسرائيل وحولها إلى أمة محمد، وهكذا تكون الفضيلة في الشخص ما دام مستقيمًا على الكتاب والسنة وتحول إلى غيره إذا انحرف وإنما هو ابتلاء واختبار .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: هذه السورة وما فيها من العبر تذكرة لك أيها المسلم فاستفدها، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقًا موصلًا إلى مرضات الله وإلى جنته التي أعدها للمؤمنين.

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ أيها الناس، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولذلك قيل:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتَ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

لكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يترك الطاعة ويقول: شاء الله، ما أدراه أن الله شاء ذلك، بل عليه يصلي ويصوم ويحج ويعتمر فهذا أمر الله ﷻ، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر إلا إذا قد وقع الإنسان في مصيبة أو في محنة عند ذلك يعلم أن الله قد شاء ما كان قبل فما ندري بمشيئة الله له إلا بعد أن تقع وتكون، فلا يجوز الاحتاج بالقدر على ترك الطاعة، ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأحوالكم، ﴿ حَكِيمًا ﴾ في أفعاله، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية والتوفيق والتسديد، ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين، ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ موجعًا يوم القيامة، نسأل الله أن يغفر لنا ولكم.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

مكية، فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: بينما نحن في منى ورسول الله ﷺ يقرأ علينا سورة المرسلات طرية إذ خرجت حية، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوهَا»، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا» **أخرجه البخاري**، وهي آخر ما قرأ النبي ﷺ في صلاته عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ، سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ. إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ» متفق عليه .

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ قيل: الملائكة، وقيل: الرياح وهذا الذي رجحه ابن كثير: أنها الريح لقول الله عز وجل: ﴿ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[الروم:٤٦].

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ قيل: الرياح وقيل: الملائكة، ورجح ابن كثير: أنها الرياح تعصف بما أمامها.

﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ قيل: الملائكة، وقيل: الرياح وفسرها ابن كثير: بأنها الرياح تُرسل وتنشر، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[الحجر:٢٢]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾[الفرقان:٤٨].

﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة.

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكة يأتون بالذكر من الله عز وجل.

﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ إعذارًا للناس ونذارة لهم حتى لا يقول قائل: ما جاءنا من بشير أو يقول قائل: ﴿ لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾[القصص:٤٧]، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب للإعذار والإنذار، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥].

أقسم الله عز وجل بما تقدم وكان جوابه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ يا معاشر الكفار من اليوم الآخر وما إليه ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لا محالة وقد أحسن من قال:

ما قضى الله كائنًا لا محالة ❊❊والشقي السعيد من لا محالة.

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[التكوير:١-٢]، ينطمس ضوؤها وتتساقط إذ أن السماء تتحول وتطوى.

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ بعد أن كانت محكمة لا شقوق فيها يوم القيامة تُفرج وتتكسر وتتهاوى، كما قال تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾[المعارج:٨]، تسيل كالرصاص، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[الفرقان:٢٥].

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ هذه الجبال العالية تنسف وتتبدد، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾[طه:١٠٥]، والنسف: هو الإزالة بسرعة فتنسف سريعًا ثم تكون الأرض مستوية لا عوج فيها ولا أمتا، ومبدأ الجبال أنها تسير، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[النمل:٨٨]، ثم تكون كالعهن المنفوش، ثم تنسف ثم تتبدد، كما تقدم .

﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ قيل: أُجلت، وقيل: جمعت يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[المائدة:١٠٩]، فيجمع الله الرسل للشهادة على أممهم، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ﴾[النساء:٤١-٤٢]، وقال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٦٩] .

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أي أجلت ليوم الفصل، وسمي بيوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بين الناس بين أهل الحق وأهل الباطل، وترد المظالم إلى أهلها، ويحكم على كل بما يستحق، ويسمى بيوم الفتح، ويوم الجمع، ويوم التغابن وأسماء كثيرة في القرآن والسنة .

فيوم الفصل يوم شديدة أهواله وعظيمة أحواله إلا ما رحم ربي ولذلك قال الله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أي: أنه يوم عظيم الأهوال، أمامك تسمع صوتًا وترهب من سقوطه، تتشقق فيه السموات السبع مع شدتها وصلابتها وأهوال تذهب معها العقول، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:٢]، يبصر الرجل ابنه ولا يلتفت إليه،

وتنظره الأم ولا تبالي به، ويفر الزوج من زوجته، بل يود المجرم لو يفتدي بجميع الناس ويسلم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تهديد ووعيد للمكذبين بالرسل؛ أنهم يعذبون عذابًا أليمًا موجعًا.

ثم يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ يقول للكفار: ما لكم لا تنزجرون عن كفركم وباطلكم: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، ولوط ومن إليهم أهلكهم الله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾[العنكبوت:٤٠]، ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾[فاطر:٤٤]، فليكن لك عبرة يا أيها المسلم إذا دمدم الله على بعض الكافرين أو بعض العصاة والملحدين ليكن لك عبرة وعليك بالتوبة والإنابة.

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ نلحقهم بالآخرين الذين يسلكون سبيلهم، يلحقهم الدمار والخزي والبوار.

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ في كل زمن وحين يدمدم الله على المجرمين: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾[الأنعام:٤٤]، وأقرب ما حل بالعالم جائحة كورونا أقرب مثل، اصبح الناس حبيسوا البيوت، قليلوا الأرزاق، كثيروا الفوت، عظيم الموت واشتد بهم الخوف والفزع، فهذه من آيات الله التي يعذب الله عز وجل بها من شاء.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كررها لشدة الوعيد عليهم.

ثم قال عز وجل مبينًا خلق الإنسان: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ ﴾ ألم نخلقكم يا معاشر الناس من ماء يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة ﴿مَهِينٍ﴾ حقير ضعيف لا حيلة له.

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ﴾ رحم المرأة، يستقر فيه ﴿ مَكِينٍ ﴾ يمسكه ويحفظه وإلا ربما سقط الجنين مع كبر حجمه لكن يحفظه الله فجعله في قرار مكين مستمكن، ربما تسقط المرأة حتى لا يسقط الجنين.

﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أقله ستة أشهر أو تسعة أشهر وربما زاد عن التسعة لكن غالبه تسعة أشهر، وقد وجد أن بعض النساء حملت أربع سنين وبعضها حملت سنتين وربما خرج ولدها وله أسنان.

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: ما تقدم بيانه، ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ إذ أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا

في الأرض.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالرسل مع ظهور هذه الحجج القويمة على صدق نبوتهم وعلى عظيم شأن الله عز وجل.

ثم امتن عليهم بنعم أخرى فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ ألم نجعل لكم هذه الأرض التي تسيرون عليها كفاتًا تكفت أذاكم أبوالكم وما يخرج منكم في حياتكم ثم تكفتون فيها عند موتكم فلا تظهر رائحتكم الكريهة ولا مناظركم المتغيرة، فكيف لو جعلنا الله عز وجل كبقية الحيوان تنهشنا الكلاب وتتساقط العظام ويرى الاب ابنه والابن أباه والزوج زوجه والأخ أخاه على هذا الحال، وكيف إذا كان ما يخرج منا يبقى ظاهرًا على وجه هذه الأرض لأنتنت.

﴿ أَحْيَاءً ﴾ بتغطية ما يخرج منكم، ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ حين تموتون وتقبرون فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبال عظيمات، ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ عاليات طويلات، ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ماءً عذبًا لذيذًا.

﴿ وَيْلٌ يوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بعد هذه الحجج وهذه الأدلة الظاهرة على قدرة الله العظيمة: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾[الانفطار:٧-٩].

ثم قال تعالى: مبينًا حالهم يوم القيامة: ﴿ انطَلِقُوا ﴾ اذهبوا يا معاشر الكفار، ﴿ إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ مما بلغته لكم الرسل من وعيد يوم القيامة.

﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ﴾ انطلقوا إلى نار يتصاعد منها لهب عظيم كالظل ولا ظل له، ﴿ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ مجزئ إلى ثلاثة أجزاء، والنار ربما خرج منها العنق الطويل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ**» أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) .

﴿ لا ظَلِيلٍ ﴾ لا هو ظل تستظلون فيه، ﴿ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهبِ ﴾ عنكم من شدة حر النار شيئًا، فالمعنى أنه لا ظل فيه ولا يغني من الحر بل هو في نفسه عذاب والله المستعان.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي ﴾ أي: النار تلقي بشرر عظيم، يتطاير منها ﴿ بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ كالقصور

العظيمة، وقيل: كأجذاع النخل؛ لأنهم كانوا يقسمون جذع النخلة إلى ثلاثة أقسام ثم يرمون بها، وأيًا كان فهو شرر عظيم.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ كأنه جمال سود عظيمة، وقال بعضهم: حبال السفن الكبيرة، ﴿ صُفْرٌ ﴾ كالنحاس، لكن المعنى الأول أقرب: أنه مثل الجمال يعني: في شدة صفاره وسواده.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ من هذا العذاب الشديد والخزي العظيم، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ هَذَا يَوْمُ ﴾ أي يوم القيامة أشار إليه باسم الإشارة القريب لقربه وتحقق وقوعه ﴿ لا يَنطِقُونَ ﴾ لا يستطيعون الكلام ولا الدفاع عن الأنفس والاعتذار حيث يقول الله عز وجل لهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، ولهم مواقف، في موقف يتكلمون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٧]، ومواقف يأمرهم الله بعدم الكلام فلا يستطيعون كلمة، وربما كان أهل الموقف لا يستطيعون إلا همسًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]

﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يؤذن لهم بالاعتذار كما قال تعالى: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾[المؤمنون:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[الروم:٥٧]؛ لأن الاستعتاب قد يجعل لك حظا في الاعتذار وأمل في النجاة، لكن حين يبدأُك بالتأديب تعلم أن لا سلامة.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ في هذا اليوم شديد الحر شديد الأهوال.

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ يعني: هذه الأحداث التي ذُكرت تكون في يوم الفصل، ﴿ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿ وَالأَوَّلِينَ ﴾ مع الأمم السابقة واللاحقة، يجمع الله الناس جميعًا في صعيد واحد، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي.

﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ إن كان لكم مفر ومهرب وخلاص عاجلوا به؛ لكن: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[المؤمنون:٣٦].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به مع هذه الحجج والدلائل والآيات.

ولما ذكر الله حال المشركين في دنياهم وأخراهم وما لحقهم من الذل والهوان ذكر حال المؤمنين: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ يقول: لكن أهل التقوى يختلفون عن هؤلاء فإنهم ينعمون، ﴿ فِي ظِلالٍ ﴾ لا

يؤذيهم الحر ولا القر، ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ من خمر، وماء، ولبن، وعسل ممزوجة بالكافور والزنجبيل في قوارير من فضة وأكواب من فضة يتنعمون بها ويتلذذون بالشرب منها.

﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ زد على ذلك: أنهم يتنعمون بالفاكهة: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[المؤمنون:١٩]، فواكه كثيرة متنوعة في جمالها وطعمها، قال ابن عباس: ليس مما في الجنة من الأرض إلا الأسماء، وهذا كقول الله عز وجل في سورة الواقعة: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة:٢٧-٣٣].

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ كلوا يا معاشر أهل الإيمان وتنعموا في الجنة بالشرب أيضًا هنيًا مريئًا لا يلحقهم فيه غصة ولا يلحقكم بسببه مرض: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة، وهذا دليل على أن الجنة لا تُنال بالأماني إنما تُنال بالعمل، أي: سببها العمل وإلا فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ دَاخِلٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» أخرجه مسلم، فالمنفي باء العوض، والمثبت في الآية: السبب.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ بما تقدم ذكره من وعد الله تعالى ﴿ نَجْزِي ﴾ نكرم وننعم على ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالتوحيد والمتابعة والطاعة

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لكن المكذبين لهم الويل والعذاب والخزي.

ثم عاد إلى تهديد قريش: ﴿ كُلُوا ﴾ يا معاشر أهل الكفر، ﴿ وَتَمَتَّعُوا ﴾ في هذه الدينا، ﴿ قَلِيلًا ﴾ عمرًا قليلًا بالنسبة لما بعده وإن طال، ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ إنكم مشركون كافرون بالله ورسله مستحقون للعذاب والعقاب على ذلك.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عذاب أليم لمن كان هذا حاله.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي: من كفرهم أنهم إذا قيل لهم: ﴿ ارْكَعُوا ﴾ صلوا ﴿ لا يَرْكَعُونَ ﴾ لا يصلون وهذا دليل على كفر تارك الصلاة، ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا وَلَا يُجَبُّوا وَلَا يَسْتَعْمِلَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ فَقَالَ: «**لَكُمْ أَنْ لَا تُعْشَرُوا، وَأَنْ لَا تُحْشَرُوا، وَلَا**

يُسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ» ، وَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ**» . أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٥١٠) أي: لا نخرج معك جهاد، لا نعطي زكاة ولا نصلي يعني: الجبي أن الإنسان يجعل وجهه في الأرض ويرفع مؤخرته فظنوا أن السجود من هذا الصنيع وهو تواضع لله فقال النبي ﷺ: «لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا » عفاهم في الجهاد والزكاة يتألف قلوبهم، « ، وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ»، ما هناك دين ما فيه صلاة؛ لا بد من الصلاة.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين تركوا الصلاة وأعرضوا عن المجيء بها.

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ويصدقون وينقادون، فإذا لم ينقادوا لكلام الله وكلام رسوله ﷺ فبماذا يأخذون إذ لا وسع الله على من لم يسعه الكتاب والسنة والحمد لله.[٦]

[٦] وكان الانتهاء من تفسير جزء تبارك في الحادي عشر من رمضان لعام واحد وأربعين وأربعمائة وألف بمسجد الصحابة بمدينة الغيضة.

الفهرس

تفسير سورة (ق) ٢
تفسير سورة الذاريات..... ٢٥
تفسير سورة الطور..... ٤٢
تفسير سورة النجم..... ٥٤
تفسير سورة القمر ٧٨
تفسير سورة الرحمن..... ٩٥
تفسير سورة الواقعة..... ١١١
تفسير سورة الحديد ١٣٠
سورة المجادلة ١٥٤
سورة الحشر ١٦٤
سورة الممتحنة ١٧٥
سورة الصف ١٨٢
سورة الجمعة ١٨٨
سورة المنافقون..... ١٩٤
سورة التغابن ١٩٩
سورة الطلاق..... ٢٠٥
سورة التحريم ٢١٣
سورة الملك..... ٢٢١
سورة القلم..... ٢٢٩

سورة الحاقة. ٢٤٣
سورة المعارج ٢٥١
سورة نوح ٢٥٩
سورة الجن..... ٢٦٦
سورة المزمل. ٢٧٣
سورة المدثر ٢٨٠
سورة القيامة..... ٢٩٠
سورة الإنسان ٢٩٨
سورة المرسلات ٣٠٧